لطائف البيان

في تفسير القرآن

تفسير جزئي الأنبياء والمؤمنون

(١٧ - ١٨)



تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الأنبياء والمؤمنون

(١٧-١٨)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي الأنبياء والمؤمنون (17-18).

تأليف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (234 صفحة).

الطَّبعة: الأولى، 1447هـ - 2025م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

من أراد طبعه وتوزيعه مجانًا، فليتواصل مع المؤلف للإذن له به.

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الأنبياء والمؤمنون

(١٧-١٨)

تأليف

أ. د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبّر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عددٍ من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يوميٍ بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض

النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: "**لطائفُ البيان في تفسير القرآن**".

وقد تم -ولله الحمد- إنجاز الكتاب السابع من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (الأنبياء والمؤمنون) (17 – 18).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها ومراجعتها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 صفر 1447هـ

تفسير جزء الأنبياء

(١٧)

تفسير سورة الأنبياء

تفسير المقطع الأول من سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ
الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا
خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ
أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ
ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

شخصية السورة:

سورة الأنبياء؛ سورةٌ مكية[1]، **وسُمّيت بهذا الاسم؛** لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذكر فيها ستة عشر نبيًّا، **والمقصد العام للسورة:** هو بيان وحدة رسالات جميع الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، فكلهم جاء بالتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له.

ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾، **اقترب:** افتعل من القُرْب، والاقتراب مبالغة في القرب[2]، **ومعناه:** قصر المدة التي بينهم وبين موعد حسابهم يوم القيامة، فإن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة الصغرى، **وفي الحديث:** "**بُعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى**"[3]، **مما يدل على أن** الفرق يسير بين بعثته ومجيء الساعة، كالفرق بين تقدّم الأصبع الوسطى على السبابة، وهذا يعني أن ما سبق من عمر الدنيا أكثر مما بقي، وهو أسلوب وعظي، الغرض منه تنبيه للناس أن يستعدوا لملاقاة الله، فإنه قريب، والناس لفظ عام يشمل جميع الناس[4] من أمة محمد ﷺ بنوعيها، أمة الإجابة، وأمة الدعوة، لأنها آخر الأمم، ولكن السياق يفيد أن المراد به كفار قريش، بدليل ما بعده[5]، والواو للحال، أي حال كونهم يعيشون في غفلة عن الاستعداد لهذا اليوم، وأتى بـ"في" التي تُفيد معنى الظرفية، لبيان

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 331).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 8).

(3) صحيح البخاري: (6/ 166)، برقم: (4936).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 73).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1061).

أنهم مُنغمسون في الغفلة وغارقون فيها، كما أنهم معرضون عن الإقبال على ما ينفعهم، وهو الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، فجمعوا بين سوأتين: الانشغال بالدنيا عن الاستعداد للآخرة، والإعراض عن الإيمان بالرسول الذي جاء لتذكيرهم.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾، **"ما"** هي النافية، والمقصود بالذكر هنا هو القرآن الكريم الذي جاء به محمد ﷺ إليهم من ربهم، **ومحدث بمعنى:** محدث النزول[1]؛ لأن القرآن كان يتنزّل على فترات، لا أن الكلام محدث، فإن القرآن كلام الله، وهو أزلي وليس بمخلوق، بل هو صفة من صفاته سبحانه، وفائدة الحصر بـ"ما" و"إلا" لبيان اختصاصهم بهذا الفعل، فكأن شغلهم الشاغل لهم هو الانشغال عن استماع القرآن الكريم والتلهّي عنه بأي وسيلة، والواو للحال، **أي:** حال كونهم يلعبون عند استماعه، والمقصود باللعب هو التشاغل عنه بالجوارح على سبيل الاستهزاء؛ لأن اللعب من صفات الأبدان، وأما حال قلوبهم عند استماعه فهي لاهية، **أي:** غافلة، وغير منتبهة له، فجمعوا بين سَوأتين أثناء سماعهم للقرآن: التشاغل باللعب بجوارحهم عنه، وصرف قلوبهم عن التركيز والتفكر فيه، وتحدث المشركون فيما بينهم سراً عن محمد ﷺ متسائلين عنه بلفظ الإشارة تحقيراً له، وأنه بشر مثلهم، فيكف يكون رسولاً من الله إليهم؟!،

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1062).

فقد اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر فهو ساحر، وأن معجزاته سحر[1]، وكان هذا هو اعتقاد عموم الكفار في الأمم السابقة، وانتقل إلى المشركين، وهي شبهة باطلة، فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الرسول من جنس المُرسَل إليهم، من أجل أن يقتدوا به، فيصلون كما يصلي، ويصومون كما يصوم، ويتأسّون به في حال صحته ومرضه وفقره وغناه وهكذا، ولو كان الرسول إليهم من الملائكة لتعذّرت القدوة والأسوة به من البشر، لاختلاف جنسه وطبيعته عنهم، ثم تساءلوا فيما بينهم، إذا كان بشراً مثلكم، وكان الذي جاء به وهو القرآن الكريم سحراً، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه[2]، وتصدقون السحر الذي جاء به، وأنتم تبصرون أنه بشر مثلكم؟! وهو سؤال استنكار، الهدف منه إقناع من كان قد تأثر بالقرآن لقوة بلاغته للابتعاد عنه.

وقولـــــه: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾، فأطلع اللهُ رسولَه على ما تحدثوا به سراً فيما بينهم، **وفي "قال" قراءتان:** قراءة حفص وغيره بألف، **وقراءة الجمهور** "قل" بدون ألف[3]، **وأمر الله محمداً ﷺ أن يقول:** إن الله يعلم ما يقوله أهل السماء وأهل الأرض فلا يخفى عليه خافية، ويعلم أني صادق فيما جئتكم به، وقد علم بما افتريتم عليّ وأخبرني به، وذيّل

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 394).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 470).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 411).

الآية باسمين من أسمائه هما: "السميع العليم"، وهو خبر لكنه يفيد التهديد والوعيد، فهو يسمع أقوال الخلق، ويعلم أحوالهم وما يخفونه في ضمائرهم، وسيجازيهم على ذلك.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾، "بل" تفيد الإضراب عن وصفهم السابق للقرآن بأنه سحر، إلى قولهم إنه أخلاط متداخلة يراها في منامه لا حقيقة لها، والأصل في الأضغاث أنها جمعُ ضغثٍ، وهو التباس الشيء بعضه ببعض، ومنه الضغث، وهو القبضة من الحشيش مختلطة الرطب باليابس[1]، **كما في قوله:** ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[ص:44]، ثم أُطلق على الأخلاط المعنوية من الأفكار والمعلومات المتداخلة، ثم أضربوا عن هذا أيضًا ووصفوه بأن الرسول اختلقه من عند نفسه، ولم يُوحِ به الله إليه، ثم أضربوا عن ذلك ووصفوه بأنه شاعر[2]، فتناقضت أقوالهم واختلفت، وهذا دليلٌ كافٍ على بطلانها، **كما قال الله عنهم:** ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾[الذاريات:8-9]، **ويحتمل** أن يكون هذا حال مجموع المشركين، **فقد قالت فرقة منهم:** إنه سحر، **وفرقة قالت:** إنه أضغاث أحلام، **وفرقة قالت:** إنه افتراه واختلقه من عند نفسه، **وفرقة قالت:** شاعر وما جاء به شعر[3]، ولا مانع من اجتماع القولين معًا، لوجود التردد من

---

(1) ينظر: تاج العروس: (5/ 288).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 470).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 185).

بعض القائلين والتعدد للأقوال من البعض الآخر، ثم تجاوزوا هذا الوصف كله للقرآن إلى طلب معجزة حسية من الرسول يأتي بها إليهم، **مثل**: ناقة صالح، أو عصا موسى ونحوها، وقد أرسل الله الرسل السابقين بالآيات إلى أقوامهم فكذبوا بها ولم يؤمنوا برسلهم، فأخذهم بالعذاب، ولو أرسل على المشركين آية وكذبوا بها لاستأصلهم بعذابٍ كما فعل بمن قبلهم، **كما قال**: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾[الإسراء:59].

وقوله: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾، ثم أخبرهم الله بأن الكفار من قبلهم قد طلبوا الآيات من رسلهم، فأنزلها الله عليهم، فلما رأوها لم يؤمنوا بها، فأهلكم الله، **والمقصود بالقرية** أهلها، و"مِنْ" للجنس، لبيان كثرة القرى التي أهلكها الله بسبب تكذيبها لرسلها، أفيؤمن كفار مكة لو أنزل الله عليهم آية حسية؟!، وهو سؤال استنكاري تعجبي! فإن من سنن المكذبين عدم الإيمان بالآيات، ولا فرق بين حالهم في عدم الإيمان وفي الهلاك وحال من قبلهم(1)، فالقرآن من أعظم الآيات الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ، ومع ذلك ما آمنوا به، بل إن الله قد أعطاهم إحدى الآيات الحسية، وهي انشقاق القمر، **كما قال**: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾[القمر:1]، فكذبوا بها، ووصفوها بالسحر المستمر، وفي ذلك إشارة إلى أن الآية والمعجزة لا تكون سبباً للإيمان، إلا أن يشاء الله(2).

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1063).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 185).

وقولـه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾، بيّن الله في هذا الآية أن جميع الرسل السابقين كانوا رجالاً من البشر، لا ملائكة، وذلك ردّاً على استنكار كفار قريش لنبوة محمد ﷺ؛ لأنه من البشر، وأخبرهم بأن الفرق الوحيد بينهم وبين الرسول ليس البشرية، بل هو اختصاصه بالوحي من الله إليه دونهم، كما قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[فصلت:6]، والآية تنفي ثبوت النبوة في النساء، وأمرهم أن يسألوا أهل الذكر عن بشرية كل الرسل، إن كانوا يجهلون هذه المعلومة المشهورة عند كل الطوائف، والمقصود بهم هنا علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى[1]؛ لأنهم كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد ﷺ، فإن شهدوا ببشرية الرسل صدّقهم كفار قريش[2]، ودلالة الآية عامة تنطبق على كل أهل علم في كل زمان ومكان، فمن جهل شيئاً سأل عنه علماءه المتخصصين فيه، فمسائل الفقه يُسأل عنها الفقهاء، ومسائل الطب يُسأل عنها الأطباء، ومسائل الهندسة يُسأل عنها المهندسون، وهكذا في كل فن، وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز أن يُسأل الجاهل، ولا يُعتد بجواب الجهلة، فإنهم يُضلون أكثر مما ينفعون، فكن حريصاً في أمور دينك على سؤال أهل العلم عنها، أكثر من حرصك في أمور دنياك، فبعض الناس يتساهل في السؤال في أمور الدين، فيسأل أُناساً دون أن يتحرى ويتأكد من صلاحيتهم للفتوى، بينما في أمور الدنيا يكون حريصاً على الذهاب

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 334).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 75).

للمتخصصين، فلا يقبل صرف الدواء من الخباز مثلاً، بل يذهب إلى المستشفى ويسأل عن الطبيب المختص، ويأخذ الدواء منه، ودين المسلم أهم وأغلى من دنياه؛ فعليه أن يكون حريصاً عليه أكثر من حرصه على الدنيا، فلا يسأل فيه إلا أهل الذكر، وهم العلماء المتخصصون العاملون بالذكر، **وهذان شرطان رئيسيان فيهما، الأول**: أن يكون من أهل العلم، **والثاني**: أن يكون من أهل التقوى والورع العامل بعلمه، **وفي الآية إشارة** إلى أن العالم لا يلزمه أن يسأل عالماً آخراً، إلا إن كان من باب التأكد أو المذاكرة، وإنما الذي يلزمه سؤال العلماء هو الجاهل.

ثم قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾، ثم بيّن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن الله ما جعل الرسل ذوي أجساد إلا ليأكلوا الطعام[1]، وهذا ردٌ على قولهم: مالِ هذا الرسول يأكل الطعام"، فالجسد يحتاج إلى غذاء، وغذاء الجسد هو الطعام، ومن كانت هذه صفته فإنه يموت ولا يعيش مُخلداً في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾، ثم صدق الله الرسل بتحقيق وعده لهم بإنجائهم والمؤمنين معهم، وإهلاك الكافرين بهم، الذين تجاوزوا الحد في الكفر والفساد في الأرض، وفي الآية تهديد وتحذير لكفار مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب من سبقهم من المكذبين إن لم يسارعوا إلى الإيمان.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 385).

وقولــه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾، الخطـاب لقريش، لبيان نعمته عليهم خاصة والعرب عامة، بأن معجزة محمد ﷺ هي أعظم من معجزات الرسل قبله، لو تأملوا فيها بعقولهم، فالقرآن أنزله الله إليهم بلغتهم وعلى رسول منهم، وفي معنى: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾، قولان[1]، الأول: فيه ما يُصلح به عقائدهم وعباداتهم وسائر أحوالهم، وفيه العظة والعبرة التي تجعلهم مستعدين للدار الآخرة، والثاني: فيه شرفهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة إن اتبعوه وعملوا بما فيه، ولا مانع من اجتماع المعنيين في القرآن، ففيه وسائل الصلاح والهداية من الذكر والموعظة لمن عمل به، وفي التمسك به شرف ورفعة لهم، وهو الذي حصل للعرب بعد إيمانهم به، فقد كانوا أعراباً متفرقين لا وزن لهم في الجزيرة، فجعل الله منهم أمة وقادة فتحوا البلدان وحكموا العالم، فهلّا تأملتم بقلوبكم هذه النعمة العظيمة فسارعتم إلى الإيمان بها ليحصل لكم ما وعدكم الله به من الفضل الشرف، وأنه لا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالعمل بهذا الكتاب، فهو سبب للرفعة في الدنيا والآخرة، وفي الآية إشارة إلى سبب ضعف حال المسلمين اليوم، فقد تخلّفوا عن العمل بالقرآن الكريم والتحاكم إليه، فذهب عنهم الشرف والمكانة بين الأمم، وصاروا في مؤخرة الأمم في كل المجالات.

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾، "كم" هي الخبرية التي تفيد التكثير، و"مِن" هي البيانية،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 186).

أي: وكم هي عدد جنس القرى الكثيرة التي أهلك الله أهلها بسبب كفرهم وظلمهم؟!، **والقصم**: هو الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، وهو كناية عن الاستئصال لها وإهلاكها بقوة كما فعل بعاد وثمود وغيرها[(1)]، وأوجد الله بعدها أمماً أخرى، **والإحساس**: هو الإدراك بأحد الحواس، قد يكون بالبصر أو بالسمع ونحوها، **والبأس**: هو العذاب الشديد النازل بهم، فإذا حصل لهم ذلك سارعوا بالهروب من قريتهم خوفاً من العذاب الذي سمعوا أو رأوا مقدماته، **والركض في اللغة**: الضرب بالرجل والإصابة بها[(2)]، **وسُمي الجري السريع ركضاً**؛ لأن الذي يجري سريعاً يضرب الأرض برجله، فتقول لهم الملائكة على سبيل التهكم: لا تهربوا، فلا مفرّ لكم منه، وارجعوا إلى حالة الترف التي كنتم تعيشون بها في مساكنكم في الدنيا التي شغلتكم عن الإيمان بالله والاستعداد للدار الآخرة، ليسألكم الناس عما جرى عليكم، والمقصود بالسؤال هنا سؤال تبكيت وتهكم[(3)].

وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾، فلما أيقنوا بالهلاك حين رأوا العذاب؛ أقروا بظلمهم لأنفسهم بالكفر والتكذيب، ودعوا على أنفسهم بالويل والهلاك، واستمروا في دعائهم وصياحهم من حين رأوا العذاب حتى هلكوا وخمدت أنفاسهم وانتهت أرواحهم،وهذا حال من يُصاب بمصيبة، فإن العبارات والكلمات تذهب عليه

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 25).

(2) ينظر: تاج العروس: (18/ 355).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1067).

من شدة الألم والفزع، فيُردد ويكرر أول عبارة نطقت بها لسانه، **والحصيد**: هو الزرع المحصود[1] الذي سقط على الأرض لا حركة فيه، **والخمود** من صفات النار حين تنطفئ ويذهب حرّها، وفي ذلك إشارة إلى أنه بهلاكهم انتهى شرهم وفسادهم في الأرض، كما ينتهي شرر النار إذا صُب عليها الماء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تنبيه الله تعالى لعباده بقرب قيام الساعة حتى يستعدوا لها بالإيمان والتقوى.

2- تناقض المشركين واختلاف أقوالهم في محمد ﷺ، وفي القرآن الكريم.

3- بيان أن القرآن الكريم فيه شرف ورفعة لمن حفظه وعمل به.

4- بيان أن الظلم سبب لهلاك الأمم والأفراد.

5- بيان أن كل ظالم جبار يدعو على نفسه بالويل والثبور إذا نزل به الهلاك.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 28).

تفسير المقطع الثاني من سورة الأنبياء

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن
لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ
عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ
إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ
مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ
وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾
وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾، يُخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لم يخلق الكون كله بما فيه من مجرات ومخلوقات متنوعة على وجه اللعب، وإنما خلقه لغاية وحكمة، **كما قال:** ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان:39]، فغاية خلق الكون هو إثبات الحق وإقامته، والاستدلال به على خالقه الحق سبحانه، ولم يخلقهما عبثًا ولا لعبًا من غير فائدة.

و"لو" افتراضية تُعبّر عن المستحيل، ولو أراد الله أن يتخذ لهواً، وهو مستحيل أن يتخذ الله لهواً في مخلوقاته، **وقد فسّر المفسرون لفظ اللهو بعدة معانٍ[1] منها:** الولد، النساء، داعي الهوى والشهوة، ولا تعارض بينها، فاللهو يشمل هذه المعاني كلها، فإن اللهو في لغة العرب يُكنّى به عن الجماع[2]، به يكون الولد، وفي الآية ردٌّ على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

و"إن" هنا في معناها قولان[3]، الأول: أن "إن" بمعنى ما النافية، **أي:** ما كنا فاعلين ذلك، **والثاني:** أن "إن" شرطية، **أي:** لو كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله؛ لاتخذنا لهواً من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم، **والقول الأول** قول المفسرين، **والقول الثاني** قول النحويين، والأول أجود؛ لأنه يستحيل ذلك على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعدم حاجته إليه.

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 440).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (6/ 2487).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 387).

وقولـــــه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)﴾، "بـل" تـأتي للإضـراب وإبطـال مـا سـبق، وهـو اتخـاذ اللهـو مـن الـصاحبة والولـد، وأن ذلـك باطـل، فإنـه لا يحتـاج إلـى صـاحبة ولا ولـد؛ لأنـه مستغنٍ عن ذلك كله، والقذف هو الرمي بشدة، والـشدة قـد تكـون حسية وهـي القوة، وقد تكـون معنويـة وهـي الكـلام البـذيء، كمـا في قولـه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[النور:23]، والحق: هو الحـجج والبراهـين الـساطعة، والباطـل: هـو شبهاتهم المتهالكة، والـدمغ: الهـلاك، مـأخوذ مـن إصـابة الـدماغ[1]، وهـو مركـز الحياة، فإذا ضُرب الدماغ سقط صاحبه، والزاهق: هو الزائـل الـذي لا يثبـت ولا يبقى، والمعنى: أن الله أتى على حجج وشبهات الكفار في هـذه القـضايا وغيرهـا فأبطلها من أصلها فسقطت، ثم دعا على المـشركين بـالهلاك والعـذاب الألـيم؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يليق به سبحانه.

وقولـــــه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)﴾، ثـم أخـبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن له كل من في السموات والأرض عبيـداً، وهـو خـالقهم ورازقهـم ومـالكهم، ولـه الملك المُطلق فيهم، ومـن عنـده: المقـصود بهـم الملائكـة، الـذين يـسكنون في السماء، وهم من عبيده الذين خلقهم لعبادته، في الحديث: **"ما فيها موضع أربـع أصـابع، إلا وملـك واضـع جبهتـه سـاجداً لله"**[2]، فعـددهم كثيـر جـداً، وخلقهـم

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 474).

(2) مسند أحمد: (35/ 405)، برقم: (21516)، وسنن الترمذي: (4/ 134)، برقم: (2312)، وإسناده حسن لغيره.

عظيم جداً، ومع ذلك فليس عندهم كِبر عن عبادة الله، كما هو حال المشركين الذين يتكبرون عن عبادة الله، ولا يصابون بالتعب والإعياء أثناء عبادتهم له، **والحسر في اللغة:** هو التعب[1]، بل هم مستمرون في تسبيح الله وتنزيهه ليلاً ونهاراً، لا يفترون ولا يتوقفون عن ذلك بسبب التعب أو الملل، فنفى عنهم الكِبر فلا يتركون العبادة تكبراً عنها، ولا يتركونها تعباً، ولا يتركونها مللاً منها، بل هم مُواظبون ومداومون عليها.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾، **"أم"** استفهامية، وهي المنقطعة التي تأتي بمعنى "بل"، وتفيد الإضراب عما سبق، والهمزة فيها للاستفهام الإنكاري التعجبي مما بعدها[2]، **والمعنى:** لم يكن حال المشركين في توحيد الله وعبادته كحال الملائكة، بل اتخذوا آلهة أرضية، مصنوعة من الخشب أو الحجر أو التراب ونحوها، مما يدل على سفالتها وحقارتها، فهي غير قادرة على إحياء الموتى؛ لأن من صفة الإله القدرةُ على الإحياء والإماتة.

ثم قال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾، لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الله الواحد الذي فطرهما لفسدتا، ووجه الفساد أنه لو كان للكون مدبران أو أكثر من ذلك، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، فإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود

---

(1) ينظر: تاج العروس: (11/ 13).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 108).

مرادهما معـًا، ووجـود مـراد أحـدهما دون الآخـر يـدل علـى عجـز الآخـر وعـدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فتعيّن أن القـاهر الذي يوجد مراده وحده، مـن غيـر ممـانع ولا مـدافع، هـو الله الواحـد القهـار(1)، فانتظـام الكـون بهـذه الـصورة منـذ خلقـه، دليـل علـى انفـراد الله وحـده في خلقـه وتدبيره، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ولذلك ذيّل الآية بتنزيه نفسه عن كل نقـص لكمالـه وحـده، وذكـر أنـه رب العـرش، وهـو سـقف المخلوقـات وأوسعها وأعظمها، فربوبية ما دونه من باب أولى، ونزه نفسه عن كل ما يصفه به المشركون مما لا يليق به من الشريك والصاحبة والولد.

وقولـه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، لا يُسأل الله مـن الخلـق لـم فعلت كذا، ولـم لـم تفعل كذا؛ لأنه الخالق المالك الحكيم القادر، فلا يقدر أحـد أن يمانعه أو يعارضه لا بقول ولا بفعل، وذلك كناية عن جريان أفعال الله تعـالى على مقتضى الحكمة، بحيث إنها لا مجال فيها لانتقاد منتقد، وقد يُسأل سبحانه مـن بعـض خلقـه سـؤال استـشارة، كـسؤال الملائكـة، في قولـه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[البقرة:30]، أو سؤال دعاء، أو سؤال استفادة واستنباط، مثل أسئلة الـبعض عـن الحكـم المبثوثـة في الأحكـام الـشرعية، فهـذا كلـه غيـر ممنـوع، أمـا الخلق فإنهم يُسألون من قِبل خـالقهم ومـالكهم، سـؤال تـوبيخ ومحاسـبة، **كمـا قـال**: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[الحجـر:92-93]؛

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:521).

لأنهم ليسوا مالكين، وفي أفعالهم خلل كثير[1]، **ويحتمل** أن الخطاب موجّه للملائكة، فمع قربهم من الله وعبادتهم وطاعتهم له، إلا أنهم مُعرضون للسؤال من خالقهم ومالكهم ومُدبرهم، فكيف بمن دونهم من المخلوقين[2]، فأعدوا للسؤال جوابًا.

ثم قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾، أعاد لهم سؤال التوبيخ والاستنكار لاتخاذهم آلهة من دون الله بدون حجة، فبعد أن أبطل حجتهم على ذلك بالدليل العقلي، وهو أنه لو وُجد في السماء والأرض أكثر من إلهٍ لفسدتا؛ طلب منهم البرهان السمعي على ذلك، فهذا ذكر من معي من المسلمين، وهو القرآن[3] يثبت في آياته أنه لا إله إلا الله، ويذكر عن الرسل الذين أُرسلوا قبل محمد ﷺ أنهم أمروا أقوامهم بالتوحيد ودعوهم إليه، وكذلك ذكر من قبلي من الرسل، ويشمل جميع الكتب السماوية السابقة، فكلها تنفي وجود إلهٍ مع الله، فثبت أنه لا دليل عقلي ولا نقلي عندهم على عبادتهم لغير الله، بل فعل أكثرهم ذلك بسبب جهلهم بالقرآن وعدم أخذهم بأسباب فهمه، وهو التدبر والتأمل في آياته، وأعرضوا عن النظر والتدبر في الأدلة العقلية التي تُثبت ألوهية الله وحده لا شريك له، وبطلان الشريك له، وقلّدوا في ذلك آباءهم وأجدادهم،

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 78).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 45).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 400).

فبقوا على جهلهم وانحرافهم، وأسند هذا الوصف إلى أكثرهم لا إلى جميعهم، إشارة إلى أن قليلاً منهم قد تهيأت نفوسهم لقبول الحق(1).

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾، هذا توكيد لما سبق بيانه، أن جميع الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشرية قبل محمد ﷺ جاءوا بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، والنهي عن الشرك به سبحانه، واتفقوا على ذلك ولم يختلفوا فيه، والفطرة شاهدة بذلك، والمشركون لا برهان لهم على شركهم بالله، وحجتهم فيه داحضة.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾، أخبر عن عقائد المشركين الباطلة، ومنها قولهم: إن الله اتخذ ولداً، ويقصدون به الملائكة، فنزّه الله نفسه عن هذا القول الباطل، وأثبت أن الملائكة عبادٌ مُكّرمون عنده، خلقهم لعبادته وجعلهم مُقربين إليه، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم في غاية الطاعة والانضباط، فلا يتقدمون على ربهم بالقول ولا يتجاوزونه في العمل، فلا يحصل منهم سبْق في النطق ولا سبْق في العمل، بل يقولون ما يأذن لهم بقوله، ويعملون ما يأمرهم بعمله، دون زيادة ولا نقصان، وهذا يدل على الدقة والانضباط في تنفيذهم أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 48).

وقولــه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مُطّلع على مستقبلهم وماضيهم، فهم تحت رقابته، وعلمه محيط بهم في كل وقت وحين، ولا يُمكن أن يتقدموا بالشفاعة عنده إلا إذا أذن لهم بها، وعلموا أن الله قد رضي عن المشفوع له، وهذا من انضباطهم في التعامل مع الله سبحانه، وهم من خوفهم وتعظيمهم لله حذرون من مخالفة أمره.

وقولـه: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾، ومع هذا التكريم لهم عند الله، ودقة انضباطهم في تنفيذ أمر الله، فلو وُجد منهم من يدّعي أنه إله يُعبَد من دون الله؛ فإن الله يجازيه على ذلك القول بالعذاب في جهنم، وهذا افتراض وشرط، والشرط لا يلزم وقوعه[1]، ومثل هذا الجزاء يجازي به الله كل ظالم، بغض النظر عن جنسه، فكل من وقع في الظلم وهو الشرك بالله ودعا إلى عبادة غير الله فإن مصيره نار جهنم، وفي ذلك تهديد ووعيد لكفار مكة، فإذا كان الله لم يعفِ من وقع من الملائكة بالشرك من العقوبة، مع مكانتهم وفضلهم عند الله؛ فكيف سيعفيكم أنتم منها؟!، وقيل: إن هذا القائل هو إبليس، فإنه التحق بالملائكة بعبادته، ثم عصى الله بعدم السجود، ودعا الناس إلى عبادته، وهذا قول ضعيف؛ لأن إبليس لم يرو قط أنه ادعى الربوبية[2].

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 338).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 79).

ثـم قـال سـبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾، **الاستفهام استنكاري تعجبي**، والرؤية قلبية علمية، فاستنكر عليهم عدم نظرهم وتأملهم في كيفية خلق السموات والأرض، **والرتق**: إلحام الفتق وإصلاحه[1]، ومنه رتقت الثوب، إذا كان فيه قطع فخِطته، **والفتق عكس الرتق**: الفصل بين شيئين مصمتين[2]، **وللمفسرين في معنى الفتق ثلاثة أقوال**[3]، **القول الأول**: فتق الله السماء بإنزال المطر، وفتق الله الأرض بإنبات الشجر، ولم يجعلهما مُصمتتين بحيث لا ينزل من السماء شيء ولا ينبت من الأرض شيء.

والقول الثاني: أن السماء كانت مُلتصقة بالأرض كتلة واحدة قبل أن يخلقهما الله، فأجرى الهواء ففصل بينهما، فصارت السماء سماءً والأرض أرضًا.

والقول الثالث: أن الله خلق سماءً واحدة وأرضًا واحدة أولاً، ثم فتق السماء فصارت سبع طباق، وفتق الأرض فصارت سبع أراضين، ورجّح أغلب المفسرين[4] القول الأول لدلالة ما بعده عليه، فإنّه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدّمه من ذكر أسبابه[5]، وهو قول حسن، يجمع بين

---

(1) ينظر: تاج العروس: (25/ 331).

(2) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: (6/ 340).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 444).

(4) ينظر: التفسير البسيط (15/ 59)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 141).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 433).

العبرة وتعديد النعمة والحجة بمحسوس بيّن[1]، وأن نزول المطر من السماء، إلى الأرض سبب في حياة كل شيء من حيوان أو نبات، وفيما ذكر من آية حجة وبرهان واضح على قدرة الله وعظمته؛ يدعو الكفار إلى الإيمان بالله والتصديق بدينه، ولكن لعدم تأملهم وتدبرهم في آيات الله الكونية والشرعية تركوا الإيمان والتصديق، وأشركوا بالله وعبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾، ومن دلائل قدرته سبحانه وتعداد نعمه على خلقه، أن صيّر في الأرض جبالاً تُرسي الأرض وتُمسكها لكي لا تضطرب بمن يسكن عليها، وعند الزلازل يتبيّن للناس هذه النعمة العظيمة، فلو حصلت هزة خفيفة للأرض فانظر كم من أضرار تحصل للناس، وكم من عمائر وبيوت تتهدم؟!، وصيّر في الأرض أو بين جبالها طرقًا واسعة مفتوحة مُسبّلة يسلكها الخلق وينتقلون من خلالها من مكان إلى آخر، لعلّهم يهتدون بهذه السبل في أسفارهم فيصلون إلى مقاصدهم، وفي الآية تنبيه لهم بالهداية الصغرى إلى الهداية الكبرى، وبالهداية الدنيوية إلى الهداية الدينية، فكما أنك تهتدي بالطريق فتصل من خلاله إلى بُغيتك، فاهتدِ بآيات الله وحججه كي تصل إلى عبادته وحده لا شريك له.!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وصيّر السماء سقفًا للأرض، والسقف في لغة العرب غماء وغطاء البيت[2]، وجعلها

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 80).

(2) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: (6/ 240).

محفوظة من السقوط على الأرض بقدرته، **كما قال:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾[فاطر:41]، وحفظها من الشياطين فلا يسترقون منها السمع، **كما قال:** ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾[الحجر:17]، ولكن الكفار عن آيات السماء وما فيها من المجرات الكونية كالشمس والقمر وسائر النجوم معرضون عن التأمل والتفكر فيها وفي دلالتها على قدرة الله وعظمته واستحقاقه للألوهية.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾، وهذا أيضاً من دلائل قدرته، فقد خلق المجرات الكونية كلها وذكر منها الليل والنهار، والشمس والقمر، لحاجة الخلق إليها، وكل المجرات الكونية من شمس وقمر ونجوم وكواكب لها مدارها الخاص الذي تسير فيه بانتظام لا تنحرف عنه، بل تجري فيه بسرعة كالسابح في الماء، وهو كناية عن سيرها في مكان متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض[1]، وتستمر في سيرها المُنتظم في فلكها إلى يوم القيامة، **والفَلك في اللغة:** هو الشيء المستدير[2]، وهو مدار النجوم الذي يضمها، ومنه فلكة المغزل[3]، **وسُمي فَلكاً** لأنه لا يخرج عن الدائرة ولا ينقطع سيره، وفي هذه الآيات العظيمة دلالة كافية لمن تدبرها على استحقاق الله بالعبادة.!

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 61).

(2) ينظر: تاج العروس: (27/ 303).

(3) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 274).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الله لم يخلق هذا الكون عبثًا، بل خلقه لحكمة وغاية.

2- بيان أن من سنة الله تعالى أن الحق منتصر على الباطل وإن ظهر الباطل أحيانًا، فليثق أهل الحق بالله، ولا يُصابوا باليأس ولا بالقنوط.

3- بيان أنه لو كان يتولى السموات والأرض ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الله الواحد الذي فطرهما لفسدتا.

4- بيان فضل الملائكة ومنزلتهم عند الله، وأنهم خُلقوا لعبادته، وأنهم مُكرمون مطيعون، وأنهم لا يُوصفون بذكورة ولا بأنوثة.

5- بيان كثرة الدلائل والآيات الكونية الدالة على استحقاق الله للعبادة، وإعراض الكفار عن تدبرها والاستفادة منها.

تفسير المقطع الثالث من سورة الأنبياء

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ
﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا
هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ
ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قــــول الله تعـــــالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ
ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾،

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه محمد ﷺ أنه قد كتب الفناء على كل الخلق، **كما قال**: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:26]، ولم يجعل الله لبشر قبل محمد الحياة الخالدة في الدنيا، وقد جاءت هذه الآية جواباً على كفار قريش الذين كانوا يتربصون بمحمد ﷺ الموت، فبيّن لهم أن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله نصرة دينه، فلو مُتّ يا محمد! هل سيبقون مخلدين في هذه الحياة دون موت؟! **والاستفهام** استنكاري تعجبي، فإن سنة الله تعالى في الخلق هي الموت، فكل نفس حيّة ستذوق الموت لا محالة، وانظر إلى التعبير بلفظ: "الذوق" المستعمل غالباً في إدراك طعم الأشياء الحسّية[1] من خلال حليمات اللسان، للدلالة على أن جميع خلايا الجسم سيصل إليها ألم مقدمات الموت، وقد جعل الله الحياة الدنيا مكاناً لاختبار النفوس بالخير، ويشمل سائر النعم من الرخاء والصحة والغنى، ونحوها، والشر، ويشمل سائر النقم، من الشدة والسقم والفقر، ونحوها، ففي ذلك كله ابتلاء واختبار للعباد، فالخير يحتاج إلى شكر، والشر يحتاج إلى صبر، ويعيش العباد في هذه الحياة يتقلبون بين الصبر والشكر، ثم إذا انتهت آجالهم كان مرجعهم إلى الله، فيبعثهم بين يديه ويُجازيهم على أعمالهم في الدنيا؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، يذكر الله حال كفار مكة أثناء تعاملهم مع رسول الله ﷺ، فكلما رأوه استهزأوا به واحتقروه ولم يحترموه، وهذا ما تشير إليه أداة الحصر والقصر، فشغلهم الشاغل

(1) ينظر: لسان العرب: (10/ 112).

الاستهزاء برسول الله ﷺ، فلا يوجد فيه ما يدعوهم للاستهزاء به، مما يدل على حقدهم وحسدهم له، وانحراف فطرهم وانتكاستها، بسبب الإجرام والمعاصي وكثرة السيئات لم تعد تطيق أن ترى رجلاً صالحاً مستقيماً، وهذه من طبائع النفوس الشريرة، وفي ذلك تثبيت للدعاة والمصلحين اليوم الذين يتعرضون للأذية والاستهزاء من الفساق والفاسدين، فقد استُهزئ بمن هو أفضل منهم، فقد كانوا يسخرون من رسول الله ﷺ، ويُنفّرون الناس عنه، ثم يتساءلون عنه بينهم إذا رأوه على سبيل التحقير له، أهذا الذي يذكر أصنامنا التي نعبدها ونعظمها بسوء ويذمها؟!، والاستفهام إنكاري، فردّ الله عليهم ذلك، وبيّن لهم أن فعلهم مع الله سبحانه الإله الحق هو الأولى بالإنكار والملامة، فهم يجحدون ربهم الرحمن إذا ذكر ويكفرون به، أو يكفرون بالقرآن الذي جاءهم به محمد ﷺ[1]، والتعبير باسم "الرحمن" لبيان قبح حالهم مع الله، حيث قابلوا رحمته بهم ونعمه عليهم بالكفر والشرك[2].

ثم قال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾، ثم أخبر الله عن طبيعة الإنسان، وأنه خُلق مطبوعاً ومفطوراً على العجلة والاستعجال[3]، **كما قال:** ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[الإسراء:11]، **والعرب تقول للذي يكثر من الشيء:** خلقت منه، تريد المبالغة بوصفه به[4]، والإنسان هنا اسم

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 481).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:523).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 203).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 392).

جنس يشمل آدم وذريته، وقد تختلف أحوال الناس في هذه الصفة من شخص إلى الآخر، تبعـًا لجهوده في تدريب النفس على التُؤدة والتريث، ثم بيّن أن من الآثار السيئة لهذه العجلة، استعجال الكافرين نزول العذاب بهم، مما يدل على سفاهة عقولهم، بل العاقل هو الذي يطلب النجاة من العذاب أو الإمهال لعله يتوب ويصلح حاله، وقد كان كفار قريش يستعجلون العذاب استهزاء وإنكاراً له، وأن محمداً غير صادق فيما أخبرهم به، **كما قال عنهم:** ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:32]، فهددهم الله برؤية العذاب قريبـًا، ونهاهم عن طلب تعجيله، فهو نازل بهم لا محالة في موعده الذي قدره الله له، وفي ذلك تهديد ووعيد لهم إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) ﴾، ومن آثار العجلة التي طُبع عليها الكفار أنهم كانوا يسألون المؤمنين عن موعد قيام الساعة والبعث والحساب استهزاء وإنكاراً له، والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب(1)، وكانوا يربطون صدق رسول الله ﷺ والمؤمنين بحصول ذلك أمام أعينهم، وهو نوع من التحدي لهم، والواقع أن علم الساعة غيبٌ لا يعلمه إلا الله، ولم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 482).

وقولـــه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، لو يعلم الذين كفروا حين يأتيهم هذا الوعد ويحصل لهم ذلك العذاب لعلموا صدق الوعد[1]، ولما استعجلوا الوعيد، وذِكْر الوجوه والظهور يفيد الإحاطة بهم من الأمام والخلف بحيث إنهم لا يقدرون على دفع العذاب الذي جاءهم من كل جوانبهم[2]، وقدّم الوجوه لأنها أشرف عضو في الإنسان، وفيها كل الحواس، فالغالب أن الإنسان يدفع عن وجهه أي اعتداء قبل غيره من الأعضاء[3]، ومن شدة العذاب فإنهم لا يستطيعون إبعادها عن أجسادهم، ولا تحصل لهم النجاة منه مهما حاولوا، "بل" تفيد الإضراب عما سبق من محاولة النجاة من العذاب؛ لأن الساعة تأتيهم فجأة دون موعد مُسبق، فيصيبهم منها الفزع وتتحير نفوسهم من هول المفاجأة، فلا يستطيعون أن يقولوا شيئًا، ولا يستطيعون الحركة أو الهروب منها، ولا يردّون الساعة ولا يصرفونها عن أنفسهم، ولا يؤجلون ويمهلون عن الهلاك والعذاب؛ لعلهم أن يتوبوا فتدركهم رحمة الله، بل يؤخذون ويُدفعون إلى النار دفعًا، بسبب كفرهم واستعجالهم العذاب.!

وقولـــه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾، الخطاب لرسول الله ﷺ، فلست أول رسول يُستهزأ به،

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 393).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 482).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 83).

فقد سبق ذلك للرسل من قبلك، حيث استهزأ بهم المكذبون من أقوامهم، فصبروا على ذلك، فنزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به، وأحاط بهم من كل جانب، ولا تستعمل كلمة حاق إلا في إحاطة المكروه خاصة[1]، فاصبر أنت كما صبروا، وسيصيب المستهزئين بك ما أصاب المكذبين السابقين من العذاب والنكال، وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد ووعيد لمن يستهزئ به.

وقوله: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل كفار قريش: من يحرسهم ويحفظهم بدلاً عن الرحمن، **أي:** غيره[2]؟!، لا أحد يفعل ذلك، والاستفهام إنكاري، والمقصد منه التوبيخ والتقريع لهم، لأنهم يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل والنهار إلى أصنام لا تنفعهم ولا تضرهم، وذكْر الليل والنهار إشارة إلى أن الحفظ يشمل الوقت كله، و"بل" لإضرابهم عن جواب السؤال السابق؛ لأنهم لو أجابوا لقامت عليهم الحجة، فلذلك أعرضوا عن الجواب الذي فيه يذكر أن الله هو الحافظ لهم[3]، كما أعرضوا عن سماع ما يذكرهم بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والإيمان به من الحُجج والبراهين الدالة على استحقاقه للألوهية وحده لا شريك له، وفي الآية إشارة إلى نعمة عظيمة قلّ من ينتبه لها من الناس، وهي نعمة الحفظ في هذه الحياة، فلا تظن أنك تعيش بذكائك وحرصك وفطنتك، بل أنت تعيش بحفظ الله ورعايته لك، فهو الذي يحفظك من السباع والعفاريت والشياطين،

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 153).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 344).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1080).

وسخّر لك من يقوم بذلك من الملائكة، **كما في قوله:** ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[الرعد:11]، **أي:** يحفظونه بأمر الله، فالإنسان مخلوق ضعيف، فلو أراك الله صورة عفريت من الجن؛ لارتعبت من شدة الخوف، ولما تمتعت بالحياة، ولكن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رحمنا بسترهم عنا، فلا نرى الجن ولا الشياطين، لكبر أجسامهم وسوء صورهم وأشكالهم، وحفظنا منهم، وانظر في حال بعض الناس من كِبار القوم الذين يبحثون عن مجموعة من المرافقين يحرسونهم من إنس مثلهم، فكم تحتاج من البشر لحراستك من عفريت واحد من الجن؟!.

وقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾، هل لهؤلاء المشركين آلهة تحرسهم وتمنعهم غير الله؟!، وهو سؤال استنكاري تعجبي، فآلهتهم المزعومة لا تستطيع أن تمنع نفسها من الأذى الذي يقع عليها، فكيف تمنعه عن غيرها؟!، ففاقد الشيء لا يُعطيه، بل إن من يعبدها هو الذي يحرسها، وأصحابها المشركون ليس لهم ما يمنعهم ولا ما يُجيرهم من الله؛ لأنهم ليس لهم إيمان بالله ينفعهم، ولا يوجد معهم صاحب يجيرهم، والصحبة تقتضي النصر والتأييد[1]، بل الجميع يتبرأ منهم بسبب كفرهم بالله.

وقوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾، **الخطاب لكفار قريش،**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 75).

فقد منحنهم الله النعم الدنيوية، مثل نعمة الحياة والصحة والأولاد والمال والجاه والسلطان ونحوها، ومتّع آباءهم السابقين بنحوها من النعم، حتى تطاول بهم الزمن ونعم الله نازلة عليهم، وهم يكفرون بالله ويعصونه، فاغتروا بطول الإمهال، وظنوا أن هذه النعم نزلت عليهم لاستحقاقهم لها، فاستمروا في الكفر والتكذيب، ولم يعلموا أن هذا نوع من الاستدراج لهم حتى يأخذهم الله بعذاب وهم لا يشعرون، ثم سألهم سؤالاً تقريريًا تعجبيًا، والرؤية علمية قلبية، **ونقص الأرض من أطرافها للمفسرين في معناها عدة أقوال**[1]، **الأول**: أن المقصود بالأرض أرض الكفار، ونقصها دخول أهلها في الإسلام، **والثاني**: بنقصان أهلها وقلة بركتها، **والثالث**: بالقتل والسبي، **والرابع**: بموت فقهائها وعلمائها الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لأنهم إذا ماتوا نقص الخير في الأرض وكثُر الشر والفساد، فيصيب الأمة الهلاك، **وفي الحديث**: "أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم، إذا كثُر الخبث**"[2]، والراجّح القول الأول للقرينة الدالة عليه بعده، **وهي قوله**: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[3]، **والاستفهام** تقريري، فالكفار يرون بأنفسهم أن كل يوم ينقص عددهم، ويزداد عدد المؤمنين، **والمعنى**: لستم من يغلب الإسلام وأهله، بل الإسلام هو الذي سيغلبكم، ويعم الإسلام الأرض كلها وينتهي الكفر منها، وهذا الذي صار بعد ذلك، ويدخل في معنى نقصان الأرض عمومًا المعنى الرابع بعد انتشار الإسلام فيها.

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 449).

(2) صحيح البخاري: (4/ 138)، برقم: (3346).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 157).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ثـم أمـر الله رسـوله ﷺ أن يبلّـغ كفـار قـريش أنـه أُرسـل إلـيهم بـوحي مـن الله، ومأمور منه أن ينذرهم بما فيه ويدعوهم إلى الله به، وأنه لم يأتِهم بشيء من عند نفسه، ثم وصف الله حال الكفار مع هذه الدعوة وسماعهم للقرآن وإنذارهم به بأنهم كالأصـم الـذي لا يسمع النـداء، **والمعنى:** أنهم لا يسمعون سماع عمـل واتعاظ، مهما وعظهم وبلغهم، وفي الآية إشارة إلى أن قلـوب الكفـار مغلقـة فـلا يصل إليها هدي الوحي.

وقولـــــه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾، يخـبر الله تعـالى عـن حـال الكفـار الـذين كـانوا يـستعجلون العذاب استهزاءً وتحدّيًا، بأنهم لن يتحملوا شيئًا يسيراً يـصيبهم مـن العـذاب، **والنفحة:** الدفعة من الشيء التي دون معظمه[1]، **والمقصود بها هنا** أدنـى شـيءٍ مـن العـذاب[2]، فلـو حـصل لهـم لفحـة مـن عـذاب الله؛ لـصاحوا علـى أنفسهم بالويل والهلاك، واعترفوا بظلمهم لأنفسهم بشركهم بالله وكفرهم به.

وقولـــــه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ومـــن عـــدل الله سبحانه أنه يقيم الموازين العادلة يوم القيامة وينصبها في ساحة المحشر، وهـذه الموازين موصوفة بالعدل والقسط، وليس فيها غش ولا ظلـم ولا تطفيـف، فـلا

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 484).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 393).

تُظلم فيها نفسٌ كافرة أو مؤمنة شيئًا، ولو كان حقيراً، والميزان حقيقي له كفتان ولسان، يُوزن به أعمال العباد[1]، **واللام** في "اليوم" تحتمل أن تكون لام التوقيت، وتحتمل أن تكون لام العلّة، أي لأجل يوم القيامة[2]، **وقيل**: للتخصيص **أي**: لأهل يوم القيامة[3]، **ونكّر لفظ**: "نفس" و"شيئًا" لتفيد العموم في الأشخاص والأعمال، فلا أحد يُظلم كائنًا من كان، وإن كان عمله قليلاً يُساوي في ثقله وزن حبة من خردل، من حسنة أو سيئة، فإن الله يحضرها ويزنها، ويعطي أجرها أو وزرها لصاحبها، ولا يزاد في وزر أحد، ولا ينقص من أجر أحد، فكلاهما ظلم، وكفى بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محاسبًا للناس، وعالمًا وحافظًا لحقوقهم[4].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الله كتب الموت على كل حي، فالعاقل من يستعد له بالإيمان والعمل الصالح.

2- بيان أن الاستهزاء بالرسل أو بالقرآن كفر، أما الاستهزاء بالعلماء فإن استهزأ بأشكالهم فكبيرة من الكبائر، وإن استهزأ بدينهم فكفر.

---

(1) ينظر: المصدر السابق: (3/ 394).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 84).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 485).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 291).

3 – بيـان أن مـن طبيعـة الإنـسان العجلـة، فعليـه أن يـتخلص منهـا بالتـأني والهدوء.

4 – بيان فضل الله ومنّته على خلقه بحفظه وحراسته.

5 – بيان أن مآل الباطل إلى زوال، ومآل الحق إلى البقاء.

6 – بيان عدل الله سبحانه بإقامة الموازين العادلة للناس يـوم القيامـة، ونفـي ظلم الخلق شيئًا.

تفسير المقطع الرابع من سورة الأنبياء

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾
۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ
ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ
﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا
يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، **يخبر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

أنه أعطى موسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ التوراة، حيث تلقّى موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ التوراة عن ربه سبحانه، وكان هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مساعداً ومُعيناً له على إبلاغها، ووصفت التوراة بالفرقان؛ لتفريقها بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والضياء: هو النور الذي به يعرف الإنسان الطريق، ووصفت التوراة به؛ لاحتوائها على العلم الذي يُرى به طريق الحق والهدى، والذكر: هو ما يذكّر الناس بخالقهم سبحانه، ويدخل فيه الموعظة التي تُقرّب القلوب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وخص المتقين بالاستفادة منها؛ لأن المتقين هم أكثر الناس تذكراً واعتباراً بآيات الله سبحانه، فالتقوى نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، فينشرح صدره لكل خير ويستقبل الحق والعلم فيعمل به وبالموعظة ويتأثر بها، ومن صفات المتقين أنهم يخافون الله ويعظمونه في قلوبهم، فالخشية هي الخوف مع التعظيم، **والغيب له معنيان**[1]: **يحتمل** أنهم يخافونه وهم غائبون عن أنظار الناس في الخلوات، فمن يخشى الله وهو خالٍ لا يراه أحد فذلك دليل على عظمة الله في نفسه وخوفه من الله سبحانه، **ويحتمل** أنهم يخافونه ويُعظمونه مع أنهم لم يروه، وذلك دليل على قوة مراقبتهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيستحضرون نظره إليهم، فيزدادون خوفاً وتعظيماً له، ولا تعارض بين المعنيين، ومن صفاتهم أنهم يخافون من أهوال قيام الساعة، فهم في استعداد دائم لها بالإيمان والعمل الصالح.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾، اسم الإشارة

---

(1) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 227).

يُشير إلى القرآن؛ لأن حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته[1]، فبعد وصف التوراة بأنها فرقان وضياء وذكر، نوّه إلى مكانة القرآن وعظمته وأنه ذكرٌ مبارك، وسمّاه ذكراً؛ لأن به يتذكر الإنسان ما يجب عليه نحو ربه من الأحكام، ولأن فيه الشرف والرفعة لمن عمل به، ووصفه بأنه مبارك، والبركة: النماء والزيادة[2]، ولا تكون إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي توقيفية، فلا يوصف شيء بأنه مبارك إلا بدليل، مثل ماء زمزم، والبيت الحرام، والطور، والزيتون، والقرآن، وغيرها من الأشياء التي ورد وصفها بالبركة، ويتساهل في الإخبار عن الشيء بالبركة إذا كان على سبيل الدعاء، وإذا كان القرآن مباركًا فإن الذي يعمل به تحل فيه البركة، والبيت الذي يُقرأ فيه القرآن بيت مبارك، والقلب الذي يحفظه قلبٌ مبارك، واللسان الذي يقرأه لسان مبارك، والشخص الذي يهتم بالقرآن ويعمل به شخص مبارك، يرفع الله مكانته في الدنيا والآخرة، **وفي الحديث**: **"إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين"**[3]، **أي**: يرفع من شأنهم بالعمل به، ويضع من شأنهم بإعراضهم عنه، وقد أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وحيًا بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف تُنكرونه وأنتم تعلمون عظمته وبلاغته؟!، **والخطاب** لكفار قريش، **والاستفهام** توبيخي تعجبي من إنكارهم صدق هذا الكتاب، واستمرارهم في تكذيبه رغم وضوح الحجة لهم[4].

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 90).

(2) لسان العرب: (10/ 395).

(3) صحيح مسلم: (1/ 559)، برقم: (817).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 91).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾، ثم ذكر الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه قد منحه الهداية والرشاد والحجة والقدرة على الإقناع قبل النبوة، وهو قول أكثر المفسرين[1]، فقد كان مستقيماً في شبابه، وكان فطناً ذكياً، راشد العقل، قوي الحجة والبرهان، فقد جادل أباه وقومه وحاجَّ النمرود، **ويحتمل** أن يكون معنى: "من قبل" **أي:** من قبل أن نُؤتي موسى وهارون التوراة[2]، فإبراهيم في الزمن قبلهم، ويكون معنى الرشد على هذا القول هو النبوة والرسالة، وكنّا به حين أعطيناه رشده عالمين أنه يستحق ذلك، وأن قلبه يصلح لاستقبال هذا الرشد، وأنه يليق به ذلك، أو أنه صالح للنبوة والرسالة.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾، "**إذ**" ظرفية، بمعنى حين، فإن جعلتها متعلقة بما سبق؛ فيكون حين قال لأبيه وقومه ذلك القول قد صار راشداً[3]، **والسؤال** تقريري توبيخي لهم، **والمعنى:** كيف تتخذون أصناماً تصنعونها على شكل المخلوقات ثم تلازمون وتقيمون على عبادتها ولا تتركونها؟! **والتمثال:** هو الشيء الذي يُصور على شكل شيء من مخلوقات، من إنسان أو حيوان ونحوه[4]،

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 296).

(2) ينظر: الدر المصون للسمين الحلبي: (8/ 167).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 395).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 486).

والعكوف: الملازمة للشيء[1]، فأجابوه بأنهم لم يستحدثوا هذا العمل، بل وجدوا آباءهم يعبدونها، فقلّدوهم في ذلك وعبدوها مثلهم، وجوابهم هذا هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو تقليد الآباء والأجداد بدون حجة ولا برهان[2].

وقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾، فرد عليهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببطلان فعلهم وفعل آبائهم، وأنه ضلال واضح عن الحق، لا يخفى على ذي عقل، فإن العاقل لا يعبد وثنًا لا يسمع ولا يُبصر، ولا يضر ولا ينفع، ومن فعل ذلك فهو في خسران واضح ليس بعده خسران.!

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فاستغربوا واستنكروا أن يصدر هذا القول من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الجميع كان مُطبقًا على عبادة الأصنام، فأرادوا أن يتأكدوا منه، هل هو جاد في قوله، أم أنه يمزح، ويريد بذلك مجرد اللهو واللعب معهم، وعبّروا عن الحق بالفعل وعن اللعب بالاسم؛ لأن قناعتهم أنه يمزح معهم[3]، **والفرق بين التعبيرين** أن الجملة الاسمية أقوى من الجملة الفعلية، وهذا من جهلهم وسخافة عقولهم؛ إذ تخيّلوا المحق لاعبًا هازلاً.

وقوله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، فرد عليهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه جاد بقوله هذا الكلام، وأن

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 86).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 486).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1084).

هذه الأصنام ليست ربـًا لهـم، بل ربهـم ورب السموات والأرض هو الله الذي خلقها وأوجدها على غير مثالٍ سابق، وأنه يشهد على انفراد الله بالعبادة دون سواه، كما انفرد بخلق السموات والأرض، وشهادته هذه صادرة عن وحيٍ من الله إليه، فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي[1]، وبيّن لهم أن الأمر ليس هزلاً ولعبًا منه، بل هو جاد في إنكاره عليهم الشرك بالله، وأنه صادق في دعوتهم إلى التوحيد.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾، وأقسم بالله سرّاً من قومه ليُدبّرن مكيدة يُحطّم بها تلك الأصنام في وقت لا يوجد عندها أحد من عُبّادها، فسمعه رجل منهم، وهو الذي دلّهم عليه بعد ذلك، **والكيد**: هو التفكير والتدبير بعمل خفي[2]، وقد كان لهم يوم عيد يجتمعون فيه ويتركون الأصنام، وقد طلبوا من إبراهيم أن يحضر معهم **فاعتذر بقوله**: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾[الصافات:89]، **أي**: أنا مريض لا أستطيع الحضور معكم، وقصْده بذلك عدم رضاه النفسي عن شركهم، ولم يكن مريض الجسم، وهذا من المعاريض، وهو نوع من التخطيط الخفي لتنفيذ ما وعد به من تحطيم الأصنام، فلما ذهب القوم إلى عيدهم، أخذ إبراهيم الفأس ثم ذهب إلى مكان الأصنام فهدَّمها، حتى جعلها قطعًا صغيرة متناثرة، وترك كبير الأصنام لم يحطمه، وجعل الفأس في رقبته استهزاء بهم،

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:526).

(2) ينظر: لسان العرب: (3/ 383).

وهذا من ضمن خطته في الكيد لهم، من أجل أن يرجعوا إلى إبراهيم ليُناقشوه لماذا ترك كبير الأصنام ولم يحطمه، **ويحتمل أن يكون الضمير** راجعاً إلى الصنم الكبير، حين يجدونه سليماً ومَن حوله مدمر[1]، فيسألونه ليخبرهم من كسر بقية الأصنام، والقول الأول أرجح؛ وهو قول جمهور المفسرين[2]، لأن "لعل" فيها معنى الترجي، وهي في العاقل أقوى منها في غير العاقل.

وقوله: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ ﴾، فلما رجعوا إلى مكان الأصنام وجدوها محطمة إلا كبير الأصنام لم يحطم، **فتساءلوا بينهم**: من الذي حطم آلهتنا؟!، ثم حكموا على الفاعل بأنه داخل في عداد الظالمين، لتعديه على الآلهة المحترمة عندهم، والواقع أن فعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالأصنام عدل وطاعة لله سبحانه، فهو من إنكار المنكر وتغييره باليد عند القدرة عليه بدون مفسدة أكبر، وهو أمر مشروع، فأجاب من كان قد سمع تهديد ووعيد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للأصنام بالكيد، بأنهم قد سمعوا من يذكر الأصنام بشر، وهو شاب يُسمّى إبراهيم، **والتعبير بلفظ**: "يُقال له إبراهيم"، يحتمل أنهم قالوه على سبيل التحقير له، أو لأنهم لا يعرفونه وإنما تسامعوا باسمه دون أن يعرفوا شخصه[3]، فأمر أهل الحل والعقد والملأ من قوم النمرود

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 409).

(2) ينظر: تفسير الألوسي: (9/ 60).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 99).

أن يأتوا به ليعاقبوه على رؤوس الأشهاد وأمام الناس جميعـًا، ويشهدوا عليه حينما يُقر بفعله، ثم يشهدوا عقوبته بعد ذلك ليكون عبرة للمعتبرين.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾، ثم بدأوا يُحققون معه في مجمع من الناس، ليظهروا عدلهم معه، فسألوه هل أنت من حطم وكسّر آلهتنا يا إبراهيم؟!

فرد عليهم بـ "بل"، وهي تفيد إبطال أن يكون هو الفاعل لذلك، وأن الذي حطمهم هو كبيرهم أشار إليه، وهذا من ذكاء وفطنة إبراهيم وقدرته على الحوار، فأراد أن يُقنعهم ببطلان آلهتهم بحوار عقلي، وقد استشكل منه هذا القول؛ لأنه خلاف الواقع؟!، **فقيل:** جعل إبراهيم النطق شرطًا للفعل، **فقال:** فعله كبيرهم هذا إنْ كانوا ينطقون[1]، **وعلّل بعض المتأخرين[2] ذلك** بأنه أشار إلى أصبعه الأكبر، وهو الإبهام؛ لأنه هو الذي به يتم مسك الفأس بقوة بجوار باقي الأصابع الأربع، وهو تأويل بعيد، وقد جاء في حديث سبب اعتذاره عن الشفاعة قوله: **"وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات"**[3]، فأطلق عليها اسم الكذب لما أشبهت الكذب في الظاهر، ولم يرد به حقيقة الكذب، وهن من المعاريض التي تباح عند الحاجة الشرعية لها، وهي كذب باعتبار الأفهام، وإن لم تكن كذبًا باعتبار الغاية السائغة[4]، فقد كانت كلها في ذات الله ولمصلحة

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 397).

(2) ينظر: أيسر التفاسير للجزائري: (3/ 423).

(3) صحيح البخاري: (6/ 84)، برقم: (4712).

(4) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية: (28/ 223).

دينه، ثم أمرهم أن يسألوا الأصنام من الذي حطمها إن كانت تنطق، وأراد بذلك توجيههم نحو التأمل في حال آلهتهم وإلزامهم الحجة وتبكيتهم وبيان ضلالهم في عبادتها.

وقوله: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، فرجعوا إلى أنفسهم بالفكر والنظر، فلما تفكروا في ذلك أفاقوا من غفلتهم وضلالهم ورجعوا عليها بالملامة، واعترفوا بأنهم ظالمون لأنفسهم؛ لأنهم عبدوا من لا يستحق العبادة، وقد حصل لهم نوع من إفاقة عقولهم لمعرفة الحق والصواب، ولكنهم لم يستمروا على تلك الإفاقة، بل عادت إليهم الغفلة بعد فترة وجيزة من الإفاقة، وهذا ما يشير إليه حرف "ثم" فهو للتراخي، فقد تراجعوا عن الرأي الصحيح إلى الرأي الباطل والمعاندة، **وهذا ما يدل عليه لفظ**: "نكس"، وهو قلب الشيء على رأسه[1]، **والمعنى**: ثم تغيرت آراؤهم بعد أن كادوا أن يعترفوا بحجة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام، **وقيل**: أطرقوا وخفضوا رؤوسهم من الخجل لما قامت عليهم الحجة[2]، والأول أرجح؛ لأنهم لو فعلوا هم ذلك خجلاً **لقيل**: ثم نكسوا رؤوسهم، ولم يقل: نكسوا على رؤوسهم[3]، ثم استمروا في جدال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالباطل فاستغربوا منه، كيف يطلب منهم

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 986).
(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1086).
(3) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 118).

التخاطب مع أصنام يعلم أنها لا تنطق ولا تتكلم.

وقولـــه: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، فكان جوابهم عليه حجة عليهم، فانتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم، وسألهم سؤالاً إنكارياً تعجبياً، لماذا تعبدون أصناماً لا تنفعكم إن عبدتموها ولا تضركم إن تركتم عبادتها؟!، وفي الآية حث على عبادة من يملك النفع بالثواب إذا عبد، والضر بالعقاب إذا لم يعبد، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم حقَّرهم وحقَّر معبوداتهم وأظهر لهم كراهيته لفعلهم القبيح بالتأفف منهم ومن أصنامهم، و"أف" اسم فعل دال على الضجر، وهو منقول من صورة تنفس المتضجر لضيق نفسه من الغضب(1)، **ومعناه** قُبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله(2)، ثم سألهم سؤالاً استنكارياً: لماذا لا تستخدمون عقولكم في التأمل والتفكر في ضلالكم وقبح فعلكم هذا؟!، فلو فعلوا ذلك لتبيّن لهم الحق والصواب.

وقولـه: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾، ولما سقطت حجتهم، تركوا الحوار وانتقلوا إلى استخدام القوة والبطش معه، وهذا أسلوبٌ يكاد يكون مُتفقاً عليه بين كل الطغاة والظالمين في كل زمان ومكان، فحين يهزمون في الحوار والحجة؛ ينطلقون إلى القوة والبطش والتعذيب، فاتخذوا قراراً بإحراق إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 104).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 464).

انتصاراً للأصنام التي دمَّرها وحطّمها، واختاروا قتله بالإحراق، لأنه أشد العقوبات، ثم أعدوا لذلك العدة، فبنوا بنياناً كبيراً، وجمعوا فيه الحطب الكثير، ثم أوقدوا فيها النار، فاشتعلت نار عظيمة، فرموا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها بالمنجنيق من مكان بعيد[1]، فخاطب الله النار أن تُغيّر من خصائصها فلا تؤذيه، وتكون ذات برد وذات سلام عليه؛ لأنها لو كانت برداً فقط لهلك من شدة بردها[2]، وخص هذا الأمر بالنار التي حول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستمرت باقي أجزاء النار مشتعلة، فلما خمدت النار خرج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سليماً، لم يحرق منه إلا الوثاق الذي ربطوه فيه عندما ألقوه في النار[3]، **وفي حديث ابن عباس قال: "كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل"**[4].

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾، وظنوا أنهم بفعلهم هذا سيتخلصون من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأفشل الله مؤامراتهم وكيدهم به، وعاد وبالاً وخسارة عليهم، فخابوا خيبة عظيمة، حيث نجى الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من عقابهم، وصار ما أعدوه لعقابه معجزة وتأييداً له[5]، فأصابهم القهر، وكان في هذه المعجزة حجة لهم على صدقه لو كانوا يعقلون، ولكنهم حرموا التوفيق إلى الحق رغم وضوح حجته، وحصلت لهم الخسارة في الدنيا حيث سلط

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 303).
(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1087).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 466).
(4) صحيح البخاري: (6/ 39)، برقم: (4564).
(5) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 107).

عليهم الآشوريين فدمروا بلادهم وأسقطوا مُلكهم ومزقوه[1]، وينتظرهم في الآخرة العذاب الأليم في النار.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية إتقان الداعية لأساليب الحوار وحفظ الأدلة والبراهين لإقناع الناس بدعوته.

2- بيان أن الباطل ينتشر بالتقليد الأعمى والشُّبَه الباطلة عن الحق.

3- بيان أهمية التدرج في إنكار المنكر، وجواز تغييره باليد إذا قدر على ذلك وأُمنت الفتنة.

4- بيان جوز استخدام الحيلة لإظهار الحق وإبطال الباطل.

5- بيان ضعف حجة الطغاة وأهل الباطل واستخدامهم للقوة في قهر مخالفيهم.

6- بيان فضل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على أنبيائه ورسله في نجاتهم من الكفار بالمعجزات.

(1) ينظر: المصدر السابق.

تفسير المقطع الخامس من سورة الأنبياء

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ
٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ وَنُوحًا إِذۡ
نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦
وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧
وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ
شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ
يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ
بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا
فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ
عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾،

هذه النجاة الثانية لإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بعد النجاة الأولى من النار التي ألقاه فيها

قومُه، حيث أذن الله له بالهجرة من بابل في جنوب العراق، هو ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ابن أخيه، ولم يُؤمن له من قومه إلا هو، وزوجتُه الأولى سارة[1]، فخرجوا من أرض العراق باتجاه فلسطين والشام، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، **ومن آثار البركة في أرض الشام** أن الله بارك في هوائها ومائها وتربتها الخصبة، وجعلها مكانًا لبعثة أكثر الأنبياء والرسل[2].

وقولــــه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾، وكان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد بلغ من الكِبر عِتيًا، ولم يرزق الولد، ثم أعطاه الله الولد الأول من زوجته الثانية هاجر، وهو إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبقيت زوجتُه الأولى سارة بدون ولد حتى بشرتها الملائكة به عند نزولهم لهلاك قوم لوط، ومنحه الله منها الولد، وهو إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبشّره بصلاحه وزواجه وحصول الولد منه في حياة جده، وهو يعقوب، والنافلة هي العطية[3]، **والمعنى على هذا** أن أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إسحاق ويعقوب، عطية منه سبحانه، **وقيل:** إن العطية هي الزيادة على الأصل[4]، **والمقصود بها هنا** ولد الولد وهو يعقوب فقط[5]، والأول أقرب، لأنه جمع بينهما[6]، **"وكلا"** يعود على من سبق ذكرهم،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 353).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 123).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 90).

(4) ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري: (15/ 355).

(5) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 398).

(6) ينظر: تفسير الرازي: (22/ 191).

فيشمل إبراهيم ولوطًا، وإسحاق ويعقوب عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ[1]، فجعلهم من الصالحين المطيعين لله المنقادين لأمره المبتعدين عن نهيه.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾، وصيّرناهم قدوة حسنة يقتدي بهم من بعدهم في جميع جوانب الخير والصلاح في الحياة، والإمام هو القدوة للناس، ومنه إمام الصلاة؛ لأن الناس يُصلون بصلاته، والإمام الحق الذي يجب أن يُقتدى به هو الذي يسير على وفق أوامر الله وشرعه بعيداً عن الأهواء والبدع والخرافات، فأئمة الخير هم الذين يدعون الناس ويدلونهم على ما جاء به الوحي من الأمر الشرعي، وهو فعل الطاعات وترك المعاصي، ومنّ على إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالوحي إليهم عن طريق جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فأمرهم بفعل الخيرات، وهو اسمٌ يشمل كل الطاعات والقربات، وما فيه خير لهم وللآخرين في الدنيا والآخرة، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهي داخلة ضمن فعل الخيرات، إلا أنه عطفها عليها من باب عطف الخاص على العام لمزيد اختصاص واهتمام بها، وجمع بينهما؛ لأن الصلاة تتعلق بسلوك العبد مع الخالق، والزكاة تتعلق بمنافع الخلق والإحسان إليهم، **والدين الصحيح**: هو الذي يجمع بين حسن العلاقة بالخالق وحسن العلاقة بالمخلوقين، وقد نفذوا ما أمرهم الله به وتميزوا بكثرة العبادة، وهي التذلل والخضوع لله بالطاعة، وأخلصوا فيها لله وحده دون سواه، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفًا لهم، وفي ذلك إشارة إلى أن

---

(1) ينظر: أضواء البيان: (4/ 592).

المؤمن الذي يحافظ على فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقد استكمل صفة العبودية الحقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾، سبق أن ذُكر لوط مع إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ حين هاجر معه، ثم أفرد قصته هنا بخبر مُوجز، **والمعنى:** واذكر لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين آتاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل[1]، وأرسله إلى قرية **سدوم، وهي** قريبة من بيت المقدس[2]، **ومكانها يُسمّى اليوم** بالبحر الميت، وهو الآن بين الأردن وفلسطين، وكان أهلها يعملون الخبائث، وهي إتيان الذكران في أدبارهم[3]، وهي الفاحشة التي أُطلق عليها بعد ذلك "**اللواط**" نسبة إلى قوم لوط، فدعاهم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الإيمان بالله وترك فعل الفاحشة، فرفضوا الاستجابة له واستمروا في كفرهم وانحرافهم وتآمروا عليه، فنجاه الله منهم هو ومن معه من المؤمنين، ونزل عذاب الله المهلك على أهل تلك القرية بسبب فسقهم وانتكاسة فطرهم، وصاروا بذلك أسوء من الحيوانات كلها، فليس فيهم خير قط، بل اجتمعوا على الشر والفساد، وأدخل الله لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رحمته بنجاته في الدنيا من الهلاك معهم، وفي الآخرة بدخوله الجنة[4]، **وعلّل**

---

(1) ينظر: أضواء البيان، للشنقيطي: (4/ 594).

(2) ينظر: معجم البلدان: (5/ 53).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 455).

(4) ينظر: أضواء البيان، للشنقيطي: (4/ 594).

ذلك بأنه كان من الصالحين الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأعظم الناس صلاحاً هم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[1]، فكما كانت عِلّة الهلاك في قومه هي الخُبث والفِسق والسوء، كانت عِلّة النجاة له ولمن معه من المؤمنين هي الصلاح والاستقامة، وهي سنة مطردة في كل الأمم.

ثم قال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾، واذكر قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دعا ربه على قومه بالعذاب، وذلك بعد أن يئس من إيمانهم، وآذوه وتوعدوه بالرجم والإخراج، وسمى الدعاء نداء؛ لأنه كان بصوت مرتفع، وقد كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الزمن قبل إبراهيم ولوط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فهو أبو البشر الثاني بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاستجاب الله له دعاءه على قومه، **حين قال:** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:16]، فنجاه الله منهم هو وأهله والذين آمنوا معه، **والكرْب العظيم** هو الحزن الشديد الذي يأتي من الخوف[2]، **والمقصود به هنا** كرب الطوفان والغرق فيه، وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم[3]، وهو قول أكثر المفسرين، وسماه الله كرباً؛ لأن الشخص لا يموت في الغرق سريعاً، بل يكابد عدة أهوال وآلام، ولذلك جعل الله للغريق من المؤمنين أجر الشهيد[4]، **وقيل:** هو شدة تكذيبهم وأذيتهم له، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:527).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 113).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 90).

(4) ينظر الحديث في: صحيح البخاري: (1/ 132)، برقم: (653).

عَزَّوَجَلَّ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل[1]، **وقيل**: هو مجموع الأمرين[2]، وهو الراجح لعدم التعارض بين القولين.

وقوله: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾، ونجيناه هو ومن آمن معه بالسفينة، ومنعناه من أذية القوم الكافرين المكذبين بالحجج والبراهين الدالة على نبوته مما كانوا يتوعدونه به من الرجم والإيذاء، وعدّى فعل" نصرناه" بحرف "من" بدلاً من تعديته بحرف "على"؛ لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المنعة والحماية فلا ينالون منه بشيء[3]، وقد كانوا تمادوا في فعل السوء، وهو العناد والتكبر والتكذيب والاستهزاء برسولهم، حتى عرفوا به، فأغرقهم الله جميعًا بسبب ذلك فلم ينجُ منهم أحد.

قال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾، **واذكر قصة داوود وسليمان** عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، للعظة والاعتبار حين حكما في قضية الزرع الذي أفسدته الأغنام ليلاً، وملخّص القصة أن قومًا كان لديهم بستان من الزرع يحرثونه ويقتاتون منه، وكان مع قوم آخرين غنم، فأهمل أصحاب الغنم غنمهم في الليل فخرجت من حضائرها ودخلت بستان الزرع فأفسدته دون علم أصحابها، **والنَّفْشُ**: أن تنتشر الغنم بالليل ترعى

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 354).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (22/ 163).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 113).

بـدون راعٍ[1]، فجـاء أصـحاب البـستان يـشكون أصـحاب الغـنم إلـى داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بحـضور ولـده سـليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فحكـم علـى أصـحاب الغـنم أن يُسلموا الغنم لأصحاب الزرع مقابل زرعهم، بعد أن قدّر أن قيمة الزرع يُساوي قيمة الغنم، فقال سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أو غير ذلك؟!، قال وما هو؟! قال: أن يأخذ أصحاب الزرع الغنم فيستفيدوا من لبنها وصوفها، وأن يأخذ أصحاب الغنم الزرع ويعتنوا به إلى أن يكون كحالته التي كان عليه ليلة إفساده، ثم يعيدوه إلى أصحابه ويأخذوا غنمهم، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك[2]، وشهد الله على حكم داوود وحكم سليمان، وأتى هنا بضمير الجمع لأن أقل الجمع اثنان[3]، **وقيل**: أدخل معهما المتخاصمين[4]، فإن الله مُطلع على أعمال خلقه لا يغيب عنه منها شيء.

وقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾، وأعطى الله سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهماً دقيقاً لهذه الحادثة زيادة على فهم أبيه، ولذلك رجع أبوه إلى حكمه، فإن داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حكم بينهما بالعدل الناجز، وحكم سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بينهما صلحاً، وهو أرفق بالخصمين، ويظهر أن حكمهما كان باجتهاد منهما، وهو قول

(1) ينظر: تاج العروس: (17/ 422).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 51).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 208).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 93).

الجمهور[1]، وأراد الله أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وفي القصة إشارة إلى أنه يُستحب للقاضي أن يندب المتخاصمين إلى الصلح إرفاقًا بهما قبل أن يحكم بينهما بالعدل، وهذا ما أقره شرعنا وفعله رسولنا محمد ﷺ في قصة الزبير مع الأنصاري، حيث حكم بينهما في الأولى صلحًا، فلما طعن الأنصاري في حكمه، حكم بينهما بعد ذلك بالعدل[2]، **واستنبط الأصوليون من الحادثة مسألة:** هل كل مجتهد مصيب، أو الإصابة عند واحد فقط؟ **قولان**[3]: **والراجح** أن الإصابة عند واحد؛ لأن الحق لا يتعدد، وأن المخطئ مرفوع عنه الإثم، وعقَّب الله على القصة بالثناء عليهما معًا، وأن الله أعطى كل واحد منهما النبوة والعلم بأحكام الشرع في غير هذه القضية؛ حتى لا يُظن أن سليمان أفضل من أبيه مطلقًا، وبعد أن ذكر ما اشتركا فيه من النعم؛ أتبع ذلك بذكر ما خصّ به كل واحد منهما، فذكر أنه خصّ داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتسخير الجبال والطير تسبح معه، فقد كان داوود حسن الصوت، **كما جاء الحديث:** "يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود"[4]، **أي:** صوتًا حسنًا يشبه ما أُعطيه داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من حسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت معه الجبال والطير، **كما قال:** ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبأ: 11]، **والتأويب:** ترجيع الصوت

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 493).

(2) ينظر: صحيح البخاري: (3/ 111)، برقم: (2359).

(3)ينظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 493).

(4) صحيح البخاري: (6/ 195)، برقم: (5048).

وترديده[1]، وتلك كلها معجزة له، فذكر الله نموذجين يسبّحان بتسبيحه: أحدهما جماد، والآخر حيوان لا ينطق، وقدّم ذكْر الجبال على الطير؛ لأن تسبيحها أعجب وأغرب كونها جماداً[2]، وعقّب على ذلك بأنه قادر على ذلك، لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه[3]، فلا تستغربوا من ذلك، فلا شيء يعجز الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾، **وعلّم الله داوود** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مهارة صناعة دروع الحروب، **واللَّبوس:** هو ما يُلبَس من الدروع الحديدية لحماية الأجساد أثناء الحرب[4]، وقد كانت الدروع موجودة قبله، لكن كانت تُصنع على شكل طبقات حديدية، وكانت ثِقيلة وتُتعب من لبسها، فأعطاه الله مهارة صناعتها بواسطة الحِلَق، فكان هو أول من نسجها بإدخال الحلق بعضها في بعض وثقبها[5]، فصارت الدروع ليّنة وخفيفة الحمل، والغرض منها وقاية وتحصين الذي يلبسها من ضربات آلة الحرب كالسيوف والرماح ونحوها، **وختم الآية** بتنبيه الخلق إلى شكره على هذه النعمة، والاستفهام في معنى الأمر[6]، **أي:** فاشكروا الله على ذلك.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 243).
(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 415).
(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 120).
(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 400).
(5) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 142).
(6) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 495).

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾، ثم ذكر ما خصّ به سليمان من النعم، ومنها: تسخير الريح له في حال كونها عاصفة، أي: شديدة الهبوب ولكنها تجري بأمره، فهو الذي يتحكم في حركتها كما يريد، وقد وصفت الريح بأنها تجري ليّنة وهادئة بأمره، كما في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص:36]، مما يدل على تنوّع أحوال حركة الريح تبعاً لرغبة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتشتد إذا أراد، وتلين إذا أراد، وكانت وسيلته في التنقل، فكان يضع بساطه ويأمر الريح أن تذهب به حيث أراد، ثم تعود به من يومه إلى منزله[1] الذي كان مستقراً فيه في الأرض المباركة، وهي أرض الشام[2]، فذكر الإياب، واكتفى به عن ذكر الذهاب لأنه يدل عليه[3]، وذيّل الآية بإحاطة علمه بكل شيء وتدبيره لشؤون الكون كله.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾، ومما خصّ الله به سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أن سخّر له مجموعة من الشياطين يعملون بأمره في الغوص في البحار فيستخرجون له اللؤلؤ والمرجان ونحوها من خيرات البحار، وسخّر له مجموعة أخرى من الشياطين يقومون بأعمال أخرى يُكلّفهم بها غير ما سبق، كما في قوله:

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 209).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 495).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1092).

﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ ﴾[سبأ:13]، وهذه ونحوها من الأعمال كانت تقوم بها الشياطين بأمر سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وما بقي من آثار في بعض المناطق من بِرك عظيمة وأنفاق وأسوار وقصور ونحوها، فلعلها من عملهم، وذيّل الآية بحفظ الله ومنعه للشياطين من تجاوز حدودهم وأذية الخلق، أو التفلت من تنفيذ ما كُلّفوا به، وحافظ لعددهم فلا ينقص منهم أحد ولا يتغيب عن عمله، فالله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يفسدوا فيما سخرهم الله لعمله(1).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مما اتفقت الشرائع السماوية على مشروعيته.

2- بيان أن انتشار الفواحش وعمل الخبائث سبب لهلاك الأمم.

3- بيان أن الصلاح والاستقامة للخلق سبب لنجاتهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

4-بيان أن الدعاء من أهم وسائل تفريج الكربات.

5- بيان نعم الله على داوود وسليمان عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، الحسية والمعنوية.

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 130).

تفسير المقطع السادس من سورة الأنبياء

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ
أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾
وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ
وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ
كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾،

واذكر يا محمد لقومك قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي ابتلاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

بمرض شديد وهو الجذام، حيث خرج في جميع جسده ثآليل كأَلْيات الغنم، ووقعت به الحكة الشديدة[1]، فذهب لحمُه وبقي عظمه وعصبه، وابتلاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بموت أولاده، ولم تبقَ معه إلا زوجتُه التي لازمت خدمته أثناء مرضه، واستمر به المرض ثماني عشر سنة[2] حتى كرهه الناس، وكان صابراً على هذا البلاء خلال هذه الفترة، وإنما دفعه إلى التعريض بالدعاء إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بسبب ما أُثير حول مرضه، **فقد بلغه قول الناس**: إن سبب ما أصابه أنه فعل ذنبًا عظيمًا[3]، فآلمه ذلك، وتعرَّض لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالدعاء بذكر بلوغه مرحلة الضر الشديد بطول البلاء على جسده والطعن في دينه من قِبل الناس، وتوسل إلى الله بذكر اسمه الرحمن، وهو تلطّف منه في السؤال، حيث ذكر حاله بما يوجب الرحمة، وذكر ربه باسم الرحمن ولم يصرّح بالمطلوب، **فكأنه قال**: أنت أهلٌ أن تَرحم، وأيوب أهلٌ أن يُرحم، فارحمه واكشف ما به من ضر[4]!، فاستجاب الله دعاءه، **والسين والتاء هنا** للمبالغة في سرعة الاستجابة عقِبَ طلبه مباشرة، كما تدل عليه فاء التعقيب، وقد كانت تركته زوجتُه في مكان وذهبت لحاجتها، فدعا الله، فأمره أن يضرب رجله بالأرض فخرجت له عين فشرب منها واغتسل، فشفاه الله مما به وعاد كما كان قبل أن يصاب بالمرض، فعادت زوجته تبحث عنه فوجدت رجلاً سليماً مُعافًى، فيه شبه

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 205).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 327).
(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 206).
(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 416).

بزوجها قبل أن يمرض، فقالت: يا عبد الله، هل رأيت المُبتلى أيوب؟ قال: أنا أيوب، قد شفاني ربي ورد لي عافيتي[1]، **وفي التعبير بلفظ:** "كشفنا" كناية عن سرعة شفائه، فقد شبّه المرض المزمن فيه بالغطاء على الشيء، فبمجرد أن نزع منه ظهرت العافية في جسده[2]، وأعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعدد أولاده الذين ماتوا، وكانوا سبعة من الذكور وسبعاً من الإناث[3]، وزاده مثلهم، وأخلف الله عليه أكثر مما ذهب من ماله، وقد فعل الله به ذلك رحمة منه سبحانه، وجعل ما أصابه تذكيراً وموعظة لكل العابدين المنشغلين بعبادة الله، ليشعرهم بأن الابتلاء تمحيص لهم في الدنيا ورفعة لدرجاتهم في الآخرة، **كما في الحديث:** **"أشد الناس بلاءً الأنبياء، فالأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه"**[4].

ثم قال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾، **واذكر قصة أنبيائه:** إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد أُرسل إلى قبيلة جُرهم العربية التي سكنت مكة، وإدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **واسمه أخنوخ، وسمي إدريس** لكثرة درسه الكتب، وهو أول من خط بالقلم[5]، **وهو أول** نبيّ بُعث إلى أهل الأرض بعد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[6]، وذي الكفل،

---

(1) ينظر: تفسير الثعالبي: (4/ 96).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 127).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 209).

(4) مسند الدارمي: (2/ 921)، برقم: (2813)، وإسناده حسن.

(5) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 238).

(6) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 482).

وقد اختلف فيه المفسرون على قولين، **قيل:** رجل صالح، **وقيل:** نبي، والظاهر من سياق الآيات أنه نبي، لأن الله ذكره بين الأنبياء[1]، **وامتاز هؤلاء الثلاثة الأنبياء** بصفة الصبر التام، فأما إسماعيل فكان صبره على ابتلاء الله تعالى لأبيه في ذبحه، **كما قال:** ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات:102]، **وأما إدريس** فالظاهر أن صبره كان على تتبع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب[2]، **وأما ذو الكفل** فذُكر في سيرته أنه سُمي بذي الكِفل لأنه تكفّل لنبيٍ من أنبياء بني إسرائيل واسمُه اليسع أن يقوم بعبادات بعده لا يتخلف عنها ولا يتركها، فصبر عليها ونفّذها، وكان رجلاً صالحًا فنبّأه الله وصار نبيّا[3]، وبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته في عِداد الأنبياء الذين تفضل عليهم بالنبوة في الدنيا، ورحمهم في الآخرة بدخول الجنة، وتلك سنة الله مع جميع الصابرين الصالحين.

ثم قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾، واذكر صاحب الحوت، وهو يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **وإنما لُقِّب بـ"ذا النون"** لأن الحوت ابتلعه وبقي محبوسًا في بطنه فترة من الزمن، وقد أرسله الله إلى أهل مدينة نينوى، وكانت على الضفة اليسرى

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 363).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 129).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 363).

لنهر دجلة، مقابلة مدينة الموصل من جهة الشرق، والنهر بينهما[1]، فلم يُؤمنوا به، فاستعجل وخرج من بينهم دون أن يأذن الله له بالهجرة، وغضب على قومه لأنهم لم يُؤمنوا، وظن أن الله لن يُضيّق عليه في خروجه من بينهم بدون إذن منه، وأنه سيعذره، فركب سفينة فاضطربت، فاتفقوا على أن يلقوا واحداً منهم لتخفيف حملها، فاستهموا، فخرج السهم على يونس، **كما قال:** ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾[الصافات:141]، فرموه في البحر، وكان الحوت ينتظره قد فتح له فاه، **كما قال:** ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾[الصافات:142]، **أي:** فابتلعه الحوت[2]، فكانت عقوبة الله أن حبسه فترة من الزمن في مكان عجيب وغريب أن يُحبَس فيه بشر، وهو بطن الحوت!، فلما صار في بطن الحوت واجتمعت عليه ظلمة البحر وظلمة البطن وظلمة الليل، أصابه الكرب فنادى ربه معترفاً بذنبه تائباً منه، **وفي الحديث:** **"ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه؟ فقيل له: بلى، فقال: دعاء ذي النون"**[3]، فمن أصابه الكرب فعليه بهذا الدعاء الذي يحتوي على الاعتراف بوحدانية الله وتنزيهه عن النقص، والاعتراف بظلم النفس بالذنوب والمعاصي، فاستجاب الله له دعاءه، ونجاه مما أصابه من الكرب الشديد، فأمر الله الحوت فألقاه على الساحل، وأنبت له شجرة اليقطين، وهي الدباء والخيار ونحوها، فكان يأكل منها ويستظل بظلها

(1) ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: (ص:291).
(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 367).
(3) السنن الكبرى للنسائي: (9/ 243)، برقم: (10416)، المستدرك للحاكم: (1/ 685)، برقم: (1864)، وإسناده صحيح.

حتى شفاه الله[1] من آثار ما أصاب جلده بسبب عصارة معدة الحوت، وبمثل ما نجى الله به يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من كربته، سيُنجي الله كل مؤمن به لجأ إليه وانطرح بين يديه، من كل كُربة وقعت له، وفي هذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، فلا يستعظم العبد كربته مهما كانت، ففرج الله قريب.

ثم قال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾، **واذكر قصة زكريا** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو من أنبياء بني إسرائيل، وكان قد بلغ سناً كبيراً، وكانت زوجتُه عاقراً، وخشي أن يموت وحيداً من دون ولد يرث علمه ودعوته في قومه، فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وطلب منه الولد، وتوسل إلى الله بأنه خير الوارثين، **أي:** حيٌ لا يموت يرث السموات ويرث الأرض ومن فيهن من المخلوقات كلها، وهو لفظ مناسب لسؤاله[2]، فإن من آداب الدعاء أن يختار العبد اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته لها علاقة بدعوته، ويتوسل إلى الله بها، مثل: يا رحمن ارحمني، ونحوها، فاستجاب الله دعوته وأعطاه ولداً وسماه الله يحيى، ولم يكن قد سُمي به أحد من أولاد آدم قبله، وهذه ميزة ليحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأصلح الله له زوجته، فقد كانت عاقراً لا تحمل[3]، وفي العبارة تقديم وتأخير،

(1) ينظر: تفسير الرازي: (22/ 178).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 370).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1096).

فأصلح الله له زوجته، ثم وهبه منها الولد؛ لأن إصلاح الزوجة سبب لحصول الولد منها، وضمير "إنهم" يعود إلى جميع الأنبياء الذين سبق ذكرهم في السورة[1]، **وقيل:** يعود إلى زكريا وزوجته وولده[2]، والأول أرجح لعمومه، والمسارعة هي: المسابقة والجد والاجتهاد في العبادة الطاعة، والخيرات: اسم يعم كل خير سواءً من العبادات المتعلقة بحق الله، أو الأعمال المتعلقة بحق الخلق، فما استحق أولئك الأنبياء إجابة الله دعواتهم إلا لمبادرتهم ومسارعتهم في تحصيل الخيرات كلها، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون في تحقيقها[3]، وكانوا يدعون الله رغبةً فيما عنده، وخوفًا من عقوبته، واتصاف العبد بهذين الوصفين دليل على اكتمال إيمانه، فإنه يرغب فيما عند الله من الأجر والرحمة، ويخاف ذنوبه وعقوبة الله له، وكانوا خاضعين في عبادتهم وطاعاتهم وقرباتهم، ومتواضعين لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾، بعد أن ختم قصص الأنبياء ذكر الله قصة مريم، وهي ليست من الأنبياء، إنما صدّيقة، **كما قال:** ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾[المائدة:75]، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم، لأجل ذكر عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[4]، ووصفها بالعفة التامة فلم يمسسها بشر، بل صانت فرجها عن الحلال فلم

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 133).
(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 521).
(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 133).
(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 502).

تتزوج، وعن الحرام فلم تقع فيه[1]، وتفرغت لعبادة الله تعالى وخدمة بيته المقدّس، فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينفخ في جيب درعها من الروح التي بها تحيا النفوس[2]، **وهي التي قال الله عنها:** ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء:85]، ونسب النفخ إلى الله؛ لأنه الآمر به، وهذا معروف في لغة العرب، فحملت بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأضيفت الروح إلى الله إضافة تشريف، مثل بيت الله وناقة الله، وهي مخلوقة ولذلك تموت، ووصف عيسى بأنه روح الله من باب التشريف، لا أنه جزء من الله كما تقول النصارى، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، فإن الله بائن ومنفصل عن خلقه، وصيّر الله مريم بولادة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أب آية واحدة تامة مع تكاثر الآيات في كل واحد منهما[3]، لتكون هذه الآية والمعجزة برهاناً وحجة للجن والإنس على قدرة الله المطلقة في الخلق والإيجاد، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾، الخطاب للناس جميعاً، بأن ملتهم التي يجب أن يكونوا عليها هي ملة الإسلام[4]، فدينهم واحد، وهو ما اتفقت عليه كل الشرائع، وهو أصول الاعتقاد وأصول العبادات وأصول الأخلاق، وإن اختلفت فروع شرائعهم، **وفي**

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 419).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 522).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 502).

(4) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 134).

الحديث: "**الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**"[1]، **أي**: كأولاد الرجل الواحد المتزوج عدة زوجات، فشبه العقيدة بالأب لانفراده، وشبه الشرائع بالأمهات لتعددها، وربهم الله واحد لا شريك له، ثم أمرهم أن يخلصوا له العبادة وأن يتركوا الشرك وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾، ولكن الناس تمزقوا وتفرقوا عن الدين الحق والعقيدة الصحيحة التي جاء بها جميع الأنبياء، فعبدوا غير الله وأشركوا به، وصاروا مللاً وعقائد شتى، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها، وكلهم راجعون إلى الله يوم القيامة ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فمن كان من المؤمنين بما جاءت به الأنبياء والرسل وموحداً لله سبحانه وعمل الصالحات في الدنيا؛ فإن الله يشكر له عمله ولا يجحده، بل يكتب له أجر ذلك في صحائف عمله، ثم يجزيه عليها في الآخرة الجزاء الحسن، ولم يذكر الصنف الآخر وجزاءه؛ لأنه مفهوم من السياق، وتقديره: ومن كفر بالله وعمل أعمالاً غير صالحة؛ فإن الله يُحصي له سيئاته في الدنيا، ثم يُعاقبه عليها يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾، "**حرامٌ**" **المقصود به** التحريم الكوني لا الشرعي، ومعناه ممتنع[2] أو مستحيل، **وقيل**:

(1) صحيح البخاري: (4/ 167)، برقم: (3443).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 99).

معناه وجب علينا أن نفعل[1]، والراجح الأول[2]، **واختلفوا في معنى "يرجعون" على قولين**[3]، **الأول:** ممتنع على أهل قرية كفرت بالله، فأهلكها الله أن يرجعوا إلى الدنيا بعد الهلاك مرة ثانية، **والثاني:** ممتنع على قرية كفرت بالله فأوجب الله هلاكها أن يتوبوا من كفرهم، لأنهم لو تابوا لما أهلكهم الله، ولا تعارض بين المعنين فكلاهما مراد، فلا يرجع منهم راجع إلى الدنيا بعد الهلاك، ولا يتوب منهم تائب[4].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الصلاح سبب للرحمة، فمن أراد أن يرحمه الله فليُصلح عمله مع الله أو مع الخلق.

2- أهمية وفضيلة الالتجاء إلى الله بصدق لتفريج الكربات، وعدم اليأس من ذلك.

3- فضل الدعاء بطلب الولد الصالح، ليبقى أثره وثمرته لك بعد موتك.

4- أن الإقرار بالذنب سبب من أسباب استجابة الدعاء وقبول التوبة.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 503).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (3/ 405).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 470).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 525).

5 – أن استجابة الله تعالى لدعاء الأنبياء استجابة سريعة؛ لكثرة مسارعتهم في فعل الخيرات.

6 – أهمية العفاف وإحصان الفروج، وخطر التبرج والانحراف والفساد على نساء المسلمين.

7 – أن دين الرسل واحد في أصول العقائد والعبادات والأحكام، وإنما الخلاف في فروع الشرائع.

8 – بيان سنة الله في المكذبين، أنه إذا أهلكهم فلا يرجع منهم راجع إلى الدنيا بعد الهلاك، ولا يتوب منهم تائب.

تفسير المقطع السابع من سورة الأنبياء

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ (٩٦)
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي
غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ
فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم
مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (١٠١) لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ
أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا
يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ
كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي
ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا
لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٧) قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ
وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا
تَكۡتُمُونَ (١١٠) وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (١١١) قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ
وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾، "**حتى**" **هنا** حرف ابتداء، **و**"**إذا**" شرطية، **و**"**فُتحت**" فعلها، **وجوابها** "فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ"[1]، **والمقصود بذلك** فتح السد الذي ردمه ذو القرنين بين يأجوج ومأجوج والناس، ويأجوج ومأجوج قبيلتان عظيمتان من بني آدم يخرجون في نهاية الزمان، وهم إحدى علامات الساعة الكبرى، فأنذر الله الناس بهذه العلامة، فإذا وقعت فقد اقترب موعد قيام الساعة، **وقد جاء في الحديث**: **"إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً، إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيشربون كل ماء يمرون عليه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله دوداً في أعناقهم فيقتلهم بها"**[2]، فإذا خرجوا من ردمهم؛ انتشروا في الأرض ومشوا فيها سريعاً من كل طريقٍ مبسوط ومكان مرتفع، **والحدَب**: هو الأكمة أو التل المرتفع من الأرض[3]، **والنسلان**:

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 100).

(2) مسند أحمد: (18/ 256)، برقم: (11731)، سنن ابن ماجه: (2/ 1364)، برقم: (4080)، وإسناده حسن.

(3) ينظر: القاموس المحيط: (1/ 72).

هو مقاربة الخطو مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادر[1]، **والظاهر** أن يأجوج ومأجوج ما زالوا مختفين إلى الآن، وقد يكونون تحت الأرض، وقد يكونون في مكان لا يعلمه إلا الله، فلو كان ظاهراً على ظهر الأرض لاكتُشف مع تقدم العلم وتوسع طرق الاكتشافات العلمية، وبخروجهم يكون قد قرب موعد قيام الساعة، وهو الوعد الحق، وفيه من الأهوال العظيمة ما يجعل الكافرين يخافون فيه خوفًا شديداً، حتى إن أبصارهم تثبت فلا تتحرك وتظل مفتوحة لا تغمض جفونها من شدة الفزع والخوف[2]، **والشاخِص**: المفتوحة عيناه دون حركة[3]، أما المؤمنون فهم في أمن وأمان، **كما قال**: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:89]، وينادي الكفار على أنفسهم بالويل والثبور، ويعترفون بأنهم كانوا في الدنيا في غفلة شديدة عن الاستعداد لهذا اليوم، بل كانوا في ظلم عظيم لأنفسهم بالكفر وبالشرك بالله.

وقولـــــه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، فتقول الملائكة لكل من كفر بالله ورسله: إنكم أيها الكفار مع آلهتكم وأصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله في الدنيا ستُلقون معها في جهنم جميعًا، **والحصب**: بمعنى المحصوب به، الذي يرمي به[4]، **وعبّر بـ"ما"** وهي لغير العاقل؛ لأن الأصنام أغلبها من الجمادات، ومن عُبد من العقلاء

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:245).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 100).

(3) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 1042).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 153).

بدون إذنه فهو مُستثنى من هذا الحكم، كالملائكة وعُزير وعيسى وغيرهم، أما من دعا الناس إلى عبادته من الشياطين والجن ونحوهم، فهذا يدل على ضعف عقله، ولو كان عاقلاً لما أمر الناس بعبادته، فنُزّل في الحكم منزلة غير العاقل لسوء فعله ولسفاهة عقله، والحكمة من إلقاء الأصنام في النار مع عبادها هو الإهانة والتوبيخ للذي كان يعبدها، وشبه الكفار وآلهتهم حينما يُلقون في النار بالحصباء وهي الحصى، تحقيراً لهم ولها، **وقيل**: حصب جهنم **أي**: وقودها[1]، ولا تعارض بين المعنيين، فإنهم يحصبون فيها ويكونون وقودها.

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، **وتقول الملائكة** للمشركين الذين عبدوا الأصنام والأوثان بعد أن رُموا مع معبوداتهم في جهنم: لو كانت هذه الأصنام والأوثان آلهة ما رُموا في النار وما دخلوها؛ لأن الإله يمنع نفسه من الأذى والعذاب، وكل من العابد والمعبود يخلد في عذابها ولا يخرجون منها، ويسمع للمعذبين في النار أنين شديد يخرج من داخل نفوسهم من شدة العذاب والأوجاع التي تصيبهم، والزفير: صوت نفس المغموم[2]، وهم فيها لا يسمعون شيئًا؛ لاحتمال أنهم يحشرون صمًا، أو لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة عذاب جهنم[3] وأصواتها المرعبة التي غطت على أصواتهم.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 377).

(2) ينظر: العين: (7/ 360).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 506).

ثـــم قـــال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾،

لما سمع المشركون الآية السابقة، قالوا: يا محمد، إن النصارى عبدوا عيسى وأمه، وإن اليهود عبدوا عزيراً، وإن بعض قبائل العرب عبدت الملائكة، فإذا دخل هؤلاء النار دخلناها معهم؟ وظنوا أنهم بهذه الشبهة قد حجّوا محمداً ﷺ، فأنزل الله عليه هذه الآية[1]، واستثني الذين ذكروهم من دخول النار؛ لأنهم مُؤمنون موحدون صالحون، وقد عُبدوا بغير رضاهم، وبدون إذنهم أو طلب منهم، وأن الوعد من الله قد سبق للمؤمنين الموحدين جميعاً بالخصلة المفضلة في الحسن، وهي البشرى بالحياة الحسنة في الجنة[2]، وأنهم بعيدون كل البعد عن النار فلا يصلهم شيء من عذابها؛ ولا يسمعون صوتها الذي يحس، **والحَسيسُ**: الصوت الخفي[3]، وهي مبالغة في إثبات بُعدهم عن النار وعذابها وآثارها حين ينزلون منازلهم من الجنة، وهم فيما تشتهيه نفوسهم من نعيمها ولذاتها ماكثون فيها، لا يخافون زوالاً عنها ولا انتقالاً منها، ولا يُخيفهم الهول العظيم يوم القيامة، وهو فزع نفخة البعث والنشور[4]، وتستقبلهم ملائكة

---

(1) ينظر: المستدرك للحاكم: (2/ 416)، برقم: (3449)، شرح مشكل الآثار: (3/ 15)، برقم: (986)، وإسناده صحيح.
(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 421).
(3) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 916).
(4) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 542).

الرحمة عند خروجهم من قبورهم بالترحاب والبشارة لهم بتحقيق وعد الله لهم بالنجاة من النار ودخول الجنة، وإضافة يوم إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وأن كرامتهم حاصلة فيه[1].

ثم قال الله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، واذكر يوم القيامة حين يطوي الله فيه السماء مثل طيّ الصحيفة على ما فيها من الكتابة[2].

والطي يحتمل معنيين: أحدهما الطي الذي هو ضد النشر، وهو اللف للمنشور، **ومنه قوله:** ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:67].

والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها[3].

والسجل هو الصحيفة[4]، كما بدأ الله أول الخلق يُعيده، فإن قُصد بالخلق العموم فإن السماء كانت قبل أن تُخلق لا شيء، فسيُعيدها عدماً كما كانت[5]، وإن قُصد بالخلق المُكلفين فقط فسيُعيدهم ويُخرجهم من قبورهم أحياء كما أخرجهم من بطون أمهاتهم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 157).
(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 474).
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 507).
(4) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:246).
(5) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 225).

وفي الحديث: **"يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**، قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض، قال: **يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**"[1]، **وغرلاً**: أي غير مختونين[2]، فيخرجون من قبورهم كما خرجوا من بطون أمهاتهم مكتملي الخلقة، ومن شدة هول الموقف لا ينظر أحد إلى عورة غيره، والبعث للخلق وعد من الله صادق لا بد أن يتحقق ويتم ولا يتخلف، فإن الله قادر على ذلك فلا يُعجزه شيءٌ سبحانه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، **والمقصود بالأرض في الآية يحتمل معنيين**[3]،

الأول: أن هذه الآية وعدٌ للمؤمنين بتمكينهم في الدنيا من حكم الأرض التي يفتحونها بالإسلام، ويكون المقصود بالزبور هنا كتاب داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، **والمقصود بالذكر هنا هو** التوراة، والعباد الصالحون هم المؤمنون الصالحون من أمة محمد ﷺ، حيث سيمكّنهم الله من فتح الأرض بالإسلام وحكمها به، وقد جاء في هذا أحاديث كثيرة، **منها حديث**: **"إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها"**[4].

والثاني: يحتمل أن المقصود بالأرض أرض الجنة في الآخرة، **كما في قوله**:

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2194)، برقم: (2859).

(2) ينظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري: (1/ 137).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 475).

(4) صحيح مسلم: (4/ 2215)، برقم: (2889).

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[الزمر:74]، **ويكون المقصود بالزبور** اسم جنس يشمل كل الكتب السماوية، **والمقصود بالذكر هنا هو** اللوح المحفوظ، والعباد الصالحون هم جميع المؤمنين من كل الأمم، **ورجّح ابن جزيّ** الاحتمال الأول[1]، ولا تعارض بين المعنيين فكلاهما ثابت للمؤمنين، **فالأول** يحصل لهم في الدنيا، **والثاني** يحصل لهم في الآخرة، وفي الآية بشارة للمؤمنين بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، **أي:** إن في هذا القرآن الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ من الحجج والبراهين والذكر والوعظ والإرشاد ما يَكُفُّهُم عن المعصية ويبعثهم على الطاعة، ويوصلهم إلى طرق الهداية ويبلّغهم دخول الجنة، والقومُ العابدون هم الذين من شأنهم العبادة، وهي كمال الذل والخضوع والاستسلام والانقياد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا ينشغلون عنها، بل هي شغلهم الشاغل لهم في كل أحوالهم.!

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، وأرسل الله محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، لمُؤمن الإنس والجن وكافرهم، فالمؤمن آمن به ونال الرحمة واستفاد منها، والكافر امتنع عن الإيمان به؛ فحرم الرحمة وابتعد عنها، وببعثته رُفع عذاب الاستئصال عن الكفار من هذه الأمة، **كما قال:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال:33]، بخلاف حال أقوام الأنبياء السابقين المكذبين لرسلهم، فقد كانوا يعاقبون بعذاب الاستئصال بسبب كفرهم، فكانت بعثته ﷺ

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1104).

رحمة للخلق أجمعين، حيث رفع عنهم عذاب الاستئصال، وقد ظهرت آثار هذه الرحمة على المسلمين الأوائل بسبب تمسكهم بهذه الشريعة، فعاشوا حياة العز والتمكين، وتحققت في مجتمعاتهم الرحمة في أعظم صورها، ولما ابتعدوا عن التمسك بها اليوم، أصابهم الذل والمهانة والفُرقة والاختلاف والفقر والحروب، ولا مخرج لهم من هذه الحالة إلا بالعودة الصادقة إلى دينهم الذي جاء به رسولهم ﷺ، الرحمة المهداة من الله لهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يبلّغ الناس بأهم ما أوحاه الله إليه، وهو استحقاق الله وحده لا شريك له للعبادة، فلا إله غيره ولا معبود سواه، وما احتوته هذه العبارة أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع منها(1)، فهل هم مستسلمون وخاضعون وطائعون لله، ومستجيبون لهذا البلاغ، أم أنهم مُعرضون عنه ومستمرون في عبادة الأوثان والأصنام؟! والاستفهام حقيقي يحتاج إلى جواب منهم.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾، فإن رفضوا الاستسلام والخضوع لعبادة الله وحده، ولم يستجيبوا لك ويُؤمنوا بك وأعرضوا عنك، فأبلغهم وأعلمهم علماً واضحاً تستوي فيه أنت وهم، ويستوي فيه القريب والبعيد، بأن مصير من كفر وأعرض عن الإيمان هو الهلاك والعذاب، فلا عذر لأحد بعد هذا البلاغ الواضح

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 170).

للجميع، وأخبرهم بأنك لا تعلم موعد نزول العذاب والهلاك بهم، فقد يكون قريباً وقد يكون بعيداً، فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولكنه كائن لا محالة، وفي الآية دليل على بطلان مذهب الباطنية[1]، الذين رفضوا المعاني الظاهرة للنصوص، وادعوا أن لها معاني باطنة لا يعلمها إلا أئمتهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠﴾، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فهو يعلم الذي تجهرون به من الأقوال السيئة التي تؤذونني وتصفونني بها، كقولكم ساحر وكاهن وكذاب ونحوها، ويعلم سبحانه ما كتمتموه في صدوركم من عقائد باطلة وأخلاق سيئة، كالحقد والغِل والمكر والحسد وسوء الظن بالله ورُسله، فالله مُطلع عليها، وسوف يُحاسبكم الله عليها يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١﴾، وأخبرهم أنك لا تدري لعلّ الإمهال لهم، وتأخير العذاب عنهم امتحان لهم لينظر كيف يعملون، والفتنة: اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرة[2]، وأن تمتعهم بالنعم إلى وقت محدد هو استدراج لهم وحجة عليهم، ثم يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾، **القائل هو رسول الله** ﷺ، حيث دعا ربه أن يفصل بينه وبين قومه المكذبين به بالحق، والباء للملابسة، **أي:** حكماً متلبساً بالحق لا ينفصل عنه، ونادى الرسول ربه

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 424).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 174).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستعان به على رد ما اتهمه به الكفار ووصفوه به زوراً وبهتانـًا، وأن يُصبّره على تكذيبهم وأذيتهم له، وقد استجاب الله دعاءه فهزمهم في بدر وما بعدها، فقد كانوا يطمعون أن تكون الغلبة لهم، فخيّب الله آمالهم ونصر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين عليهم(1).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج.

2- أن الغفلة سبب من أسباب الكفر ونسيان الدار الآخرة وعدم الاستعداد لها.

3- فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرمه على عباده المؤمنين بدخولهم الجنة ونجاتهم من عذاب النار.

4- أن بعثة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رحمة لجميع العوالم.

5- أن الرسول لا يعلم متى تقوم الساعة، ولا متى ينزل العذاب بالكفار.

6- إحاطة علم الله جَلَّ وَعَلَا بما في صدور الخلق وما تنطق به ألسنتهم.

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 425).

تفسير سورة الحج

تفسير المقطع الأول من سورة الحج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا
تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ
سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ
بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن
نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا
نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ
هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ
يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ
عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا
قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾.

شخصية السورة:

سورة الحج؛ اختلف المفسرون هل هي مكية أم مدنية؟ والجمهور على أنها مكيّة، والصحيح أنها مختلطة فيها المكي وفيها المدني[1]، **ومن مقاصد السورة:** بيان أهمية تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أمره ونهيه، وتعظيم شعائره عامة، وشعائر الحج خاصة.

ابتدأت بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾، هذا خطابٌ عام يشمل الناس جميعـًا، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، الموجود منهم عند نزولها، ومن يسمعها إلى يوم القيامة؛ بأن يتقوا الله ربهم الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالكفار يتقونه بترك الكفر والشرك والمعاصي، والمؤمنون يتقونه بترك المعاصي، وهذا أشمل ما قيل في التقوى، وعلّل أمرهم بالتقوى بذكر فظاعة ما يجري قبل قيام الساعة ليتصوروها ويستعدوا لها بتقوى الله، فإنه لا نجاة من أهوالها العظيمة إلا بالتقوى، وهو الزلزلة التي تكون قبل قيام الساعة حيث تضطرب الأرض اضطرابـًا شديداً، لا يكاد يُوصف من شدته وهوله، وهي إحدى علامات الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة[2]، وإنما أضيفت إلى الساعة لقربها منها، ثم

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 105).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 3).

ذكر بعضاً من آثار أهوال قيام الساعة على الخلق، حين يشاهدون تلك الزلزلة العظيمة والاضطراب الشديد؛ فيصيب الناس كلهم هول عظيم حتى تذهل كل مرضعة عن رضيعها، والمرضعة هي التي التقم طفلها ثديها[1]، وهي الحالة التي تكون فيها عاطفة الأمومة وحنانها على طفلها أكثر من أي وقت آخر، ولكنها من شدة هول ذلك الموقف تترك ولدها، وتنزع ثديها من فمه، **والذهول هو**: ترك الشيء عمداً والانشغال عنه بغيره[2]، وهذا يدل على أن هذه المرأة بلغت من الذهول مبلغه، فقد تركت إرضاع ولدها للكرب الذي نزل بها، ومن شدة هول ذلك الموقف تضع كل حامل حملها ولو كان قبل تمامه، دون أن تشعر بألم الولادة، مع أن الولادة أمر صعب على المرأة، ولكن من شدة فزعها يخرج الجنين منها بدون شعور منها، ويشمل هذا كل الأجنة، سواءً كان في الأشهر الأولى، أو الوسطى، أو الأخيرة، فأي حمل يسقط ويخرج سريعًا، فوضع الحمل بسهولة لا يكون إلا لشدة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف؛ لأن الحمل في قرار مكين[3]، ومن شدة هول الموقف يرى الرائي للناس وهم حيارى، حالهم يشبه حال السكران الذي فقد عقله، فهو يتخبط يمينةً ويسرةً لا يدري أين يذهب، وهم في الواقع غير سكارى، فلم يشربوا خمراً[4]، وإنما تخبطوا في تصرفاتهم من شدة الأهوال، وما رأوه من شدة عذاب الله في

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: (2/ 32).

(2) ينظر: تاج العروس: (29/ 18).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 190).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 247).

ذلك اليوم، فكل إنسان ينشغل بنفسه ويترك أقرب الناس إليه، فتتمزق العلاقات بين الناس من شدة الأهوال، وفي الآية إشارة إلى أهمية الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح، فإنه لا ينجو من تلك الأهوال إلا من كان من المتقين.

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾، "مِن" هنا تبعيضية، أي: بعض الناس يُجادل في ألوهية الله واستحقاقه لها، أو يُجادل في آيات الله وما احتوت عليه من أحكام، ووصفه بأنه يُجادل "بغير علم"، إشارة إلى أن الجدال بعلم ممدوح، وهو ما يُسمى بالحوار، وهو مشروع وجائز ومطلوب مع كل الناس حتى تظهر الحقيقة، **أما الجدال بغير علمٍ** -بل بجهلٍ- فلا فائدة منه، ولا يُتوصل به إلى الحقيقة، بل يُنتصر به للأهواء وشهوات النفس، ومن كان هذا حاله فهو متبعٌ للمردة من الشياطين المتجردين من كل خير، المتصفين بالشر المحض، و"كُتِبَ" هنا بمعنى حكم الله وقضى على الشيطان[1] أنه سيضل كل من أطاعه واتبعه واستنصر به عن طريق الحق، ويدلّه على طريق الباطل الذي يوصله إلى عذاب جهنم المشتعلة بأهلها، وفي الآية إشارة إلى حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال أهل الضلالة[2].

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 566).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 394).

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾، هذا النداء الثاني في السورة، وهو ألصق بالكفار؛ لأن فيه إنكاراً للبعث، وفيه الاستدلال بإثبات القدرة على الخلق على إثبات القدرة على البعث؛ لأن أغلب الكفار يُقرّون بقدرة الله على الخلق إلا بعض المُلحدين والدهريين الذين لا يؤمنون بخالقٍ للكون، فمن عنده شك في قدرة الله على بعث الخلق يوم القيامة فليتأمل ويتفكر في الخلق؛ فإن الذي قدر على خلقهم وإيجادهم من العدم؛ قادرٌ على بعثهم وإعادتهم مرة أخرى، والإعادة عقلاً أسهل من الخلق الأول، ثم ذكر مراحل الخلق، **فالمرحلة الأولى**: هي خلق آدم من تراب، وذكر هنا أصل مادة الخلق وهي التراب، قبل أن يُضاف إليها الماء ليُصبح طينًا، ثم نفخ فيه الروح، وخُلقت منه حواء، ثم تناسل منهما الخلق، بواسطة نطفة مني الرجل التي تُلقّح ببويضة المرأة، ثم تستقر في رحمها أربعين ليلة، ثم تتعلق بجدار الرحم أربعين ليلة فتُسمى علقة، ثم تصير بعد ذلك قطعة لحم متجمد، لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط حتى تكتمل الخلقة، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت مكتملة الخلقة؛ **وفي الحديث**: **"إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل**

ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح"[1]، **واللام** لام التعليل، **أي:** ذكرنا لكم هذه المراحل في خلقكم من أجل أن نُبيّن لكم قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تشكيل الخلق من علقة إلى مضغة إلى جنين مُخلّق كامل الخلقة، وتقِر هذه النطفة في الأرحام ولا تسقط، مهما تحركت المرأة حتى يحين موعد الولادة، وقد يكون بعد تسعة أشهر وهو الغالب، وبعضهم قد يتجاوز ذلك، ولذلك ذكر الفقهاء أن أقصى مدة للحمل أربع سنوات، وهو قليل ونادر جداً، وقد تقلّ مدة الحمل إلى ستة أشهر، ويخرج الجنين سليماً، أما ما دون ستة أشهر فإنه غالباً يموت ولا يكون مكتمل الخلقة، ثم يخرج الجنين من رحم أمه طفلاً، وهو المتطفِّل على غيره، الذي لا يقدر على نفع نفسه بشيء، ثم ينمو هذا الطفل ويترعرع حتى يبلغ أشده، وهو الكمال في القوة والتمييز، وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين سنة[2]، ومنكم من يُتوفى وهو جنين، ومنكم من يُتوفى وهو طفل، ومنكم من يُتوفى وهو شاب قبل أن يبلغ مرحلة الأشد، ومنكم من يطول عمره بعد الأربعين ويصل إلى مرحلة الشيخوخة، وأرذل العمر: أسوؤه[3]، وأشده ضعفاً، وهو حين يكون الإنسان شيبة هرِماً، ومن بلغ هذه المرحلة فقد تذهب عنه الذاكرة والقوة والنشاط، ويفقد ما اكتسبه خلال مدة

(1) صحيح البخاري: (4/ 111)، برقم: (208).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 413).

(3) تاج العروس: (29/ 67).

عمره من العلم والخِبرة والتجربة، فصار مرة أخرى في مستوى الطفل الضعيف الذي لا يعلم شيئًا، وفيه إشارة إلى العناية بالآباء عند بلوغهم مرحلة الكبر، فإنهم يحتاجون إلى عنايه كبيرة كالعناية بالطفل الصغير. فهذا الدليل الأول على إثبات البعث والنشور، خلاصته أن الذي خلق الإنسان وأوجده من العدم قادر أن يبعثه من جديد، **ثم ذكر دليلاً آخر للبعث:** وهو إحياء الأرض الميتة بالمطر، فإن الأرض إذا انقطع عنها المطر فترة طويلة من الزمن يبست ومات كل نبات فيها، وصارت جافة يابسة قاحلة لا وجود للخضرة فيها، فإذا أنزل الله عليها المطر ارتوت وتشققت وتفتحت وخرج منها النبات، وارتفعت بسبب نمو النبات المتنوع الأصناف الذي يسرّ منظره الحسن الخاطر وتبتهج النفس برؤيته.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾، " ذلك" اسم الإشارة يعود إلى ما كل سبق، فالذي خلق الإنسان من العدم وأحيا الأرض بعد الموت، هو الله الإله المستحق للعبادة، القادر على إحياء الموتى وبعثهم، وأنه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولتعلموا أن الساعة آتية في موعدها لا محالة، ولتعلموا أن البعث حق، وأن الله يبعث الناس من قبورهم ويحشرهم إليه ثم يحاسبهم على أعمالهم؛ فيُجازي المحسِن على إحسانه، ويُعاقب المسيء على إساءته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾، **قال كثير من المفسرين:**

إن المراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية السابقة، والتكرار للمبالغة في الذم[1]، و"**من**" **هنا** تبعيضية، أي ويوجد فريق من الناس يجادل في الله، فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله، أو صفاته، أو في قدرة الله على البعث والإعادة، أو في شرائعه الواضحة، بغير علم، بل بجهل منهم، وليس عندهم قدوة حسنة من سلفهم يهتدون بها، ولا كتاب منزّل من عند الله بيّن الحجة واضح البرهان، ينير له طريق الهداية كي يسير عليه، فغابت عنه وسائل الهداية الصحيحة وحججها كلها، فلا علم صحيح مكتسب، ولا قدوة حسنة يقتدي بها، ولا كتابٌ منزّل يستدل به، و"**ثاني عطفه**"، تمثيل للتكبر والخيلاء، **أي**: ومع ذلك فهو متكبر على خلق الله، يلوي عنقه[2]، تكبراً وترفعاً عن الخلق؛ ليشعرهم بأنه لا أحد أفضل منه، واللام للتعليل، **أي**: يجادل بغير علم متكبراً عن الخلق؛ من أجل أن يصرف الناس عن الإيمان بالله سبحانه واتباع دينه، ويوهم بجداله العامة أن الإسلام دين باطل حتى لا يتبعوه، وقد توعّد الله من هذه صفته بعقوبة الخزي في الدنيا، وهي الإهانة له، وهو ما حصل لبعضهم من أسر وقتل في غزوة بدر[3]، وبعذاب مؤجّل إلى الآخرة، إحراقه في نار جهنم المشتعلة، وتخاطبه الملائكة وهو النار توبيخاً وتقريعاً له، **وتقول له**: ما أصابك من عذاب الخزي في الدنيا، وعذاب الحريق في الآخرة، هو بسبب ما فعلتْه جوارحك من الكفر والإجرام والمعاصي، وإنما عبّر باليدين؛ لأنها أبرز

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 519).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 414).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 209).

الأعضاء التي يستخدمها الإنسان في أفعاله غالبًا، وأن ما وقع لك من عقوبة هو عدلٌ لا ظلم فيه؛ لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه، بل يُعاقبهم بقدر أفعالهم القبيحة، وصيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد، والصواب: أن الظلم من حيث هو ظلم، أمر شديد، فصيغت له زِنَة المبالغة[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- وجوب الاستعداد ليوم القيامة بالتقوى والعمل الصالح.

2- بيان شدة أهوال يوم القيامة، وأنها تشغل عن غيرها وتُفرّق بين الأحبة.

3- بيان مراحل خلق الإنسان في بطن أمه.

4- الاستدلال بقدرة الله على الخلق من العدم على قدرته على البعث والنشور.

5- من وسائل الهداية التعلم، والاقتداء بالصالحين، وتدبر الكتاب الكريم.

6- بيان أن الكِبر مانع من موانع الهداية.

7- إثبات عدل الله، وأنه لا يظلم أحداً.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 210).

تفسير المقطع الثاني من سورة الحج

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ
وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ
لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾ ۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي
بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ
فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ
﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾، يُبيِّن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات حال فريق آخر من الناس، وهم الذين دخلوا في الإسلام وهم في شكٍ منه، **ويقال للشاك في دينه**: إنه يعبد الله على حرف؛ لأنه لو عبده على يقين وبصيرة لم يكن في حرف يسقط عنه بأدنى شيء يصيبه[1]، فالحرف هنا كناية عن المقصد، وأصله من الانحراف عن الشيء، أو من الحرف بمعنى الطرف، **أي**: أنه في طرف من الدين لا في وسطه[2]، وهذه الآية تنطبق على بعض الأعراب، كما **جاء تفسيرها عن ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، **قال**: "كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء"[3]، فهذا اتخذ دينه تبعًا للمصلحة الشخصية من غير ثبات ولا طمأنينة ولا بصيرة فيه، ولم يعلم أن دين الله مبني على الابتلاء، وأن أكثر الناس بلاءً هم الصالحون، **وفي الحديث**: **"يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه"**[4]، وفي الآية تشبيه بليغ للمؤمن المتمسك بدينه كالذي يجلس في وسط الشيء متمكنًا منه، والمؤمن ضعيف الإيمان كالذي يجلس في طرف الشيء غير متمكن منه، فأدنى هزة تسقطه، فمن

(1) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 285).
(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1116).
(3) صحيح البخاري: (6/ 98)، برقم: (4742).
(4) مسند أحمد: (3/ 78)، برقم: (1481)، وإسناده حسن.

كان مستيقنًا بالإيمان ومُقتنعًا بالدين ومبادئه على وجهٍ صحيح؛ فإنه يثبت في المحن والابتلاءات، ومن ربط الدين بمصالحه الشخصية، فهو مُضطرب في عقيدته ودينه، فإذا وقع في ابتلاء ومصيبة؛ رجع عن دينه إلى الكفر وعبادة الأوثان، وهو بفعله هذا قد خسر دنياه فلم يظفر بما طلب من المال، وخسر آخرته بارتداده عن الدين، فحصل له الخسران البيّن الواضح؛ فعاش في الدنيا في ضيق وضنك، وفي الآخرة إلى جهنم وبئس المصير.

وقوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾، ثم وصف حال هذا المرتد مع من يعبده من دون الله، فإنه يعبد أصنامًا وأوثانًا لا تضره إن ترك عبادتها ولا تنفعه إن عبدها، وفعله هذا هو الضلال الواضح البيّن!، فهو يعبد تلك الأصنام التي لا تنفع نفسَها ولا تضر غيرها، وإنما عبادتها ودعاؤها هو الذي يضر بصاحبه، فنفى عن الأصنام الضرر والنفع، وأثبت ضرر عبادتها على عابدها؛ لأن الضرر ليس حاصلاً منها، بل الضرر ناتج عن شرك العبد بالله[1]، وهذا الضرر أعظم من النفع الحاصل للعبد من عبادتها إن وجد، كما يحصل للسدنة من منافع دنيوية منها، من الأموال والنذور ونحوها، وهو نفع ناتج من فعل الناس لا من الصنم نفسه، وهي منفعة دنيوية قليلة، في مقابل الشرك بالله وضرره العظيم الذي يعود على صاحبه بالعذاب والخلود في نار جهنم، واللام للتوكيد، و"**بئس**" للذم، **والمولى**: الناصر والمعين، **والعشير**: هو

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1117).

الصاحب والصديق المعاشر لصاحبه، **والمعنى**: قبح ذلك المعبود نصيراً، وقبح عشيراً، فهو لا ينصر صاحبه ولا ينفعه، فبئس النصير! وبئس الصاحب!.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾، لما ذكر أن الأصنام لا تنفع من عبدها، قابل ذلك بذكر أن الله ينفع من عبده بأعظم النفع، فمن عبد الله وآمن به أدخله في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار المتنوعة، وعقّب ذلك بأن الله يفعل ما يريد، فلا يمنعه مانع، وفي ذلك إشارة إلى أن الله يُعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، وأنه لا يُسأل عما يفعل.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾، **للمفسرين في معنى هذه الآية قولان**[1]، **الأول**: أن الضمير في "ينصره" يعود على محمد ﷺ، وإن كان لم يسبق له ذكرٌ فقد ذكر الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بالله ورسوله ﷺ[2]، **والمعنى**: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله ﷺ فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ثم ليقطع النصر من مصدره، ثم لينظر هل يذهبنّ كيده وحيلته ما يغيظ من نصر النبي ﷺ، أو من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله ﷺ في الدنيا بظهور دينه، وفي الآخرة بعلوّ مكانه ومنزلته؛ فليشدد حبلاً في سقف بيته وليخنق نفسه حتى يموت، فإن الله ناصره ومظهره، ولا ينفعه غيظه، واختار هذا القول جماعة

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 226).

(2) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: (14/ 38).

من المفسرين[1]، **والقول الثاني:** أن الضمير في "ينصره" عائدٌ على الذي ارتد عن دينه، **والمعنى:** من ظنّ بسبب ضيق صدره وكثرة غمّه أن لن ينصره الله؛ فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، ورجّح هذا القول ابن جزي[2]؛ لأنه مناسب لحال من يعبد الله على حرف، ولاتصاله بما قبله، ولأن الضمير يعود على مذكور قبله، أما النبي ﷺ فلم يذكر قبل ذلك، واختاره ابن عاشور[3]، **وفي الآية الوعد والبشارة بالنصر لرسوله ﷺ**، ولعباده المؤمنين، والإشارة إلى عجز الكفار عن محاربة الإسلام، وأنه منصور بإذن الله، وأن غيظهم عليه لن يذهب مهما استخدموا من المكر والخداع.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾، وكما بيّنّا لكم الحجج والبراهين على إثبات البعث والنشور؛ أنزلنا على محمد ﷺ القرآن الكريم، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرة المشار إليه[4]، وهو آيات بينات واضحات، وأن الله يوفق بفضله ومشيئته من يريد إلى هذا الحق، فهداية التوفيق بيده سبحانه، ومطلوب من العبد أن يأخذ بأسباب الهداية، **ومنها:** الإقبال عليها وعدم الإعراض عنها، والدعاء بها، ومجالسة الصالحين المهتدين، ونحوها، فالهداية كالرزق، وكلاهما قد كُتب للعبد وهو في بطن أمه، فكما يبحث العبد

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (3/ 417)، وتفسير ابن كثير: (5/ 402)، وفتح القدير للشوكاني: (3/ 522).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1119).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 219).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 112).

عن الرزق بالأخذ بأسبابه؛ فليبحث عن الهداية بالأخذ بأسبابها.

وقولــــه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾، ذكر الله سبحانه طوائف الناس وأديانهم، وهم المؤمنون بالله وبجميع رسله، وهم أمة محمد ﷺ، واليهود يُؤمنون بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويكفرون بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبمحمد ﷺ، **والصابئون:** قوم يُؤمنون ببعض الأنبياء، ويقدسون الكواكب، ولا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، ويعيشون على ضفاف الأنهار وموجودون في العراق وفي إيران وغيرها[1]، **والنصارى:** هم قوم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **والمجوس:** هم عبدة النار من أهل فارس، **والذين أشركوا:** هم مشركو العرب، ويلحق بهم كل مشرك يُشابههم، وأخبر بأنه سيجمعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل فيما اختلفوا فيه من قضايا العقيدة والعبادة، فالله شهيد وحاضر ومراقب لأعمالهم، محيط باعتقاداتهم وأقوالهم، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وسيُجازي كل إنسان بما يستحق، فيحكم للمؤمن الحق بدخول الجنة، ولصاحب الكفر والباطل بدخول النار.

وقولــه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾، ثم أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن استسلام الكون كله لله وسجوده بين يديه، من باب التوبيخ للكفار

---

(1) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان: (2/ 724).

المعرضين عن الطاعة والانقياد، والاستفهام تقريري، والرؤية هنا هي القلبية، **بمعنى**: العلم، والخطاب لكل من يصلح له، فلو تفكر العبد في هذا الكون الخاضع المُنقاد لأمر الله الذي لا يعصي الله، لانتبه لمخالفته للكون له في كفره وعصيانه وخروجه عن أمر الله، فكل من في السماء ويدخل فيه الملائكة كلهم، ومن في الأرض من المخلوقات لم تعصِ الله، بل أطاعته وخضعت لأمره، فالشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب خاضعة مُنقادة لأمر الله، والجبال والشجر والدواب كلها خاضعة مُنقادة لأمر الله، وسجود هذه المخلوقات قد يكون سجوداً حقيقيًا، يعلم الله كيفيته[1]، **كما في الحديث**: "قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: **أتدري أين تذهب؟**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد، فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها**"[2]، وقد يكون السجود مجازيًا، ومعناه الخضوع والانقياد المطلق وعدم المخالفة[3]، وكثير من الناس يسجدون لله سجود طاعة وعبادة ويخضعون لأمره، وهم المؤمنون بالله ورسله، وكثير من الناس كفر وأعرض عن الإيمان بالله ورسله والخضوع لشرعه، ويدخل فيهم الكفار من الجن والشياطين، فوجب عليهم العذاب واستحقوه بسبب كفرهم وإعراضهم عن

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 432).

(2) صحيح البخاري: (4/ 107)، برقم: (3199).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 418).

الخضوع والطاعة، ومن أهانه الله بأن جعله كافراً شقيّاً، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً[1]، فالكفر سبب للإهانة، والإيمان سبب للكرامة، فمن أراد أن يُهين نفسه فليكفر بالله ويعصه، **وفي الحديث**: **"وجُعل الذلّ والصغار على من خالف أمري"**[2]، ومن أراد أن يُكرم نفسه فليُكرمها بالإيمان والطاعة، إن الله يفعل ما يشاء بالخلق بحكمته، فيكرم من يشاء بالإيمان، ويهين من يشاء بالكفر والعصيان.

وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾، هذان فريقان اختلفوا في ربهم، **والمقصود بهما** أهل الإيمان وأهل الكفر، فكلٌّ منهما يدَّعي أنه محقٌّ، المؤمنون يرون أن ربهم هو الله العزيز الحكيم، والكافرون يرون أن ربهم هو الوثن والصنم، **وفي حديث أبي ذر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "أنه كان يقسم إن هذه الآية نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتبة وصاحبيه يوم برزوا يوم بدر"[3]، ولكن صيغة السببية في النزول غير صريحة، فهي من باب التفسير للآية، وهي عامة في كل المؤمنين والكافرين، ثم أخبر عن مصير الكافرين بالله يوم القيامة، حيث قطع الله لهم قطعاً من النار، فخُيّطت وسوّيت وجُعلت لهم

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 524).
(2) مسند أحمد: (9/ 478)، برقم: (5667)، وحسنه الألباني في الإرواء برقم: (: 1269)
(3) صحيح البخاري: (5/ 75)، برقم: (3965).

ثيابًا، وهي النحاس الذي قد أذيب[1]، فيلبسهم الله تلك الثياب فتشتعل النار بهم، وتبقى أجسادهم داخلها لا تفارقها كما لا يفارق الثوب جسد صاحبه، ويُصب على رؤوسهم الماء شديد الحرارة، فيُنضج به جلده ويُذَاب به ما في داخل البطون من الأمعاء والأحشاء، **وفي الحديث:** "إن الحميم ليُصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان"[2]، وخُصص لهم سياط أو مطارق من حديد تضربهم بها الملائكة في نار جهنم، وسميت مقامع؛ لأنها تقمع المضروب وتذلّه[3]، وكلما رفعتهم النار بلهيبها من أسفلها إلى أعلاها ظنوا أنهم سيصلون إلى فوهتها ليخرجوا منها، فتضربهم الملائكة بتلك المقامع فتردهم النار إلى أسفلها[4]، وكلما حاولوا الخروج من النار بسبب شدة غمِّهم وكربهم؛ أعادتهم الملائكة إليها، وتبكّتهم الملائكة بقولها لهم: ذُوقوا العذاب المحرق لكم، فاجتمع لهم العذاب الحسي والعذاب النفسي، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾، لما ذكر الله حال

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 419).

(2) مسند أحمد: (14/ 452)، برقم: (8864)، وسنن الترمذي: (4/ 286)، برقم: (2582)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (3470).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 525).

(4) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 229).

الفريق الأول، وهم الكفار وعذابهم في النار؛ ذكر حال الفريق الثاني وجزاءهم، وهم أهل الإيمان والعمل الصالح، وأن الله يدخلهم جنات نعيمها دائم، تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار المتنوعة، ويتزينون بلبس الأساور، وهي ما يُوضع في الساعدين من حلق الذهب الموشحة والمرصّعة بحبات اللؤلؤ، ليزيدها جمالاً، ويلبسون ثياباً من الحرير الخالص، وقد كان الذهب والحرير محرماً لبسه على الرجال في الدنيا[1]، فأباحه الله لهم في الآخرة، وصار هو اللباس المعتاد لأهل الجنة فيها، وهدوا في الجنة إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب من الملائكة، كما هدوا فيها إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم[2]، **وفي الحديث**: إن أهل الجنة **"يُلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس"**[3]، وأضاف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله، وفي ذكر اسم الله "الحميد" معه ليبيّن لهم أنهم إنما نالوا الهداية إلى ذلك بحمد ربهم ومنّته عليهم[4]، وقد كان الله أنعم في الحياة الدنيا بإرشادهم وتوفيقهم إلى قول كلمة التوحيد والذكر والتسبيح والتحميد وقراءة القرآن، وهداهم إلى دين الإسلام الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وتلك نعمة عظيمة، أن يهدي الله القلب للإيمان في الدنيا، وأن يوفق اللسان فيها

---

(1) ينظر: الحديث في مسند أحمد: (2/ 146)، برقم: (750)، وسنن أبي داود: (6/ 165)، برقم: (4057)، وإسناده حسن.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 408).

(3) صحيح مسلم: (4/ 2180)، برقم: (2835).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص:536).

للكلام الطيب ويصونه عن الألفاظ السيئة، فمن حصل له ذلك؛ فإن جزاءه وعاقبته في الآخرة أن يهديه الله إلى جنات النعيم.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – الوعد من الله بنصر دينه، مهما حاول الكفار هزيمته وتعددت أساليبهم في ذلك.

2 – أن هداية التوفيق بيد الله، وعلى العبد أن يأخذ بأسباب الحصول عليها.

3 – بيان أن الكون كله خاضع لله تعالى مطيع له، وأن العبد الكافر هو وحده المتمرد عن ذلك.

4 – بيان الفرق الكبير بين حال المؤمنين في الآخرة وحال الكافرين.

تفسير المقطع الثالث من سورة الحج

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ
لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ
﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا
وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ
ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ
لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ
وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ
شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى
ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ
بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ
وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾، **يخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** عن قبح وشناعة ما كان عليه المشركون الكافرون بربهم من كفار قريش، الذين جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وأنهم كانوا يمنعون غيرهم من الدخول في الإسلام واتّباعه، وكانوا يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام والطواف به، وعبّر بالفعل المضارع الذي يدلّ على استمرار هذا الفعل منهم، والمسجد الحرام ليس ملكاً لهم ولا لآبائهم، بل جعله الله مكاناً لعبادة الناس جميعاً ومناسكهم وقبلةً لصلواتهم، ولا يختص به أحد دون أحد، ولا فرق فيه بين غني وفقير، ولا بين أهل مكة وغيرهم، ويستوي فيه المقيم والمسافر، والساكن فيه والوافد إليه، في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه[1]، **والمراد بالمسجد الحرام** جميع الحرم، وعظّم الله مكانة الحرم في النفوس؛ فتوعد بالعقوبة كل من أراد فعل الشر فيه، والإرادة عمل قلبي، وسمى ذلك بالإلحاد الملابس للظلم، وهو الميل عن الحق إلى الباطل، والمقصود به هنا فعل ما لا يجوز له فعله من الكفر بالله وفعل عموم

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 36).

المعاصي، فكل من عزم في الحرم على أن يفعل معصيةً أو ظلماً للآخرين بدون حق، ولا متأولاً في ذلك؛ فإن الله يُعاقبه على ذلك العزم ولو لم يفعله، بالعذاب الأليم في الآخرة، إن مات من غير توبة، وهذا من خصائص الحرم[1].

وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾، واذكر يا محمد لقومك حين أرشد الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مكان البيت، وهيأه وسلمه له، وأذن له في بنائه، وقد جاء بيان الطريقة التي أرشد الله بها إبراهيم إلى مكان البيت ومساحته في حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: "لما أمر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر، فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلّمه، فقال يا إبراهيم: ابنِ على ظلي، أو على قدري، ولا تزد ولا تنقص"[2]، فهذا يدل على أن الله بيّن لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المكان والمساحة والشكل الهندسي للبناء، ولذلك كان المبنى الذي بناه إبراهيم مستطيلاً وليس مربّعاً كما هو اليوم؛ لأن قريشاً حين تهدمت الكعبة بالسيول؛ أعادت بناءها فقصُرت عليها النفقة، فأخرجت منها قرابة ستة أذرُع[3]، وهو الذي يسمى اليوم بـ"الحِجْر" من جهة الركنين الشاميين، وأوحى الله إلى إبراهيم أن يصيّر هذا البيت منارة للتوحيد، ومكاناً لعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يُطهره وينظفه

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 411).

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 601)، برقم: (4024) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(3) ينظر: الحديث في صحيح البخاري: (2/ 147)، برقم: (1586)

من كل قذَر ونجاسة حسية ومعنوية، ليكون مكانًا مهيأً للطائفين حوله، والطواف: كثرة التردد على الشيء، وهو عبادة من أعظم العبادات، ولا تُشرع إلا حول الكعبة، وأن يصيّره مكانًا مهيأً للقائمين فيه، وهم الذين يقفون بين يدي الله في الصلاة، أو يقفون عند المُلتَزَم للدعاء فيه، وهو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وهو من أماكن إجابة الدعاء(1)، **والرُكع:** جمعُ راكع، والسجود: جمعُ ساجد، أي الذين يُكثرون من الركوع والسجود بين يدي الله في هذا المكان، وفي الآية إشارة إلى أهمية تطهير المسجد الحرام والعناية به، ويلحق به الآن عموم المساجد، فتنظف من القذارات والأوساخ، ولا يُؤكَل فيها ما له روائح كريهة، مثل الثوم والبصل، وشرب الدخان، ومضغ القات والشمة ونحوها، بل تُصان من ذلك كله، فذلك من تعظيم شعائر الله.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾، وأمر الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن انتهى من بناء البيت، بأن يؤذن في الناس ويعلمهم بفريضة قصد البيت لأداء المناسك فيه، **والتأذين:** هو النداء بصوت مرتفع، فقال إبراهيم: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ **فقيل:** نادِ وعلينا البلاغ، فصعد جبل أبي قُبيس، وهو جبل في جهة الجنوب من الحرم خلف جبل الصفا، ثم صاح يا أيها الناس: إن الله يدعوكم إلى حج بيته الحرام، قال: فسمعه ما بين السماء والأرض(2)، فإذا دعوتهم، أتوك

---

(1) ينظر: الحديث في الجامع لشعب الإيمان للبيهقي: (5/ 492)، برقم: (3769).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 605).

حجاجًا وعمّاراً، مشاة على أرجلهم من الشوق، وراكبين على الإبل والخيل ونحوها من الركائب الخفيف السمنة التي عندها القدرة على قطع المفاوز، ومواصلة السير الطويل، **والضامر** المهضم البطن اللطيف الجسم[1]، وقدّم الذين يمشون على أرجلهم على الراكبين للاهتمام بهم، وإظهار مزيتهم، وهو بيان لحال المسافر، إما يكون راكبًا أو ماشيًا، و"**يأتين**"، الضمير يعود إلى الحيوانات التي يركب عليها الحجاج، **والفج هو** الطريق الواسع المفتوح بين جبلين، والعميق المقصود به البلد البعيد[2]، وقد حصل ما وعد الله به، فمنذ ذلك النداء وحتى اليوم والناس يأتون إلى بيت الله الحرام حجاجًا ومعتمرين، رجالاً وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها.!

وقوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، واللام للتعليل، فمن حضر هذا المكان نال منافع كثيرة دينية ودنيوية، **فالدينية هي** أداء النسك والعبادات التي لا تشرع إلا في ذلك المكان، وتحصيل مضاعفة الأجور للعبادات في الحرم، والتعرض لمغفرة الذنوب ومحوها، **وفي الحديث: "من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"**[3]، ونحوها من المنافع الدينية، ومن المنافع الدنيوية أرباح التجارة

(1) ينظر: لسان العرب: (4/ 2606).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 530).

(3) صحيح البخاري: (2/ 133)، برقم: (1521).

في البيع والشراء، واللقاء والتعارف بين المسلمين، فالحج مؤتمر سنوي جامع للمسلمين، ونكّر لفظ "منافع"؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات(1)، وعلى الحجاج أن يكثروا فيه من ذكر الله المطلق أثناء أدائهم لمناسكهم، وأن يذكروا اسم الله عند ذبحهم ما رزقهم من بهيمة الأنعام، من الهدي والأضاحي في يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة، فهذه هي الأيام المعلومات، **وبهيمة الأنعام**: هي الإبل والبقر والغنم والضأن، وهي التي يشرع أن تُذبح في الهدي والأضاحي، وفي تسميتها رزقًا إشعار لهم بضرورة أن يشكروا الله عليها، وأباح لهم الأكل من لحوم هديهم وأضاحيهم؛ لأن المشركين كانوا يذبحون الهدي لآلهتهم ولا يأكلون من لحمها(2)، وشرع لهم أن يطعموا منها البائس، وهو الذي اشتد فقرُه وظهر البؤس عليه من شدة فقره، ويطعموا المحتاجين والفقراء ونحوهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾، ثم يستكمل الحجاج مناسكهم من الحلق وقص الأظافر وإزالة الأوساخ التي تراكمت عليهم أثناء فترة إحرامهم بالغسل والتطيب ولبس الثياب ونحوها، ومن كان عليه نذر من حج أو عمرة أو طواف أو ذبح في مكة ونحوها؛ لزمه أن يُوفيه في مكانه، وعلى الحجاج أن يتموا حجهم بالطواف بالبيت الحرام، **والمقصود به هنا** عند جميع المفسرين طواف الإفاضة(3)، ويكون بعد

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 436).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 234).

(3) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 39).

الانتهاء من الرمي والذبح والحلق أو التقصير يوم النحر، وهو ركن الحج ويقع به تمام التحلل، والطواف حول الكعبة عبادة مشروعة في كل وقت، ويستحب تكراره والإكثار منه؛ لأنه عبادة لا توجد إلا في هذا المكان، والبيت العتيق هو الكعبة، وسُمي بالعتيق؛ لأن الله أعتقه من تسلط الجبابرة عليه[1]، أو لأنه عتيق من التّجبّر، فلا يتكبر عنده جبار[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾، "ذلك" اسم إشارة للفصل والتنبيه، وخبره ذلك الأمر بيان، وهو من أساليب الاقتضاب في الانتقال من خبر سابق[3] -وهو بيان أعمال الحج- إلى خبر آخر، وهو بيان تعظيم الحرمات، والحرمات: جمع حرمة، وهي ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه[4]، **والمقصود بها في هذه الآية** كل ما نُهي عنه، ومُنع من الوقوع فيه، وتعظيمها ترك ملابستها[5]، ويدخل فيها كل محظورات الإحرام، **والمعنى**: ومن يجتنب معاصي الله ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه؛ فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل عند الله، وأحل الله لكم الأكل من لحوم الأنعام إلا ما استثني تحريمه

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 235).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:249).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 251).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 424).

(5) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 534).

عليكم منها، **كما في قوله:** ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة:3]، وذلك لأن المشركين كانوا قد حرّموا على الناس أنواعـًا من الأنعام، مثل البحيرة والوصيلة والحام وخصوا بها الأصنام، وأمرهم أن يبتعدوا عن الرجس، وهو: الشيء القذر[1]، ويشمل القَذَر الحسي أو المعنوي، **فالحسي:** مثل الغائط والبول وسائر النجاسات، **والمعنوي:** مثل الشرك بالله ونحوه، وخص هنا الرجس المعنوي بالذكر لخطورته، و"**مِن**" هنا لبيان الجنس، **أي:** اجتنبوا الرجس الذي هو عبادة الأوثان[2]، فهي سبب للرجس، وهو العذاب، **والوثن:** هو كل ما عبد من الأحجار مما ليس على صورة المخلوق، **والصنم:** الذي يكون على صورة المخلوق، فكل صنمٍ وثن وليس العكس، وأمرهم أن يبتعدوا عن قول الزور، وهو لفظ يشمل الشرك والكلام الباطل وشهادة الزور، والتعبير بـ"اجتنبوا" أبلغ في التحريم من النهي عن فعلها؛ لأنه يدل على البعد الكلي عن الشيء وعدم الاقتراب منه، ويدل على ترك الفعل وترك أسبابه ومقدماته والطرق الموصلة إليه.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾، وأمرهم أن يكونوا مائلين عن الشرك محققين التوحيد بشروطه، **والحنيف:** المائل عن الأديان كلها إلى

(1) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: (10/ 581).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 419).

دين الإسلام[1]، غير مشركين بالله شيئًا، ثم ضرب مثالاً لحال المشرك بالله، بشخص سقط من السماء، **والخرور** سرعة السقوط، وأثناء السقوط يتعرّض لأحد أمرين: إما أن تتلقاه الطيور المفترسة في الهواء فتأخذه بسرعة وتُمزق جسده، أو تأخذه ريح شديدة عاصفة فتهوي به في مكان بعيد لا يُوصل إليه، فشبّه الإيمان في علوّه بالسماء، ومن ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط منها، وشبّه الأهواء التي تتوارد عليه بالطير المختطفة التي تتنازع على الفريسة، وشبّه الشيطان الذي يضله بالريح التي تهوى بما عصفت به في أماكن مهلكة[2]، وفي ذلك إشارة إلى مكانة المؤمن الموحد العالية عند الله في الدنيا والآخرة، وأن قراره في يده، وأنه ثابت على مبادئه لا تتنازعه الأهواء ولا تُضطرب لديه المفاهيم، بل هو على يقين مما يعبد، وأن المشرك ليس صاحب قرار، بل هو كالريشة في مهب الريح تأخذه الأهواء يمينًا وشمالاً، ويعيش حالة من الاضطراب والشك في دينه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾، "ذلك" يعود إلى ما أمر الله به من التوحيد، وما نهى عنه من الشرك، وشعائر الله: هي أعلام الدين الظاهرة في المجتمع المسلم، ومنها المناسك كلها، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها من تعظيم العبد لله وإجلاله سبحانه، والمقصود بالشعائر هنا الهدي والأضاحي، وتعظيمها بأن تكون من

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 425).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 155).

النوع السمين المكتمل الخلقة غالية الثمن، والأصل في تسميتها بالشعائر أن الشخص كان إذا أراد أن يحج يأتي إلى البدنة التي يريد أن يسوقها إلى الحرم، فيجرح سنامها بالسكين، فيخرج منه الدم، فتُعرف أن هذه قد خصصت للهدي[1]، وبيّن سبحانه أن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، وأضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى ومحلها في القلوب، **كما في الحديث**: **"التقوى هاهنا وأشار إلى صدره"**[2]، فكلّما عظّم العبد شعائر الله؛ دلّ ذلك على قوة التقوى لديه، وكلّما أهمل الاهتمام بالشعائر؛ دلّ ذلك على ضعف التقوى لديه، فالاهتمام بالشعائر الدينية علامة يقيس بها العبد تقواه، فمثلاً: المحافظة على إقامة الصلاة في أوقاتها وبخشوع فيها؛ علامة على تقوى قلب صاحبها، وهكذا في باقي العبادات، وهذا من رحمة الله بالعبد أن جعل له وسائل سهلة يراقب ويحاسب بها نفسه، حتى يصلح ما فيها من خلل واعوجاج.!

وقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾، الضمير يعود إلى الهدي الذي يساق إلى الحرم، والمنافع فيها هي ركوبها ولبنها وصوفها ونحوها من المنافع، **وفي الحديث**: "أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال: اركبها؟ فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، ويلك"[3]، **وفي الآية والحديث** إبطال لما كان عليه المشركون في

---

(1) ينظر: العين (1/ 251).

(2) صحيح مسلم: (4/ 1986)، برقم: (2564).

(3) صحيح البخاري: (2/ 167)، برقم: (1689).

الجاهلية من منع الاستفادة من الهدي بعد إشعاره، والمقصود بالبيت العتيق الحرم كله[1] لا الكعبة نفسها، فالناس لا يذبحون هديهم في الكعبة، وإنما يذبحونها في فِجاج مِنى ومكة، ويجوز للحاج ذبح هديه خارج الحرم عند الإحصار، كما فعل النبي ﷺ في صلح الحديبية عندما منعته قريش من دخول مكة معتمراً، فذبح هديه خارج الحرم، ثم لبس ثيابه ورجع إلى المدينة، والأجل المسمى هو وقت ذبحها، وهو يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده، فإذا ذبحت انتفعوا بلحمها وجلودها وسائر أجزائها.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، **الأمة:** هم أهل الدين الذين اشتركوا في اتّباعه، ومن الشعائر التي جعلها الله لكل الأمم أن صيّر لها مكاناً لذبح القرابين من بهيمة الأنعام، وسميت بهيمة؛ لأنها لا تنطق، وكل حي لا يميّز فهو بهيمة[2] وأمرهم الله بذكر اسمه عند ذبحها تقرباً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **والنُسك:** هو النحر والذبح، **كما قال:** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:162]، **والمنسك:** موضع النحر[3]، وهو في اللغة: الموضع المعتاد في خير أو غيره[4]، **ومناسك الحج هي** الأفعال التي يقوم بها الحاج في أماكنها المشروعة لها، **وفي الآية إشارة** إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 527).

(2) ينظر: لسان العرب: (12/ 56).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 535).

(4) ينظر: تاج العروس: (27/ 373).

غيرها، وأن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليها، ثم أخبرهم بأنه هو الإله الحق وحده لا شريك له، وأمرهم بأن يستسلموا له ويخضعوا لأمره، وأمر رسوله ﷺ بأن يبشر المتواضعين الخاشعين لله من أمته، **والإخبات** مأخوذ من الخبت، وهو الوادي المنخفض من الأرض[1]، وأطلق البشارة ولم يحددها لتعم البشارة بكل خير في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر صفات المخبتين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، **فذكر أربع صفات لهم، الأولى:** خوفهم وخشيتهم من الله عند ذكره، **والوجل هو** الخوف من الله مع الرغبة فيما عنده، وحصول الوجل منهم عند الذكر لله سبحانه؛ دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم، **والثانية:** الصبر على ما يصيبهم من المصائب والابتلاءات وغيرها، دون تسخُّط على أقدار الله، **والثالثة:** المحافظة على إقامة الصلاة في أوقاتها بشروطها وأركانها، **والرابعة:** أنهم يتصدقون بما يقدرون عليه مما أعطاهم الله من المال وينفقونه في وجوه البر ووجوه الخير!.

وقوله: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾، **البُدْن:** جمعُ بَدَنة، وهو اسم خاص في اللغة بالإبل، وهي الناقة السمينة، وسُميت بدنة لعظم بدنها[2]، ويلحق بها شرعاً البقر، **كما في**

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة: (7/ 137).

(2) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (1/ 39).

الحديث: "نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة"[1]، ويُستحب في الأضاحي والهدي أن تكون سمينة سليمة، وقد صيّرها الله من شعائره حين شرع ذبحها تقربـاً إلـى الله هـدياً أو أُضحية، والخير هو المنافع الدنيوية منها والأجر على التقرب بها في الآخرة، **والبُدن** تُنحر وهي قائمة على أقدامها الثلاثة معقولة يدها اليسرى[2]، وإذا كان هناك أكثر من ناقة يراد نحرها في آنٍ واحد؛ فإنها تُصف في مكان واحد ثم تُنحر متتالية بجوار بعض، وقد نحر النبي ﷺ بيده ثلاثٍ وستين بدنة في حجة الوداع[3]، **والظاهر** أنه صفها مع بعض ليُسهل عليه نحرها وليُبعدها عن النظر إلى غيرها وهي تُنحر؛ لأنها ستكون باتجاه واحد، فإذا ماتت وسقطت على الأرض فاخلسوا جلودها ثم قطعوا لحمها ثم اطبخوه وكلوا منه، وأطعموا **القانع** من قنع يقنِع قناعة، بكسر النون، **أي**: رضي، وهو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس، **وقيل** العكس من قنع يقنَع قنوعاً، بفتح النون، إذا سأل[4]، **والمُعتَر** هو الفقير الذي يسأل الناس، وقيل العكس هو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل[5]، **واختار ابن جرير** أن **القانع**: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، **والمعتر** من الاعترار، وهو: الذي يتعرض لما عند الناس من دون سؤال لهم[6]،" كذلك" **أي**: هكذا

---

(1) صحيح مسلم: (2/ 955)، برقم: (1318).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 427).

(3) ينظر: الحديث: في صحيح مسلم: (2/ 886)، برقم: (1218).

(4) ينظر: لسان العرب: (8/ 298).

(5) ينظر: تاج العروس: (13/ 8).

(6) ينظر تفسير الطبري: (18/ 640).

سخرنا لكم البدن أيها الناس؛ لتشكروني على نعمة تسخيرها لكم، والمتأمل في حال الإبل مع ضخامتها وقوتها إلا أن الطفل الصغير يقودها؛ يدرك معنى تسخير الله لها، فإنها أحيانًا تنفر وتشذ عن التسخير فتتحول إلى وحش كاسر لولا تسخير الله لها.

وقوله: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾، ليس المقصود هو الذبح لها فقط، فلن يصل إلى الله دم ولا لحم الهدي والأضاحي، لكونه غني عن ذلك، وإنما المقصد من ذبحها والتقرب إلى الله بها أن تبلغوا بذلك درجة التقوى، بإخلاص النية، ورعاية شروط التقوى، التي ترفع مرتبتكم وقدركم عند الله سبحانه، فالذي يصعد إلى الله ويتقبله من أعمالكم هو التقوى والعمل الصالح، والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما كان يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة(1)، وذلّل لكم الأنعام وشرع لكم ذبحها؛ لتكبروا الله بعد ذكر اسمه عليها أثناء النحر والذبح للهدي والأضاحي، فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها، وذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير(2)، كما أنه يشرع التكبير المطلق من يوم عرفة إلى غروب شمس آخر يوم من أيام التشريق، وهو آخر وقت لذبح الهدي والأضاحي، على ما أرشدنا إليه من معالم دينه ومناسك

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (3/ 429)، والتحرير والتنوير: (17/ 267).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 538).

حجه، وأمر الله رسوله ﷺ أن يبشر كل من أحسن في عمله، والإحسان هو إتقان العمل وإخلاصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيشمل الإحسان في عبادة الخالق وإتقانها، والإحسان إلى الخلق بكل خير، ولم يذكر نوع البشارة لتعم كل أنواع الخير المحبب إلى النفس في الدنيا والآخرة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة الحرام، وخطورة إرادة فعل المعاصي فيه.

2- بيان أن في الحج منافع دنيوية ومنافع أخروية.

3- أهمية ضرب الأمثال لبيان مكانة التوحيد وخطر الشرك.

4- بيان فضل التواضع وثمرته على العبد.

5- أن الإحسان سبب للسعادة في الدنيا والآخرة.

تفسير المقطع الرابع من سورة الحج

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ
حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ
وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ
كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ (٤٣) وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ
وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن
قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ
مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ
فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ (٤٦) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن
مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ (٤٨)﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨)﴾، يُخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه يدافع عن المؤمنين الذين حققوا الإيمان

على أكمل وجه ضد أعدائهم، ولا يتخلف هذا الأمر إلا حينما يضعُف الإيمان، وما نشاهده في هذه الأيام من ضعف ومهانة كثير من المسلمين على أعدائهم؛ فإن سببه ضعف إيمانهم وتعلقهم بغيره، فعلّة المدافعة هي كمال الإيمان، فمتى ما وُجدت وُجد الدفاع من الله عنهم، **وأطلق لفظ "يدافع"**؛ ليشمل كل أنواع المدافعة، فيدفع عنهم شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم وينصرهم، ثم بيّن سبحانه أن دفاع الله عن المؤمنين سببه حبه لهم، فإن الإيمان وسيلة لحب الله، وأن الله تعالى يكره الكفر والخيانة ويكره من اتصف بواحدة منها، وخوّان: صيغة مبالغة من الخيانة، والمقصود بها خيانة التكاليف الشرعية المتعلقة بحقوق الله أو حقوق الخلق، وكفور: صيغة مبالغة من الكفر، وهو الجحود والنكران لنعم الله وعدم الإيمان به، فمن خان أو كفر فلا يحبه ولا يدافع عنه، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة استقامة المسلمين وبعدهم من أفعال الكفار والمنافقين حتى يدفع الله شر أعدائهم عنهم وينصرهم عليهم.

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾، **قال ابن عباس:** لما أُخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ليهلكن، **فنزلت:** ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾، قال: فعرف أنه سيكون قتال، **قال ابن عباس:** "هي أول آية نزلت في القتال"[(1)]، وقد كان المؤمنون في مكة ممنوعين من الجهاد في سبيل الله والدفاع عن أنفسهم، **في**

---

(1) مسند أحمد: (3/ 358)، برقم: (1865)، وسنن النسائي: (6/ 2)، برقم: (3085)، وإسناده صحيح.

قوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[النساء:77]؛ لأن المشركين كانوا أكثر عدداً من المسلمين، فلو أمرهم الله بقتال الكفار لشق على المسلمين ذلك، فلما هاجروا مع محمد ﷺ إلى المدينة، وقويت شوكة المؤمنين؛ أَذَن الله لهم بقتال من ظلمهم ومنعهم من دينهم، وآذاهم وأخرجهم من ديارهم، **وهذه الآية دليل لمن قال:** إن السورة مدنية[1]، وجاء هذا الإذن لهم بالقتال بعد ذكر آية الدفاع عنهم؛ ليطمئنوا بأن النصر والتمكين حليفهم، وبيّن أن الإذن بالقتال لهم جاء لرفع الظلم عن أنفسهم، وهي علّة تشريع الجهاد في سبيل الله، ووعدهم الله بالنصر والتمكين على عدوهم، فهو قادر على ذلك، ولكنه يبتلى المؤمنين بالكافرين، ولو أراد لنصرهم بدون قتال، كما حصل في بعض الأمم السابقة، ولكن الله أراد لهذه الأمة أن تُحرز النصر بالأخذ بأسبابه، وأن يتخذ منهم شهداء.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾، ثم بيّن الله أنواع الظلم التي وقعت على المؤمنين حتى أذن لهم بالقتال، فقد طردهم الكفار من مكة وأخرجوهم من ديارهم ظلماً وتجبراً عليهم وليس لهم حق في ذلك، و"إلا" هنا أداة استثناء، لكنه مُنقطع[2]، وهو بمعنى لكن، أي أخرجوهم من ديارهم بغير حقٍ لكن بسبب **قولهم:** ربنا الله، وهذا موقف مطّرد للكفار في كل

---

(1) تفسير ابن كثير: (5/ 433).

(2) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (2/ 944).

زمان ومكان، فمعركتهم مع "لا إله إلا الله" كما قال عن أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[البروج:8]، وما تُشاهدونه اليوم من معارك بين الإسلام والكفر فسببها "لا إله إلا الله"، فكلما كان المسلمون متمسكين بالإيمان والتوحيد فلن تتركهم دول الكفر، بل ستحاربهم بكل الوسائل، والصراع بين الحق والباطل مستمر إلى قيام الساعة، ضمن سنة المدافعة التي أذن الله بها، وهي سنة مُطّردة لا تتغير ولا تتبدل، فالباطل يدفع الحق، والحق يدفع الباطل، ولولا وجود سنة المدافعة لسيطر الباطل على الحق، فالمطلوب من أهل الحق أن يدفعوا الباطل بما عندهم من أسباب ولو كانت ضعيفة، ولا يستسلموا له، فإن العاقبة للمتقين، ثم ذكر أن عدم وجود المدافعة للشرك وأهله في كل مِلّةٍ وأمّةٍ سيؤدي إلى تهديم أماكن العبادات لأهل الأديان كلهم.

فالصوامع: منازل الرهبان من النصارى[1]، **والصومعة في الأصل** هي مبنى مرتفع كان يبنيه الراهب ليبتعد به عن مشاكل الناس ويختلي بنفسه، فإذا لم يدفع الراهبُ المشرك فسيُهّدم صومعته، **والبِيَع**: هي أماكن عبادة النصارى في قول أهل اللغة[2]، فإذا لم يدفع النصارى المشركين فسيهدمون بيعهم، **والصلوات**: هي أماكن عبادة اليهود[3]، فإذا لم يدفع اليهود المشركين فسيهدمون معابدهم،

---

(1) ينظر: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (ص:199).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (3/ 239).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 430).

والمساجد: هي مكان عبادة المسلمين، فإذا لم يدفع المسلمون المشركين فسيهدمون مساجدهم[1].

وجملة "يُذكر فيها اسم الله كثيراً" صفة، والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إليها جميعًا[2]، ويجوز أن تكون راجعة للمساجد فقط؛ لأنها أقرب مذكور[3]، وفي ذلك تزكية ومدح لأهلها الذين يعمرونها، بخلاف الصوامع والكنائس والبِيع، فأغلبها لا يُذكر فيها اسم الله كثيراً، بسبب التحريف والتبديل الذي وقع على تلك الأديان، وعلى هذا المعنى، فالشرك والمشركون عدوٌ لكل الأديان السماوية ولو كان بعضها قد وقع عليه التحريف، ويحتمل أن هذه المدافعة المقصود بها هذه الأمة؛ لأن الإسلام أجاز لأهل الكتاب أن يبقوا على دينهم، وتترك لهم أماكن عباداتهم، ويدفعوا للمسلمين الجزية مقابل حمايتهم، فإذا لم يدافع المسلمون المشركين ويُقاتلونهم؛ فسيهدم المشركون أماكن كل الديانات في كل بلد من بلدان المسلمين عند انتصارهم عليهم[4]، وعلى كلا المعنيين فالواقع الذي نشاهده اليوم يدل على أن موجة الإلحاد والشرك والوثنية تحارب كل الأديان، وتبدأ بمحاربة الإسلام كونه الدين الصحيح، وأخبر سبحانه أن العاقبة والنصر من الله لمن نصر دينه وجاهد

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 70).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 278).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 72).

(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 444).

في سبيله، وهي قاعدة عظيمة من قواعد استمطار النصر، فمن أراد أن ينصره الله؛ فلينصر دينه وشرعه، ومن أراد أن يُضيعه الله؛ فليضيِّع دينه وشرعه، كحال أمة الإسلام اليوم، وللأسف!، وذيّل الآية بما يُطمئن السامعين لهذا الوعد بأن الله قوي عزيز، فلا يظن السامع أن الله حين طلب من العبد أن ينصر دينه وشرعه، أنه محتاج إليه، بل هو قويٌّ عزيزٌ غنيٌّ عن نصرة الخلق، وإنما أراد أن يبتليهم بهذه العبادة ليأجرهم عليها في الآخرة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾، أخبر الله عن صفات وأعمال الموعودين بالنصر من الرعيل الأول، ويلحق بهم كل من نصر هذا الدين من أجيال المسلمين بعدهم، حين يمكّن الله لهم في الأرض بالحكم والسلطة، فإنهم يحرصون على إقامة أصول دين الإسلام كلها، إذ هو الهدف والغاية من التمكين للمؤمنين، فمن وفقه الله وحكم في الأرض، وأراد أن يستمر له الحكم والتأييد من الله؛ فالواجب عليه أن يقوم بلوازم الوَلاية، ومتطلباتها، **ومنها**: إقامة الصلاة، فيُقيمها الحاكم ويحافظ على أدائها في نفسه، ويُقيمها في شعبه ببناء وعمارة المساجد حسياً ومعنوياً، وتحفيز الناس على الاهتمام بها، ويؤتي الزكاة من ماله إن وجد، ويحرص على جمعها ممن تجب عليهم، وتوزيعها لمن يستحقها، ويقيم العدل في الناس، ويأمر بالمعروف ويُنشره ويشجع عليه، وينهى ويمنع كل مُنكر في دولته، بالترغيب والنصح والإرشاد، أو بالترهيب بقوة السلطان، فبعض الناس لا يتركون المُنكر تديّناً وخوفاً من الله،

بل خوفاً من السلطان وعقوبته، ولذلك شرعت الحدود لردع من هذا حاله، فتُقطع يد السارق ويُجلد الزاني ويقتل القاتل، ونحوها من الحدود التي إقامتها من واجبات السلطان، ليردع بها المجرمين، ويحقق بإقامتها العدل للمظلومين، ومرجع الأمور كلها إلى الله، والعاقبة الحسنة للمتقين بتحقق وعد الله لهم بالنصر والتمكين، وفي الآية إشارة إلى فترة الخلافة الراشدة وما بعدها، فقد عمل الخلفاء فيها بما وصفهم الله به هنا[1].

وقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾، **الخطاب تسلية لمحمد** ﷺ، فإن كذّبك قومُك فلست أول نبي كُذّب، فقد كذّب قوم نوح رسولهم، وكذّب قوم عاد رسولهم صالحاً، وكذّب قوم ثمود رسولهم هوداً، وكذّب قوم إبراهيم رسولهم، وكذّب قوم لوط رسولهم، وكذّب أهل مدين رسولهم شعيباً، وكذّب فرعون وقومه موسى، **ولم يقل**: وقوم موسى؛ لأن قوم موسى كانوا من بني إسرائيل وقد آمنوا به، وإنما كذّبه فرعون وقومه[2]، فأمهل الله تلك الأقوام الْمُكذّبة وأعطاهم فرصة لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا عن تكذيبهم، فلما انتهت المهلة ولم يُؤمنوا؛ أخذهم الله بالعذاب المهلك لهم، فكيف كانت عقوبتي لهم بعد أن أنذرتهم وأنكرت عليهم قُبح أفعالهم، فلم ينتهوا عنها؟!، **وهو سُؤال تعجبي**، ووجه التعجيب منه،

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1143).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 73).

أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكًا![1]، **وفي الآية إرشاد لرسول الله** ﷺ إلى الصبر على قومه، والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك.

وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾، ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة، "وكأين" كلمة تدل على التكثير[2]، فالقرى المكذبة كثيرة، وقد أهلكها الله بسبب ظلمها، والواو للحال، **أي:** أهلكها الله حال كونها ظالمة لأنفسها بالكفر والتكذيب فلم يبق فيها سقف ولا جدار، لأن الله أهلك أهلها، فتتدمر بيوتهم بسبب عدم وجود من يصونها ويسكن فيها منهم، والمقصود بالعرش هنا السقف[3]، وغالبًا هو الذي يبدأ بالسقوط، ثم يسقط الجدار فوقه من الجهات كلها، وكم من بئرٍ معطلة لا يُسقى الماء منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها[4]، بسبب هلاك الذين كانوا يستخدمونها، وفي مسير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك مرّ على ديار ثمود ومنعهم أن يشربوا من آبارها إلا من بئر واحدة هي البئر التي كانت تشرب منها الناقة[5]، فدلّ ذلك على وجود الماء في الآبار وإنما تعطل السقي منها، وكم من قصرٍ مرتفع البناء، أو

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 284).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (4/ 116).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 432).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 438).

(5) ينظر الحديث في: صحيح البخاري: (4/ 149)، برقم: (3379).

مبني بالشَّيْد وهو الجص[1] الذي كانت تُبنى فيه قصور الملوك قديمًا، قد أصبح فارغًا لا يسكن فيها أحد؛ لأن الله قد أهلك أهلها جميعًا، وفي الآية إشارة إلى ضرورة أن يتعظ الناس من حال السابقين لهم الذين انشغلوا بزخارف الدنيا ثم تركوها ورحلوا عنها.

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾، الاستفهام استنكاري، والخطاب لكفار قريش، ويصلح لكل الشاردين عن الحق في أي زمان، بأن يسيروا في الأرض سير تأمل فينظروا بعيونهم في آثار الأمم التي أهلكها الله بسبب كفرها وطغيانها نظر تأمل واعتبار، ويتفكروا بحالهم ومآلهم بعقولهم، ويسمعوا أخبارهم بآذانهم سماع تدبر واتعاظ؛ فإن العمى ليس عمى البصر، بل العمى المهلك لصاحبه عمى القلوب عن إدراك الحق والاهتداء به، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز، وفي الآية دليلٌ على أن العقل في القلب، خلافًا للفلاسفة الذين يرون أن العقل في الدماغ[2]، وتدل على أن عمى القلوب أخطر من عمى الأبصار، فكم من شخص ذهب بصره، واستنارت بصيرته بالإيمان والتقوى والعلم، وهناك عدد من علماء المسلمين كانوا من فاقدي البصر، وكانوا سببًا لهداية غيرهم بما أعطاهم الله من نور البصيرة!، وكم من أناس أذكياء مبصرين عميت قلوبهم عن رؤية الحق والإيمان به؛ فعبدوا غير

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 31).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1144).

الله وسجدوا لأصنام وصُلبان وأبقار!.

وقولـه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾، وكان من عادة المشركين أن يسألوا محمداً ﷺ عن العذاب الذي توعدهم به إن استمروا على الكفر سؤال استهزاء واستعجال، **كما قال**: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج:1]، **والمعنى**: إن كنت صادقًا فأرسل علينا العذاب، فأخبرهم الله بأن العذاب الموعود لهم واقع بهم لا محالة، ولكنه مرتبط بسنة الإمهال، وهي سنة لا تتغير ولا تتبدل، فإذا انتهت سنة الإمهال جاءهم العذاب ونزلت بهم العقوبة، ولا يعلم هؤلاء القوم الذين يستعجلون العذاب، أن عذاب الآخرة شديد، وأن زمن البقاء فيه كبير، فاليوم الواحد من أيام الآخرة يُساوي ألف سنة من أيام الدنيا، أو أنه من شدة العذاب يطول اليوم على صاحبه فيظنه ألف سنة![1]، وفي كل واحد من الوجهين تهديد للذين استعجلوا العذاب، إلا أن الأول أرجح؛ لأن الألف سنة فيه حقيقة[2]، **ولقوله** ﷺ: **"يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام، وتلا هذه الآية"**[3]، فهو طويل حقيقة وشديد عذابه على الكفار.

وقولـه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾، وكم من قرية من قرى الأمم السابقة كفرت بالله ورسله، فمنحها الله سنة

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 33).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 43).

(3) مسند أحمد: (16/ 425)، برقم: (10730)، وإسناده حسن لغيره.

الإمهال، رغم وقوعها في الظلم لنفسها بالكفر وتكذيب الرسل، فلما انتهت سنة الإمهال جاءهم بعدها سنة الهلاك، فجاءهم العذاب فدمرهم وأهلكهم جميعـًا، وإلى الله مرجعهم ومآبهم يوم القيامة، فيحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم على كفرهم بالعذاب الأليم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الإيمان سبب من أسباب دفاع الله عن صاحبه، فمن أراد أن يدافع عنه فليحقق الإيمان الكامل، وهذا ينطبق على الفرد وعلى الأمة كلها.

2- إثبات مشروعية الجهاد، وأنه شرع على مراحل، وأن الهدف من تشريعه الحفاظ على دين الناس وأماكن عباداتهم وسائر حقوقهم.

3- بيان أن إقامة شعائر الدين كلها سببٌ من أسباب التمكين في الأرض.

4- بيان أن عمى القلوب أخطر من عمى الأبصار، فعمى البصر ضرره دنيوي، وعمى القلب ضرره دنيوي وأخروي.

5- بيان أن سنة الإهلاك للكفار تأتي بعد سنة الإمهال لهم.

6- بيان طول يوم القيامة وشدة عذابه على الكفار.

تفسير المقطع الخامس من سورة الحج

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ
٥١ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ
مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي
شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ
فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ
عَقِيمٍ ٥٥ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١ ﴾، أمر الله نبيّه محمداً ﷺ أن يقول للناس المكذبين به: بأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أرسله إليهم لينذرهم ويخوفهم بعذاب الله إن بقوا على كفرهم وتكذيبهم، وإنذاره لهم واضح بيّن لا غموض فيه، وأن تكذيبهم واستهزاءهم به لا يغيظ النبي ﷺ، ولا يصده عن إبلاغ رسالته، ثم بيّن أن الناس أمام رسالته

ودعوته لهم سينقسمون إلى فريقين، الفريق الأول: من استجاب له وآمن به وعمِل عملاً صالحًا، فهؤلاء موعودون بمغفرة ذنوبهم، ورزق كريم لا ينقطع عنهم وهو دخول الجنة، وهذا الوعد متحققٌ لكل من آمن وعمل صالحًا ومات على ذلك، ولو سبق ذلك كفرٌ ومعاصٍ، فإن الأعمال بالخواتيم، والفريق الثاني: من أعرض عنه ولم يؤمن به، واستمر في محاربة الإسلام والتكذيب بآيات القرآن، محاولين بفعلهم ذلك إعجاز الله ومغالبة رسوله ﷺ بهذه المحاربة، فالله لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو ناصر دينه لا محالة، وفي **قراءة بالتشديد من غير ألف** "معجّزين"، **ومعناها:** أنهم يثبطون الناس عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان بالقرآن[1]، ومن يفعل ذلك فإن مصيره نار جهنم في الآخرة يدخلها ويلازمها ولا يخرج منها، وفي الآية إشارة إلى جهود الكفار في محاربة الإسلام في كل زمان ومكان، وبيان أن النصر والعاقبة للمتقين.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾، لفظ الآية يدل على العموم، وأن هذا شأن كل الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ، **وفي معنى "تمنّى" قولان للمفسرين**[2]، **الأول:** من الأُمنية، وهو تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه[3]، للنفس أو للآخرين، **والمعنى:** ما من رسول ولا نبي

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 662).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 246).

(3) ينظر: لسان العرب: (2/ 203).

يبعثه الله إلا تمنى أن يُؤمن به قومُه وأن يستجيبوا له، فهذه أُمنيته، وكل إنسان يُريد النجاح في مهمته ويحب الخير لأمته، وهذا التمني يكون في قلب الرسول أو النبي، فيأتي الشيطان فيُلقي وساوسه على الرسول أو النبي نفسه بأنه لن يؤمن بك أحد، بل سيكذبون بك، فلا تتفاءل بتحقق أمنيتك، أو أن يُلقي الشيطان وسوسته في قلوب الناس فيحذرهم من قبول دعوة الرسول أو النبي، ويشغب عليها بشبهاته.

والقول الثاني: أن "تمنّى": بمعنى قرأ وتلا، **والمعنى:** ما من رسول أو نبي يقرأ على قومه شيئًا من كتابه إلا جاء الشيطان وحاول أن يُلقيَ كلامًا يُناقض كلام الملقي من قوله بصوت يشبهه، وخاصة في وقت السكوت، ويصل إلى آذان السامعين، والرسول أو النبي لم يقلها ولم يُقرها، وهذا المعنى مستفاد من روايات ضعيفة وردت في تفسير سورة النجم، **خلاصتها:** "أن النبي ﷺ قرأ سور النجم في أوائل البعثة في مكة حتى وصل إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[النجم:19-20]، ثم سكت، فإذا بالشيطان يقرأ بمثل صوته آيتين نسجهما من عند نفسه، **وهي:** "تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهن لتُرتجى" فسمعها المشركون، ثم استمر محمد ﷺ يتلو الآيات إلى آخر السورة، ثم سجد، فسجد الكفار معه، لأنه ذكر آلهتهم بخير"(1)، فمن

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 663) وما بعدها، وتحقيق القول فيها في كتابنا مرويات أسباب النزول في جامع البيان لابن جرير: (ص:889)، **وكتيب:** نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، للألباني.

صحّح هذه الروايات بكثرة طرقها[1]؛ **فسّر الآية** بأن الشيطان ألقى على مسامع الكفار تلك الكلمات، ثم إنَّ الله نسخ هذه الآيات وأزالها وأحكم آياته ودحر الشيطان ولقَّن نبيه حجته، وبرّر لقوله هذا بأن النبي ﷺ منها بريء فهو لم ينطقها بلسانه، وإنما الشيطان حاول أن يُضلّل الكفار بها، وهذا القول ضعيف لعدة قرائن[2]، **منها:**

أولاً: أن المشركين ليسوا مُغفّلين إلى هذا الحد، فيضلهم الشيطان بكلمتين من المدح لآلهتهم فيقبلونها، ثم ينسون الذم للأصنام الذي تلاه الرسول عليهم في الآيات التي بعدها، بل كانوا عُقلاء وأذكياء وبُلغاء، يفهمون أن الذم بعد المدح إن وجد نسخ له.

ثانيًا: من الناحية التاريخية، فسورة النجم نزلت في السنة العاشرة من البعثة بعد حادثة الإسراء والمعراج، وسورة الحج بعضها نزل في المدينة بعد الهجرة وبعضها نزل في مكة في الفترة المكية، وهذا يعني أن بينهما ما لا يقل عن ثلاث سنوات، وليس من أساليب القرآن أن يترك فكرة باطلة هذه المدة ثم ينقُدها بعد ذلك، فتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

ثالثًا: أن من المقرّر شرعًا في عقيدة الإسلام؛ أن الشيطان لا يستطيع أن يقترب من رسول الله ﷺ، فلا يتشبه بصورته، ولا يستطيع أن يقلّد صوته في المنام، فضلاً عن اليقظة، **ففي الحديث:** **"من رآني في المنام فقد رآني، فإن**

---

(1) ينظر: فتح الباري لابن حجر: (8/ 439).

(2) ينظر: بعضها في أضواء البيان للشنقيطي: (5/ 286).

الشيطان لا يتمثل في صورتي"[1].

رابعـًا: أن القـول بإمكانيـة تقليـد الـشيطان لـصوت رسـول الله؛ مـدخل للتشكيك في نبوته ورسالته، فقد عصمه الله من هذا، ومنع السماء وحرسها من استراق السمع بعد بعثته.

فهذه القرائن كلها تدل على بطلان هذه القصة بهذا التفسير، فيبقى التفسير الصحيح لها هو القول الأول، وأن الأمنية على بابها، وأنها ما من رسول ولا نبي يُبعث إلا وهو يتمنى أن يستجيب له قومُه ويُؤمنوا به، فيأتي الشيطان فيقذف في قلب الرسول أو النبي اليأس والقنوط بوساوسه وأنه لن يستجيب لك أحد، حتى يبدأ اليأس يدبّ إلى قلبه، **كما قال:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[يوسف:110]. ثم يأتي النصر والتمكين والاستجابة لهم بعد مراحل من الآلام والتكذيب لهم، ويقذف في قلوب الكفار وسوسته بعدم تصديقهم له وتشكيكهم في اتباعه، فينسخ الله ويمسح وساوس الشيطان التي يُلقيها في قلوب الرسل والأنبياء، فتهدأ نفوسهم ويطمئنون إلى وعد الله لهم بالنصر والتمكين، وتُبشرهم باستجابة الناس لهم، وتنسخ وتزيل الوساوس والشكوك من قلوب بعض الكفار فيؤمنون به بعد فترة من التكذيب والإعراض عنه، فالنسخ هو الإزالة، والإحكام هو التثبيت، وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ الله آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آثار آياته[2]، والإحكام

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 33)، برقم: (110).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 301).

هو حفظها من التغيير والتبديل، وذيّل الآية باسمه العليم، وهي صيغة مبالغة من العلم، واسمه الحكيم، وهي صيغة مبالغة من الحكمة، فهو قادر أن يمنع إبليس من الوسوسة، وقادر أن يجعل الناس يُؤمنون، ولكن لإحاطة علمه وحكمته في الخلق ابتلاهم بذلك، وفي الآية دليلٌ لمن يرى التفريق بين الرسول والنبي، وأن النبي أدنى رتبة من الرسول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول، وكل من النبي والرسول يُوحَى إليه، والفرق الجوهري بينهما أن النبي بعث لتجديد شرع رسولٍ سابق، كحال كثير من أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا بعد موسى، لتجديد شريعة موسى؛ لأن انحراف اليهود عنها كان كبيراً، فلا يدل كثرة الأنبياء في بني إسرائيل على فضلهم، بل بسبب كثرة انحرافهم، بخلاف أمة محمد ﷺ، فإن رسولها هو خاتَم الرسل، والانحراف فيها قليل لا يستدعي أن يُرسل الله رسولاً بعده، بل يكفي إصلاح الانحراف بعمل المجدّد الذي يمنّ الله عليه بالعلم وقوة الحجة، فيصحّح ما اندرس من هذا الدين، ويستجيب له الناس، **كما في الحديث**: **"إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها"**(1)، وهذا التجديد قد يكون بفردٍ، وقد يكون بمجموعةٍ من العلماء والدعاة، وقد يكون بجماعةٍ دعوية.

وقوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾، **اللام** للتعليل، **وبيان الحكمة** من تمكين الشيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يوم خلق فيه وجعله داعية للإضلال،

(1) سنن أبي داود: (6/ 349)، برقم: (4291)، وإسناده صحيح.

ونسخ ما يلقيه الشيطان بواسطة رسله وآياته ليكون ذلك اختباراً للذي في قلبه مرض الشك[1]، والمقصود بهم المنافقون، والذين قست قلوبهم هم الكفار، وهو وصف يشمل اليهود والنصارى والمشركين، قست بسبب كفرهم وبعدهم عن الحق، وهذا من الابتلاء القدري، وقد حدثت ابتلاءات أخرى شرعية للناس لاختبار إيمانهم، **مثل**: تغيير القبلة، ورحلة الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، ورؤيا دخولهم مكة مُحلقين ومقصرين، ونحوها، وافتتن بها بعض الناس، وكانت سبباً لثبات آخرين على الإيمان، والظالم وصفٌ يشمل المنافق والكافر، والشقاق: هو العداوة، فعداوة المنافقين والكفار للحق وأهله عميقة ومتجذرة في نفوسهم، وهم مستمرون في كفرهم ومحاربتهم لهم.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾﴾، **اللام** للتعليل، **أي**: وينسخ الله ما يلقي الشيطان لإرادة أن يعلم المؤمنون أن القرآن الكريم الذي أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ هو الحق الذي لا باطل فيه، فيزدادوا إيماناً به[2]، وتزداد قلوبهم خشوعاً وخضوعاً وتواضعاً لقبوله، وانقياداً لأحكامه، فمن آمن به على ذلك الوصف؛ فقد هداه الله وأرشده إلى الصراط المستقيم، وهو طريق الإسلام في الدنيا الموصل إلى الجنة في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٖ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 301).

(2) ينظر: المصدر السابق.

﴿يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾، **أما الكفار** فلا يزالون في شكٍ من القرآن الكريم[1] وما جاء به محمد ﷺ من الدين القويم، فلم يؤمنوا به وسيستمرون على تكذيبهم به وشكهم منه، حتى يفجأهم مجيء الساعة، سواءً كانت الساعة الخاصة بكل واحد منهم، وهي أجله، أو كانت الساعة العامة، وهي يوم القيامة، فكلاهما يأتي فجأة، **كما قال:** ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:50]، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، **وللمفسرين في هذا اللفظ قولان**[2]، **الأول:** أنه عذاب دنيوي توعد الله به كفار قريش مثل يوم بدر، فقد كان يوماً عقيماً لا خير فيه للكفار، **والثاني:** أنه عذاب يوم القيامة، وسُمّي عقيماً؛ لانقطاع أعمارهم فيه، فلم يروا بعد ذلك اليوم ليلاً ولا نهاراً، ثم يدخلون بعده إلى جهنم، فلا يجدون فيها خيراً، والراجح الثاني للسياق الذي بعده.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة القرآن الكريم وحفظه من التبديل والتحريف قديماً وحديثًا، فلا مجال للشياطين أن يسترقوا السمع، أو أن يُقلّدوا صوت الرسول في تلاوته، ولا مجال لأي مجرم في أي زمان من الأزمان أن يُحرف القرآن ويُسكَت عنه.

2- بيان أن الحكمة من تشريع النسخ في الأحكام الشرعية: هو الاختبار للناس وفتنة المنافقين والكفار بها.

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 671).

(2) ينظر: المصدر السابق: (18/ 672).

3 - بيان أن النفاق والكفر مرضان خطيران، فالمنافق والكافر أخوان يتناوبان ويتبادلان المصالح.

4 - أن قوة الإيمان ثمرة للعلم النافع، فكلما تعلمت أكثر كلما كان إيمانك أقوى.

5 - أن الخضوع والانقياد للشرع ثمرة للعلم والإيمان معًا، فالجاهل والمتكبر بعيدان عن العلم والإيمان.

6 - أن بعض المنافقين والكفار سيستمرون في تكذيبهم لمحمد ﷺ وشكهم فيه، حتى يفجأهم مجيء الساعة، ونزول العذاب بهم.

تفسير المقطع السادس من سورة الحج

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ
لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾
لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾﴾، وفي يوم القيامة يكون الملك والسلطان لله وحده، لا يُشاركه فيه أحد، بخلاف الدنيا فقد كان فيها ملوك يحكمون ولو كان ملكهم مجازيًا مؤقتًا، وهو سبحانه من يتولى الحكم والفصل بين العباد فيما اختلفوا فيه في

الدنيا من ادعاء كل فريق منهم أنه على الحق وأن ضده على الباطل، فيحكم لكل منهم بما يستحقه، **وينقسمون تبعًا لذلك الحكم إلى فريقين:** الفريق **الأول:** هم المؤمنون الذين كانوا يعملون الصالحات في الدنيا، فهؤلاء مصيرهم إلى جنات النعيم، لهم ثواب عظيم دائم، **والفريق الثاني:** هم الكافرون المكذبون بآيات الله المنزلة على رسله في الدنيا، فهؤلاء مصيرهم إلى النار، فيذوقون فيها العذاب المهين لأنفسهم والأليم لأجسادهم، حيث جمع الله لهم بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي؛ لأنهم يستحقون ذلك، فقد كانوا في الدنيا معرضين عن الحق متكبرين على الخلق.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾﴾، المهاجر في سبيل الله هو الذي ترك وطنه وماله وهاجر فراراً بدينه إلى بلد آخر، فهذا له مزيّة خاصة عند الله، حيث جعل من مات منهم في طريق الهجرة أو على فراشه، كالذي يُستشهد في سبيل الله في الأجر والثواب والمكانة عند الله[1]؛ لأن الهجرة في سبيل الله في حد ذاتها جهاد، فمن خرج من بلده وترك ماله وأهله فراراً بدينه فهو في سبيل الله، وذلك لما يعتري النفس من موانع وشواغل، ولحب الشخص العيش في وطنه وبين أهله وعشيرته، **وفي حديث عبد الله بن عدي،** أن رسول الله ﷺ يوم الهجرة قال على راحلته وهو واقف بالحزورة وهو يخاطب مكة: **"والله إنك لخير أرض الله،**

(1) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 479).

وأحب الأرض إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت"[1]، قال ذلك حسرةً وألماً على تركه لبلده ووطنه، فموضوع النزوح والتهجير للناس من بلدهم ليس بالأمر الهيّن على النفس، فإنه يتم بدون رضاهم ولا اختيارهم، وفي أحيان كثيرة بسبب الحروب يخرج الناس بدون شيء، وما تشاهدونه هذه الأيام من مشاهد تبثها الفضائيات لإخواننا المسلمين في أرض غزة العزة، وهم يُهجّرون من بيوتهم مع أطفالهم ونسائهم في مشاهد تدمى لها القلوب وتتقطع لها النفوس، نسأل الله أن ينصرهم على عدوهم ويردهم إلى ديارهم، وهذا الرزق الحسن المقصود به الجنة[2]، فهو دائم لا ينقطع، وليس فيه غُصة ولا أذى، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والذي منحهم هذا الرزق هو الله الذي لا أحد أحسن منه رزقاً ولا أكرم منه عطاءً، سبحانه، واللام لام التعليل، التي نهايتها العاقبة، فعاقبة أجرهم هو دخول الجنة، ويتحقق لهم به الرضا، فيرضون عن أنفسهم، ويرضى الله عنهم، ويرضون عن ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحتمل أن يكون ذلك الوعد لهم في الدنيا، فمن مات منهم دخل الجنة، ومن عاش منهم وُعد بفتح البلدان والتمكين لهم في الأرض، وكلا المعنيين صحيح، فلا مانع من إرادتهما معاً، وقد وقع ذلك كما أخبر الله، ففتح عليهم البلدان، ومكّنهم فيها، ورزقهم من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس[3]، **وذيّل الآية** بعليم حليم،

---

(1) مسند أحمد: (31/ 14)، برقم: (18718)، وسنن ابن ماجه: (4/ 289)، برقم: (3108)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1152).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:543).

وهما صيغتا مبالغة من العلم والحلم، فهو عليم بمن يخرج في سبيله، ومن يخرج طلبًا للدنيا، وحليم عمن عصاه، فلا يعاجلهم بالعقوبة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، "ذلك" اسم إشارة للفصل والتنبيه، وخبره ذلك الأمر بيان، وهو من أساليب الاقتضاب في الانتقال[1]، من خبر سابق وهو الإذن للمؤمنين بالجهاد للدفاع عن أنفسهم وهجرتهم وجزاء من مات أو قتل منهم، إلى خبر آخر، وهو بيان الوعد بنصر الله للقوم المعتدى عليهم، حين يقومون بمعاقبة من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم، بجهادهم وقتالهم لاسترداد حقوقهم، فلا إثم عليهم في ذلك، لأنهم مُعتدى عليهم، والبادئ أظلم، فإن عاد المعتدي إلى ظلمهم وقتالهم، فهم موعودون من الله بالنصر عليهم، وسمي اعتداءُ المشركين على المؤمنين عقابًا؛ لأنهم أردوا بفعلهم ذلك معاقبتهم على خروجهم عن دين الشرك إلى دين آخر[2]، **والمماثلة في العقوبة** قاعدة عامة مأمور فيها في أحكام الشريعة الإسلامية لتحقيق العدل، فإذا كانت المماثلة في العقوبة مطلوبة مع الكافر؛ فمن باب أولى مع المسلم، ولذا فإن الجنايات التي لا يُمكن ضبطُ العقوبة فيها بالمماثلة يُنتقل إلى العقوبة فيها بالأَرْش، وهو دية الجروح[3]، **وذيّل الآية** بعفو غفور، إشارة إلى أن العفو أفضل من المعاقبة[4]،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 251).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 312).

(3) ينظر: المعجم الوسيط: (1/ 13).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1153).

أو أن الإنسان مهما حاول أن يلتزم العدل في تحقيق المماثلة في عقوبة غيره، فلن يستطيع ذلك بصورة كاملة، فالله يعفو عنه ويغفر له ذلك التجاوز الذي حصل منه دون إرادة منه الاعتداء أو الزيادة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾، اسم الإشارة ذُكر هنا للفصل والتنبيه، ويعود على النصر الذي يمنحه الله للمظلوم الذي ينتصر ممن ظلمه، فالله قادر على ذلك، كقدرتُه على إيلاج الليل والنهار، وهي قضية تدل على القدرة المطلقة لما فيها من الدقة والانضباط، وفي ذكر ذلك بعد الوعد بالنصر إشارة إلى أن هذا الكفر الكبير المنتشر في الأرض سيزول بنور الإسلام مثل ما يزول ظلام الليل بنور النهار، الإيلاج هو نقص ساعات الليل من ساعات النهار أو العكس، وعبّر عن الزيادة بالإيلاج لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر(1)، ومن معاني الإيلاج الإدخال المتدرج، فالليل لا يدخل فجأة ولا النهار يدخل فجأة، بل يدخل كل منهما في الآخر تدريجياً، كما هو مشاهد في الواقع، وكلا المعنيين صحيح، **وذيّل الآية** باسمين من أسماء الله، وهما السميع والبصير، وهي صيغة مبالغة من السمع والبصر، فالله لا يغيب عنه شيءٌ من أحوال العباد، فهو يسمع أقوالهم ويرى أحوالهم وسيُجازيهم على أفعالهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾، "**ذلك**" يعود إلى ما سبق من إيلاج الليل

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 550).

في النهار، فمن فعل هذا الفعل المُتقَن العظيم هو الله الحق في ذاته وشرعه ووعده ووعيده، وأتى بالضمير (هو)؛ لإفادة الحصر، فحصر الحق في ذاته وأفعاله، وكل ما يصدر عنه من أمر أو نهي هو الحق، وهو قصر حقيقي، وحصر الباطل في الشرك وما يدعو إليه الكفار من عبادة الأصنام، وهو قصر دعائي، وفائدته المبالغة في تحقير أصنامهم وعدم الاعتداد بباطل غيرها[1]، **وذيّل الآية باسميه**: "العلي الكبير"، **فالعلي**: من العلو، ويشمل علوّ الله على خلقه ذاتًا وقدراً وقهراً، **والكبير**: أي ذو الكبرياء، وهي كل صفة كمال وجلال وعظمة ثابتة له، ومن كبريائه؛ أن العبادات كلها المقصود منها تكبيره وتعظيمه، ولهذا كان التكبير شعاراً لها[2]، وهذه الصفة لا يُشاركه فيها أحد من الخلق، **كما في الحديث**: **"الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما، ألقيته في جهنم"**[3]، ولذلك يُحشر المتكبرون من البشر يوم القيامة على صورة الذر، يدوسهم الناس بأقدامهم؛ لأنهم نازعوا الله في تلك الصفة الخاصة به.

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾، الاستفهام إنكاري تعجبي، للفت انتباه السامعين، والرؤية بصرية، فإن الإنسان يرى المطر وهو ينزل من السماء، ويحتمل أن تكون قلبية لإفادتها التفكر والتأمل فيما

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 316).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:544).

(3) مسند أحمد: (15/ 313)، برقم: (9508)، وسنن ابن ماجه: (5/ 272)، برقم: (4174). وإسناده صحيح.

رأى، والخطاب لكل راءٍ، والسماء المقصود بها هنا السحاب، فإذا أنزل الله المطر على الأرض أنبتت الأشجار وأصبحت خضراء بما أنبتت من النباتات ذات الأغصان والأوراق الخضراء، وهو أثر من آثار نزول المطر على الأرض، **وذيّل الآية باسميه:** "لطيف وخبير"، لتعليل إنزال المطر، **واللطيف هو** الذي يُوصل الخير إلى الخلق بيُسر وسهولة، **والخبير** الذي يعلم جزئيات وتفاصيل الأشياء الدقيقة، فهو سبحانه لطيف بالخلق حيث يُوصل إليهم ما يحتاجونه من الماء بكل يسر وسهولة، وخبير بما في قلوب العباد من القنوط عند تأخر المطر.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾، لله وحده الملك والتصرف المطلق في كل ما في السموات وما في الأرض، وليس لأحد غيره من الأمر شيء في الكون كله، **وذيّل الآية بذكر اسميه:** "**الغني**" لبيان أن ملكه للكون بما فيه ليس لاحتياجه إليه، فهو الغني بذاته قبل أن يخلق الخلق، و"**الحميد**" لبيان أنه المحمود في ذاته وأسمائه، وأفعاله وشرعه، وأنه المحمود بكل لسان على كل حال، وقرن الغني بالحميد؛ لأن الغني يفيض على الناس ويعطيهم، فهم يحمدونه[1]، أو لإبعاد ما يتوهم الناس من آثار صفة الغنى عند البشر من الأشر والبطر، **كما قال:** ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق:6-7]، فبيّن أن غناه سبحانه مصحوب بالحمد والثناء له من كل الخلق، وفي الآية إشارة إلى استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له؛ لانفراده بالخلق والملك والتصرف في الكون.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 320).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة الهجرة في الإسلام، وأن الله ساوى في الأجر بين المهاجر الذي يموت على فراشه والذي قُتل في سبيل الله.

2- بيان جواز العقوبة بالمثل، والعفو أفضل منها.

3- الوعد لمن بُغي عليه بالنصر في الدنيا ولو بعد حين.

4- بيان أن المقصود من العبادات كلها هو تكبير الله وتعظيمه، ولهذا كان التكبير شعاراً لها.

5- بيان أن انفراد الله بالخلق والملك والتصرف في هذا الكون يلزم منه استحقاقه وحده للعبادة دون سواه.

تفسير المقطع السابع من سورة الحج

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، الاستفهام إنكاري تعجبي، لا يحتاج إلى جواب، وفائدته لفت الانتباه إلى تعداد نعم الله على الخلق، والرؤية بصرية؛ لأن بعض التسخير تراه الأبصار، وقلبية؛ وتعني التأمل والتفكر في ذلك، والخطاب لكل راءٍ، واللام للاختصاص وتُفيد

الامتنان، **أي**: خصكم أيها المكلفون من الخلق بتسخير الأرض لكم وجعلها صالحة لاستقراركم عليها، وسخّر لكم قوتكم وسائر احتياجكم فيها، وسخّر لكم الفلك، وهي السفن التي تجري على سطح البحر؛ لتركبوا عليها وتنقلون بها أمتعتكم، وكان أول من أُلهم صناعة الفلك هو نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم تعلّمها الناس وطوروها[1]، حتى أصبحت السُفن اليوم بهذا الحجم الكبير، وسخّر لكم مياه البحار لتحملها؛ وأمْرُ الله المقصود به هنا الأمر الكوني القدري الذي يفيد الإذن، وهو مرتبط بمشيئته وقدرته، ومن نعمه عليكم نعمة حفظ السماء ومنعها من السقوط على الأرض، **وفي معنى "أن" هنا قولان**[2]: لكراهة أن تقع، أو لئلا تقع، **وفي معنى السماء قولان**[3]، **الأول**: أنها السماء التي هي بمثابة القبة على الأرض، وداخلها آلاف المجرات الكونية، والاستثناء عائدٌ على بعض ما في السماء وليس على السماء كلها، فإذا أذن الله بنزول بعض كِسفٍ من العذاب أو بعض الشهب نزلتْ بإذنه، وفائدة الاستثناء هو التخويف، أو يكون المقصود بالأذن بسقوطها يوم القيامة عند خراب الكون، **والثاني**: أن المقصود بالسماء السحب التي تحتوي على الثلج والمطر، فهو يُمسكها فلا تسقط على الأرض إلا بإذنه، فيُنزل منها بقَدرٍ حتى لا يؤذي الخلق، ولا مانع من إرادة المعنين، فكلاها داخل في معنى السماء، ولا تعارض بينهما، **وذيّل الآية باسميه**: "الرؤوف

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 322).
(2) ينظر: التفسير البسيط: (15/ 488).
(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 323).

الرحيم" تعليل للتسخير والإمساك، **والفرق بين الرأفة والرحمة:** أن الرأفة دفع الضر والمكروه، والرحمة إيصال الخير، فجمع بينهما هنا ليشمل امتنانه على الخلق بدفع الضر عنهم وإيصال الخير إليهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾، يخبر الله بامتنانه على الخلق بتلك النعمة الكبرى، وهي نعمة الحياة، فقد أوجدهم من نطفة ميتة فأحياها بنفخ الروح فيها، وأخرجهم من بطون أمهاتهم إلى هذه الحياة من أجل الابتلاء والاختبار لهم فيها بالتكاليف الشرعية، ثم يميتهم إذا انتهت آجالهم فيها، ثم يحييهم في الآخرة بالعبث والنشور من أجل الحساب والجزاء على أعمالهم في الدنيا، ثم يصيرون إلى حياة دائمة لا موت بعدها في الجنة أو في النار، ومن طبيعة الإنسان أنه جحود لنعم الله عليه، إلا من رحم الله، ومنها تفريطه في شكر نعمة الحياة الأولى واستغلالها في طاعة الله؛ لينعم في الحياة الأخرى الدائمة.

ثم قال سبحانه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾، وقد جعل الله لكل أمةٍ من الأمم شريعة خاصة يتعبدون الله بها، تنتهي ببعث رسول جديد بعدها، فلا تتخطى أمة منهم شريعتها إلى شريعة أخرى[1]، **كما قال:** ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[المائدة:48]، أما توحيد الله وإفراده بالعبادة، فهو دين كل الرسل وإن اختلفت بعض شرائعهم، والمنسك في الأصل مكان النُّسُك، ولكن

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 552).

المقصود به هنا المصدر، وهو العبادة نفسها، التي يتعبدون الله بها كما يدل عليه" هم ناسكوه"، **ولم يقل**: هم ناسكون فيه[1]، فلا ينازعك المشركون وغيرهم من الكفار فيما شرعتُ لك ولأمتك، فما شرعته لك قد شرعت نحوه لأمم قبلك، وهو نهيٌ يراد به النفي، فلا يجوز منازعةُ النبي ﷺ في أمر الدين الذي جاء به، لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه[2]، بل نزاع المشركين وأهل الأديان المحرفة له باطل؛ لأنهم لا حجة عندهم ولا برهان عليه، وأمر الله نبيه ﷺ أن يستمر في الدعوة إلى دين الإسلام بالحجة والبرهان، والترغيب والترهيب، وينشغل به، ويترك الجدال والخصام معهم لعدم فائدته، وأخبره بأن دينه هو الحق، وأنه دين قويم لا اعوجاج فيه، واللام للتوكيد، **وعبّر بـ"على"** ليُفيد علوّ هذا الدين على كل الشرائع، وفي ذلك تثبيت للنبي ﷺ، فإنه على ثقة من أمره، ويقين من دينه، فلا يلتفت لما يقوله الكفار فيه.

وقوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾، وإن استمر المشركون في الجدال والمنازعة لك، تشغيباً واستهزاء، فتوقف عن جدالهم، وأخبرهم أن الله يعلم ما يعملونه من أنواع المعارضة والمجادلة بالباطل، وأنه سيجازيهم عليه، وهذه الآية وأمثالها من الأمر بالموادعة للكفار، خاصة بمرحلة الضعف، والأمر بقتالهم في مرحلة القوة، وفي العبارة تهديد ووعيد لهم[3]، فلن يتركهم الله بدون

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 552).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1155).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 452).

عقوبة على فعلهم ذلك، وفي الآية تعليمٌ لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل[1]، وفيها إرشاد لرسوله ﷺ أن يفوّض أمرهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم خاطب الله المؤمنين والكافرين بأنه سيجمعهم يوم القيامة ويفصل بينهم فيما تنازعوا فيه واختلفوا حوله من أمور الدين والعقيدة؛ فيظهر من كان على الحق ومن كان على الباطل، ويجازي كل واحد بما يستحق، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يلاقيه من أذى منهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، هذا تذييلٌ وتعقيب على أن حكم الله في الآخرة مبنيٌ على علم الله وإحاطته بما في السموات والأرض، والاستفهام تقريري يفيد التنبيه، فكيف يخفى عليه ما تعملون؟![2]، **والخطاب عام** لكل سامع له، وأن كل ما يجري في السماء والأرض من حوادث وأعمال فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ، واسم الإشارة يعود على ما سبق ذكره من إحاطة علم الله بالأشياء وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، فذلك كله يسير على الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾، ويعبد المشركون من دون الله أصناماً وأوثاناً اخترعوها وسمّوها آلهة لم يأذن الله بها، وليس معهم عليها حجة، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادها وبطلانها، ولكنهم عبدوها تقليداً لآبائهم، فنفى عنهم الدليل السمعي

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 553).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 453).

الشرعي، ثم نفى عنهم الدليل العقلي، فوجب في كل قولٍ هذا شأنه أن يكون باطلاً[1]، وسماهم ظالمين؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالوقوع في الشرك وعبادة غير الله، فليس لهم من ناصر ينصرهم وينقذهم من عذاب الله إن نزل بهم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾، وحين تُقرأ على المشركين آيات القرآن البينات الواضحات وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله سبحانه، ترى في وجوهم الإنكار بالعبوس والكراهة[2] لما سمعوا من الآيات القرآنية، بعد أن نفرت وانقبضت قلوبهم منها، **كما قال:** ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾[الزمر:45]، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آيات القرآن، فيوقعون بهم القتل والضرب البليغ، حنقاً عليهم وكراهية لهم ولما يتلونه، **والسطو:** هو البطش برفع اليد[3]، ولا عجب من ذلك فهم كفار مكذبون بالله ورسوله، ولكن العجب أن يحصل ذلك من بعض عصاة المسلمين اليوم، حين ينزعج من سماع القرآن ومواعظه إلى مستوى أن يمنع الآخرين منه، أو يشوش عليهم سماعه، مما يدل على أنه قد وصل إلى مرحلة متقدمة من الفسق والفجور، وصار سماع كلام الله يُؤذيه كما

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (23/ 250).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 454).

(3) تاج العروس: (38/ 277).

يؤذي الشياطين التي تتأثر منه وتهرب من سماعه، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يُخبر المشركين الذين هذا حالهم مع القرآن بشيء هو أكثر شراً عليهم من غيظهم وحنقهم عند سماعهم القرآن، وهو مصيرهم ودخولهم إلى النار، التي وعد الله كل كافر بدخولها والخلود فيها، فسيجدون فيها من شدة الغيظ والتعب والضنك ما لا يخطر على بالهم! فشرها عظيم، وآلامها دائمة، والاستفهام الغرض منه الاستئذان، وهو استئذان تهكّمي؛ لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم، **والمعنى**: فإن كنتم غاضبين بسبب ما تُلي عليكم من الآيات القرآنية؛ فازدادوا غضباً بهذا الذي أخبرتكم به[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان نعم الله على الخلق، والاستدلال بها على استحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

2- اتفاق الأنبياء على الدعوة إلى توحيد الله وإن اختلفت شرائعهم الفرعية.

3- بيان أن كل من عبد غير الله ليس لديه حجة شرعية ولا عقلية.

4- شدة حقد وغيظ الكافر المعاند على القرآن ومن يتلوه من المؤمنين.

5- بيان أن الانزعاج من سماع القرآن ومواعظه سببه فساد القلب وقسوته.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 336).

تفسير المقطع الثامن من سورة الحج

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾، النداء لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، والغرض منه تنبيه السامعين لما يقال لهم، والمثل تشبيه شيء غامض بشيءٍ واضح، واستعير

الضرب للقول والذكر تشبيهـاً بوضع الـشيء بـشدة، **ومعنى الـضرب هنا** الـذكر والبيان[1]، **وضرب الأمثلة** وسيلة من وسائل التعليم والإيضاح، وقد أكثر القرآن منهـا لتتـضح للنـاس الفكـرة فيتقبلونهـا، **كمـا قـال:** ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾[الروم:58]، **والمقصود بالاستماع هنا** سماع التدبر والعمل والاعتبار والاتعاظ، والغرض مـن ضـرب المثال هـو بيان قـبح عبـادة الأوثـان، وبيان نقص عقول من عبدها، فكل مـا يُعبـد مـن دون الله مـن الأصـنام والأوثـان ونحوهـا عـاجزة عـن أن تخلـق أضـعف المخلـوق وهـو الـذباب، وهـو نـوع مـن الحشرات الضعيفة، وبعض الذباب يكون صغيراً جداً، فعجزهم عـن خلـق مـا فوقه مـن بـاب أولـى، ولـو اجتمعـت كـل الأصـنام والأوثـان والمعبـودات أو لـم يجتمعـوا فلـن يقـدروا علـى خلقـه مـع كونـه صـغير الجـسم حقيـر الـذات، وإذا اختطف الذباب منهم شيئًا من الأشياء، فلا يقدرون علـى تخليـصه منـه، لكمـال عجـزهم، فقـد عجـزوا عـن إيجـاد أضـعف الخلـق، وعجـزوا عـن دفـع أضـعف المخلوقات عنها، فكيف توصف بأنها آلهة؟![2]، والخطاب للأصنام، فقـد كـان المشركون يضعون عليها شيئًا من الزعفران والطيب تكريمًا لها، فكان الـذباب يأتي ويأكله[3]، فلا تـستطيع الأصـنام دفعـه عنهـا، أو اسـتنقاذ مـا اختطفـه الـذباب منها، لعجزها عن ذلك كله، وقد اكتـشف الطـب الحـديث شـيئًا جديـداً في هـذا الباب، وهو أن الذباب إذا أخذ شيئًا من الطعام إلى فمه فإنه يُلقي عليه إنزيمـات

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 338).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 340).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 134).

كيميائية تُحوّل ذلك الشيء بسرعة إلى مادة أخرى، فلا يبقى على ما كان عليه لسرعة تغيُّرِه[1]، **وذيّل المثال** بوصف حال العابد والمعبود، فالعابد ضعيف، والمعبود أضعف منه، كما أن الصنم ضعيف والذباب ضعيف، ومع ضعف الذباب ففيه حياة وحركة ونشاط، بخلاف الصنم فهو جماد لا يتحرك، ومع ذلك جعلوه إلهاً يعبد من دون الله، فدلّ المثال على أن الأصنام أحط رتبة وأخس منزلة من الذباب[2] الضعيف المستقذر عند الناس، ولو عرف المشركون الله حق المعرفة لقدّروه حق التقدير، وما اتخذوا معه شريكاً ولا عبدوا غيره، **وذيّل الآية بذكر اسميه:** "القوي العزيز"، في مقابل ضعف وحقارة وعجز معبوداتهم التي تحتاج إلى من يخدمها ويحميها فضلاً عن عجزها عن خلق ذباب أو استنقاذ ما أخذه الذباب منها، فكيف يشاركه في الألوهية الضعيف الذليل؟!.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٧٦﴾، أخبر الله سبحانه أنه يختار من الملائكة رسلاً إلى أنبيائه، كاختيار جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من بين عموم الملائكة ليكون رسولاً إلى المرسلين بالوحي، ويختار من الناس رسلاً لتبليغ رسالاته إلى الخلق، كاختيار عددٍ من الرسل الذين اصطفاهم من أقوامهم وأرسلهم إليهم، وفي هذا ردٌّ على اعتراض كفار قريش على إرسال

(1) ينظر: الإعجاز العلمي، زغلول النجار: (ص:137).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 134).

محمد ﷺ دون غيره إليهم، فالاختيار للرسل حقٌّ لله تعالى وليس إلى الخلق، **وذيّل الآية باسميه**: "السميع البصير"، تعليلاً للاصطفاء؛ لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء[1]، وفيها معنى التهديد والوعيد للمشركين؛ لأنهم كانوا يطعنون في صدق رسالة النبي ﷺ إليهم، فقد سمع الله ما قالوا له وأبصر أحوالهم وسيجازيهم على ذلك يوم القيامة، ثم أخبر عن إحاطة علمه بالخلق، **وفي معنى**: "ما بين أيديهم وما خلفهم"، أقوال[2]، كلها متقاربة لا تعارض بينها، فالله يعلم ما يظهره الخلق جميعًا وما يخفونه، ويعلم ما مضى من أحوالهم وما سيأتي منها، ويعلم ما كان في الكون قبل أن يخلقهم وما سيكون فيه بعد أن يفنيهم، ويعلم أمر آخرتهم ويعلم أمر دنياهم، وتقديم المجرور لإفادة الحصر، فإلى الله لا إلى غيره ترجع أمور الخلق[3]، فكل شؤون الخلق راجعة إلى الله إيجاداً وتدبيراً، وفصلاً وقضاءً في الآخرة، فهو الذي يحكم بينهم ويجازي كل إنسان بما يستحق.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾، ثم نادى الله المؤمنين خاصة، وأمرهم بالمحافظة على الصلاة المفروضة خصوصاً؛ لأنها عمود الدين، وعبّر عنها بالركوع والسجود، لأنهما أشرف أركانها، وأمرهم بالاستمرار في عبادة الله

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 344).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 41).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (17/ 345).

عموماً وفعل باقي الفرائض والواجبات الأخرى، فالعبادة اسمٌ جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وبهذا التعريف الشامل لها يدخل فيها كل أمور الدين والدنيا من كل عملٍ يُحبه الله ويرضاه، ويخلص فيه العبد نيته لله، فمن زرع أو صنع أو باع أو اشترى بنية إعفاف نفسه ومنفعة المسلمين فهو في عبادة، ثم أمرهم الله بفعل الخير مطلقاً، وهو اسم يشمل كل ما فيه خير للخلق، من الإحسان إليهم بالصدقة والصلة وحسن المعاملة والكلمة الطيبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق، ومن أعظم أنواع الخير الذي تقدمه للناس هو دعوتهم إلى الله، فهي سبب لإنقاذهم من جهنم، ودخولهم إلى الجنة، وتخيّل الخير الذي تفعله في شخص كان كافراً فأسلم بسبب دعوتك له، أو كان قاطعاً للصلاة فصلّى بسبب دعوتك له، أو كان عاقاً لوالديه فأصبح باراً بهما بسبب دعوتك له، ونحوهم من أصناف المحتاجين إلى الدعوة لإصلاح أحوالهم، وتخيّل لو أن الناس أخذوا بمبدأ فعل الخير وصار عادة لهم، كيف ستعيش البشرية ؟!، فأغلب الناس اليوم شغلهم الشاغل هو فعل الشر، وأذية الخلق، ولذلك تعيش البشرية اليوم في وبال وشقاء بسبب ذلك، فمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة؛ فعليه بهذه الأعمال كلها، فيحقق الإيمان الصادق في نفسه، ويحافظ على الصلاة وسائر الفرائض والواجبات، ويفعل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، ويمارس فعل الخير وتقديمه للخلق، والفلاح هو الفوز والنجاح المطلق في الدنيا والآخرة، فمن يعاني من الفشل في حياته فربما عنده تقصير في بعض هذه الأمور، فعليه أن

يسعى في إصلاحها بصدق، وسيجد ثمار ذلك نجاحًا في سائر أموره.

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾، ثم أمر الله المؤمنين أن يُجاهدوا في سبيل الله جهاداً خالصًا، وهو الجهاد من أجل الله ونُصرة دين الله، لا رياء ولا سمعة، ولا من أجل منصب، ولا غنيمة، ولا مصلحة شخصية، ويدخل في ذلك جهاد النفس والشيطان في فعل الطاعات وترك المحرمات بإخلاص، واستفراغ الطاقة في ذلك كله، وحق جهاده: هو الجهاد الذي لا يشوبه تقصير، وأضاف الجهاد إليه ليبيّن بذلك فضله واختصاصه بالله[(1)]، **وعلّل أمره لهم بالجهاد** بأن الله اختارهم وفضّلهم على غيرهم من الأمم وجعلهم من أمة محمد ﷺ، خاتمة الأمم وأفضلها، **كما قال:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:110]، **وفي الحديث:** **"إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى"[(2)].

ومن نعم الله على هذه الأمة أن الله لم يضيق عليها في دينها، بل رفع عنها كل مشقة وعسر، فدين الإسلام دين السهولة واليُسر، فإذا وُجدت المشقة في شيء من أحكام الدين وُجد معها التيسير، بل صارت هذه **قاعدة عظيمة من القواعد**

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1160).

(2) مسند أحمد: (33/ 219)، برقم: (20015)، وسنن الترمذي: (5/ 76)، برقم: (3001)، وإسناده حسن.

الأصولية العامة: "المشقة تجلب التيسير"، فالمريض إذا شق عليه الصوم أفطر وقضى بعد شفائه، والمرأة الحامل إذا شق عليها الصوم جاز لها الفطر وتقضي بعد ولادتها، **وفي الحديث:** "**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فجالسًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**"[(1)]، كل ذلك لدفع المشقة، والشريعة في أحكامها كلها مبنية على التيسير، **وفي الحديث:** "**إن هذا الدين يُسر، ولا يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه**"[(2)]، بخلاف ما كانت عليه شرائع الأمم السابقة من مشقة وعنت، فالزموا ملة أبيكم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[(3)]، فهي الحنيفية السمحة، وكانت مائلة عن الشرك إلى التوحيد، سهلة ميسرة في تشريعاتها، ووصف إبراهيم بأنه أبٌ لهم؛ لأن محمداً ﷺ من ذرية ولده إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأمة الرسول في حكم أولاده[(4)]، **وفي الحديث:** "**إنما أنا لكم مثل الوالد**"[(5)]، وقد سماكم الله المسلمين في الكتب السماوية السابقة من قبل بعثة محمد ﷺ، وسماكم بهذا الاسم في القرآن الكريم[(6)]، وكفى بهذا الاسم شرفًا، يغني عن غيره من الأسماء المستحدثة التي فرّقت الأمة إلى شيع وأحزاب وطوائف، وكل طائفة اتخذت لها اسمًا خاصًا بها توالي وتعادي عليه، **كما قال:** ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم:32]،

---

(1) صحيح البخاري: (2/ 48)، برقم: (1117).

(2) سنن النسائي: (8/ 121)، برقم: (5034)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 691).

(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 457).

(5) مسند أحمد: (12/ 326)، برقم: (7368) وسنن الدارمي: (1/ 533)، برقم: (701)، وإسناده حسن.

(6) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 456).

فضعف حال الأمة بسبب هذا التفرق والاختلاف، وذهب عنها النصر والتمكين، وحين تجتمع الأمة على الاسم الذي سماها الله به بصدق سيأتيها النصر بإذن الله، **كما في حديث انتصار الأمة على اليهود في آخر الزمان:** **"لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود"**[1]، فانتهت المسميات كلها وبقي اسم "المسلم"، فاستحق الكرامات بنطق الشجر والحجر باسمه، ومناصرته على عدوه!، واللام للتعليل، **أي:** ليشهد الرسول أنه بلغكم دين الله وشرعه، في حجة الوداع قام النبي ﷺ خطيباً في الناس، **ثم قال لهم:** **"اللهم هل بلّغت"**، ثلاث مرات، وهم يقولون: نعم، فقال: **"اللهم فاشهد"**[2]، وتكون أمة محمد ﷺ شاهدة على الأمم السابقة بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم، وذلك حين تنكر الأمم يوم القيامة وتجحد رسلها، **كما جاء في الحديث:** "يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوحٍ: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلّغ"[3]، وشهادتهم تلك مبنية على ما ثبت عندهم في القرآن الكريم من قصص الأنبياء مع أقوامهم، فشهدوا بعلم على التبليغ وصدق الرسل فيما قالوه، وإذا كانت الأمة الإسلامية لها هذه المكانة،

(1) صحيح مسلم: (4/ 2239)، برقم: (2922).
(2) صحيح البخاري (2/ 176)، برقم: (1741).
(3) صحيح البخاري: (4/ 134)، برقم: (3339).

فعلى المؤمنين مقابلة هذه النعمة الجليلة بشكرها بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وبخشوع وخضوع لله، وإيتاء الزكاة طيبة بها نفوسهم، والاعتصام بالله، وهو كمال التوكل عليه، وتفويض الأمور كلها إليه، والثقة به والالتجاء إليه، فهو سبحانه مالككم ومتولي أموركم وناصركم على عدوكم، وهو نعم الولي لمن تولاه، ونعم النصير لمن استنصر به سبحانه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية ضرب الأمثال لتتضح بها المعاني الغامضة، وهي وسيلة من وسائل التعليم والتربية.

2- بيان عجز الأصنام والأوثان والآلهة التي تُعبد من دون الله، لعجزها عن خلق أضعف مخلوق.

3- بيان أن الذباب إذا أخذ شيئًا من الطعام إلى فمه؛ فإنه لا يبقى على صفته، بل يتغير بسرعة.

4- بيان أن الأصنام أحط رتبة وأخس منزلة من الذباب الضعيف المستقذر عند الناس.

5- بيان جهل الكفار بعظمة الله، وعدم تقديرهم له حق قدره، فلو قدّروه حق قدره لما كفروا به.

6- بيان أن اختيار الرسل حق لله تعالى وليس إلى الخلق منه شيء.

7- بيان أن أهم أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة؛ هو فعل الطاعات والقربات والابتعاد عن المحرمات.

8- بيان أن من نعم الله على هذه الأمة أنه لم يضيّق عليها في دينها، بل رفع عنها كل مشقة.

9- بيان أن ضعف الأمة بسبب تفرّقها إلى شيع وطوائف، وأنها متى اجتمعت على الاسم الذي سمّاها الله به بصدق؛ فسيأتيها النصر والتمكين.

10- بيان مكانة هذه الأمة عند الله، وأنها أفضل الأمم، والشاهدة عليها يوم القيامة.

تفسير جزء المؤمنون

(18)

تفسير سورة المؤمنون

تفسير المقطع الأول من سورة المؤمنون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ
مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ١١ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ
مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ
عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ
إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾.

شخصية السورة:

سورة المؤمنون؛ سورةٌ مكية[1]، **والمقصد العام للسورة هو**: بيان صفات

(1) تفسير ابن كثير: (5/ 359).

المؤمنين المستحقين للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، **وقد ورد في فضل أول السورة** من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ: كان إذا نزل عليه الوحي سُمع حوله دوي كدوي النحل، وأن النبي ﷺ رفع يديه فقال: **"اللهم زِدْنا ولا تُنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وآثِرنا ولا تُؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا"**، **ثم قال: "قد نزلت عليّ عشرُ آيات من عمل بهن فهو من أهل الجنة"**، ثم تلى العشر الآيات الأولى من السورة[1].

وافتُتحت السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، قد تفيد التحقيق، **أي:** تحقق الفلاح والفوز لمن اتصفوا بالإيمان وكانوا صادقين في إيمانهم، والإيمان هو التصديق الجازم بالقلب والإقرار والإذعان والامتثال لأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعل الإيمان شرطًا للفلاح في الدنيا والآخرة، والإيمان يشمل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشره، وهذه أركان الإيمان الستة، ويلحق بها مُقتضيات الإيمان الأخرى، ثم ذكر باقي صفاتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾، في هنا ظرفية، **أي:** أثناء تأديتهم للصلاة يكونون خاضعين متذللين، ساكنة قلوبهم ونفوسهم وجوارحهم، قد فرغت قلوبُهم من الشواغل، وذكر الخشوع؛ لأنه لب الصلاة، والركن المُهم فيها، ولا فائدة للعبد من صلاة بدون خشوع، فما يكتب للعبد من أجر الصلاة إنما هو بحسب نسبة خشوعه فيها، **كما في الحديث: "إن الرجل**

(1) مسند أحمد: (1/ 350) برقم: (223)، وسنن الترمذي: (5/ 179) برقم: (3173)، وشرح السنة للبغوي: (5/ 177) برقم: (1376) وحسنه، وضعفه غيره.

لينصرف وما كُتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها"[(1)]، فمن أراد أن يخشع في صلاته فليفرّغ قلبَه من الشواغل قبل أن يدخل في الصلاة، وقد شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عدداً من الأعمال قبل الصلاة تعين على الخشوع، من أهمها: الوضوء الكامل، والمجيء إلى الصلاة مُبكراً، وسماع الأذان وترديد ما يقول المؤذن، واستغلال وقت ما بين الأذان والإقامة بالدعاء والذكر، والمحافظة على النوافل القبلية للصلاة، ونحوها من الأعمال الصالحة التي تهيء النفس للصلاة بخشوع، فإذا دخل العبد في الصلاة استحضر وقوفه بين يدي الله، وتدبر ما يقول أو يسمع من القراءة، وأحضر قلبه وعقله فيها، فمن فعل ذلك؛ فسيجد ثمرة ذلك كله الخشوع في صلاته.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾، **واللغو:** هو الكلام الذي لا فائدة منه، فهم مبتعدون عنه، ومن باب أولى مبتعدون عن كل باطل من قولٍ أو فعل أو تصرف، فالمؤمن حريص على ما ينفعه من خيري الدنيا والآخرة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾، **الزكاة في اللغة:** التطهير والنمو، **والمقصود بها هنا** مُطلق الزكاة، وهي كل ما يُزكي نفوسهم وقلوبهم وأموالهم، ويدخل فيها صدقة التطوع؛ لأن السورة مكية، والزكاة الواجبة ما فُرضت إلا في المدينة في السنة الثانية من الهجرة، فهم مُؤدون لها، وذلك بإعطائها من يستحقها من الخلق، بطيب نفس ورضى منهم.

---

(1) مسند أحمد: (31/ 189) برقم: (18894)، وسنن أبي داود: (2/ 97) برقم: (796)، وإسناده صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾، حفظُ الفرج يشمل إبعادَه عن الحرام، كالزنا واللواط والسحاق والاستمناء باليد ونحوه، وحفظه من أن ينكشف فيراه من لا يجوز له رؤيته، **وفي الحديث**: **"احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك"**[1]، واستثنى من حفظ الفرج الاستمتاع بين الزوجين، واستمتاع الرجل بإمائه اللاتي يملكُهن، فهذا مباح لهم، فلا لوم عليهم في ذلك؛ لأن مَن فعل المباح لا يُلام عليه، ولا يجوز أن تستمتع المرأة بعبيدها الذين تملكُهم بالإجماع[2]، وقد جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد نكحت عبدها فانتهرها، وهمّ أن يرجمها وقال: "لا يحل لك مسلم بعده"[3]، فعاقبها بنقيض قصدِها، ومنعها من الزواج بعد ذلك من عموم المسلمين، وجاءت امرأة من العرب بغلام لها رومي إلى عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالت: إني استسررته فمنعني بنو عمي، وإنما أنا بمنزلة الرجل يكون له الوليدة فيطؤها، فانْهَ عني بني عمي، فقال لها عمر: "أتزوجت قبله؟" قالت: نعم. قال: "أما والله، لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى بلد غير بلدها"[4]، فمن

---

(1) مسند أحمد: (33/ 235) برقم: (20034)، وسنن أبي داود: (4/ 40) برقم: (4017)، وسنن الترمذي: (4/ 394) برقم: (2769)، وإسناده حسن.

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (12/ 107).

(3) مصنف عبد الرزاق الصنعاني: (7/ 209) برقم: (12817).

(4) المصدر السابق: (7/ 210) برقم: (12821).

طلب إخراج الشهوة بغير هذين السببين وهما الزواج وملك اليمين للرجل، فهو مُتعدٍ لأحكام الله ومتجاوز لحدوده، وفي الآية دليل على تحريم الاستمناء باليد، ومن أجازه من العلماء فهو على سبيل الاضطرار لمن خشي أن يقع في الزنا أو يُخرج شهوته بيده، فهو من باب ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاها، وليس على أنه مُباح.

ثم قال الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾، أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، والأمانة اسمٌ يشمل كل الأمانات، كأمانة التكاليف، وأمانة الودائع، وأمانة الأسرار، ونحوها، والعهد هي العقود كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة:1]، و"راعون" من الرعاية وهي المحافظة عليها وعدم تضييعها.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، بدأ صفاتهم بالصلاة وختمها بالصلاة، لأهمية الصلاة ومكانتها في هذا الدين وأثرها على تصرفات المسلم، ففي الأولى ذكر أداء الصلاة بخشوع، وفي الأخيرة ذكر المحافظة على الصلاة في أول أوقاتها، فالمطلوب من العبد المحافظة على كل الصلوات بأول أوقاتها وبخشوعها لتحقق الغاية من مشروعيتها.

ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾، فمن اتصف بتلك الصفات السبع السابقة، فهو من الحائزين على دخول جنة الفردوس الملازمين للإقامة فيها أبداً، والوارث هو الذي يرثُ غيره، وذلك لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما خلق الجنة خلقها لكل الخلق، فمن آمَن أخذ منزله، ومن كفر

ورث منزلَه المؤمن، فمنازل الكفار في الجنة يرثها المؤمنون، **والفردوس هو:** البستان[1]، وهو اسمٌ من أسماء الجنة، وهو أعلى درجة فيها، **كما في الحديث: "إذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وفوقها عرشُ الرحمن"**[2].

ثم ذكر بعدها سبع مراحل لخلق الإنسان، فقال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾، **والإنسان هو آدم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد خلقه الله من قبضة من التراب استُلت من جميع تراب الأرض، **وفي الحديث: "إن الله** عَزَّوَجَلَّ **خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك"**[3]، فصفاتُهم الموجودة في خلْقتِهم هي جزء من صفات التربة التي خلقوا منها، فالإنسان مُهيّأ للعيش في الحر والبرد، وفي الجبل والساحل، ولا يُسمى التراب طيناً إلا إذا مُزج بالماء.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾، **عبّر بـ (ثم)**؛ لأن الوقت طويل بين خلق آدم ثم زواجِه من حواء ومعاشرته لها وحملها بالجنين، **وهذه هي المرحلة الثانية** لخلق الإنسان، وهي نطفة المني التي تخرج من صلب الرجل فيقذفها في رحم المرأة، وهو القرار المكين لها، حيث يتمكن الحيوان المنوي من أن يصل إلى المكان ويستقر فيه بعد أن يلقح بويضة المرأة ويُحفظ في الرحم

(1) ينظر: معاني القرآن: (2/ 231).

(2) صحيح البخاري: (4/ 16) برقم: (2790).

(3) مسند أحمد: (32/ 353) برقم: (19582)، وسنن أبي داود: (4/ 222) برقم: (4693)، وإسناده صحيح.

من حين تعلّق بها إلى الولادة.

وقولــــه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾، وهذه المرحلة الثالثة لخلق الإنسان حين تتحول النطفة من اللون الأبيض إلى الأحمر لون الدم، وتلتصق بجدار الرحم وتُسمى علقة؛ لأنها تعلّقت بجدار الرحم، وفي المرحلة الرابعة تتحول العلقة إلى مضغة، وهي قطعة اللحم المتماسكة التي تكون بمقدار اللقمة التي يمضغُها الإنسان، وفي المرحلة الخامسة تتشكل الأعضاء بالهيكل العظمي للإنسان، وفي المرحلة السادسة يكسو الله هذا الهيكل العظمي للإنسان باللحم والعصب، وفي المرحلة السابعة ينفخ فيه الروح، فإذا نُفخت فيه الروح صار خلقاً آخر، أي: تحول من جماد إلى حيوانٍ، وفي الحديث: **"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح"**(1)، وبعد اكتمال مدة الحمل يولد مكتملَ الخلقة والصورة الحسنة له، فتعاظَم الله وكثر خيرُه وبركتُه، واستحق التعظيم والثناء، فهو أكمل الخالقين، وأتقن الصانعين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصيغة التفضيل هنا لا تعني أن هناك خالقاً غير الله، بل المقصود بها مطلق الاتصاف.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾، بعد أن حدّثنا عن طبيعة خلق الإنسان، لم يُحدثنا عن حياتِه ومعاشه؛ لأن الدنيا

(1) صحيح مسلم: (4/ 2036) برقم: (2643).

قليلة لا تذكر، فأهملها احتقاراً لها، بل ربط الحديث بالموت والنشور والحياة الأخرى العظيمة فهي أهم من الحياة الدنيا، فبعد خلقكم بهذه الأطوار المختلفة؛ ستموتون بعد فترة من الزمن عند انقضاء آجالكم وتدفنون وتبقون في دار البرزخ ما شاء الله من الوقت، ثم إنكم تعودون يوم القيامة أحياءً وتُنشرون من قبوركم، وتحشرون إلى الله، **وعبّر بـ(ثم)**، لبيان تراخي الوقت بين كل مرحلة وأخرى.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.

2- بيان أهمية الصلاة ومكانتها في هذا الدين، وأثرها على تصرفات المسلم.

3- بيان مراحل خلق الإنسان، حتى يعرف الإنسان قدره ويترك التكبر والفخر على عباد الله.

4- أن نهاية الإنسان هي الموت ثم البعث، فليستعد لذلك من الآن.

تفسير المقطع الثاني من سورة المؤمنون

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن
نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ
بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ
كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ
فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا
هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ
ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي
بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ
ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ
وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾،

سبق في الآيات السابقة بيان المراحل السبع التي يمر بها الإنسان في خِلقته،

وعطف عليها بيان خلق السموات السبع، واللام للتوكيد وقد للتحقيق، والطرائق جمعُ طريقة، والمقصود بها طبقات السموات، وسُميت طرائق، من طارقت الشيء إذا جعلت بعضه فوق بعض[1]، وجعلناها فوقكم حتى تروها وتنظروا في عظمتها، هذه التفاتة لبيان لُطف الله تعالى بالخلق، والواو للحال، أي: وعند خلق الله هذه السموات العظيمة الكبيرة لم يغفل عن ما فيه مصالح الخلق وما ينفعُهم، ولم يشغله خلقُ السموات العظام عن مصالح الخلق، والإحاطة بهم، بل خلقهم ويعلم حالهم ومصالحهم فهو محيطٌ بهم، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى له في كل خلقٍ حكمة، وفيها يظهر لطفُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقِه.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، الواو عاطفة لجملة على جملة، وأنزل الله من السماء ماءً، وهو ماء المطر، بقَدَرٍ أي: بما يكفي الخلق، سواء من حيث الكمية أو من حيث الزمان، وسلكه في الأرض، أي: أدخله في باطنها، فتتكوّن منه العيون والأنهار، وينتفع به الناس وقت حاجتهم إليه، ومع هذه النعمة العظيمة التي منحها الله للخلق، فإن الله قادر على أن يذهبها عنهم بأي وسيلة، فلا يُمنعه من ذلك شيء، وفي هذا تهديد لهم ولفت انتباههم إلى كيفية الاستفادة من هذه النعمة واستخدامها في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثمار إنزال هذا الماء فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾، أي: أخرجنا لكم به البساتين

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 565).

كثيفة الأشجار، واللام للاختصاص وتدل على الامتنان بالنعمة، وهذه البساتين كثيرة ومتنوعة، منها: النخيل والأعناب، وكانت هذه هي أغلب الأشجار التي في جزيرة العرب ويعرفها العرب آنذاك، فخصها بالذكر لمكانتها عندهم، ولكونها فاكهة وقوتًا، فإذا أكلت رطبة فهي فاكهة، فإذا يبست صارت قوتًا مثل غيرها من أنواع البر والشعير، ولذلك تلحق بما يُسمى الأنواع الربوية التي تُكال وتُوزن وتُقتات وفيها يقع الربا، ثم أشار إلى باقي أنواع الفواكه الأخرى التي تنبت في هذه البساتين فيتفكّهون بها عند قطفها والأكل منها طازجة خضراء، أو يخزنونها وتصير قوتًا لهم يأكلون منها على مدار العام.

ثم قال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠﴾، **أي:** وأنبتنا لهم شجرة، وهي شجرة الزيتون التي موطنها الأصلي جبل طور سيناء الذي كلّم الله عليه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومنه نُقلت إلى غيره من الأماكن، وأُضيف الجبل إلى الوادي الذي هو سيْناء، ووصف الله هذه الشجرة بأنها تُثمر ثمرةً يُستخرج منها الدهن، وهو زيت الزيتون، **وذكر الله له هنا فائدتين، الأولى:** أنه يُستخدم كدُهن يُدهن به البشرة والشعر، **والثانية:** أنه يستخدم صبغًا للآكلين، **والصِّبغ** ما يصطبغ به من الأُدم، وأصل الصبغ ما يلوّن به الثوب، وشبّه الإدام به؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به[1].

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾، الخطاب للناس جميعًا، **والأنعام هي:**

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 567).

الإبل، والبقر، والضأن والماعز، والعِبرة هي الحجة والبرهان التي تستدلون بها على صدق وإثبات أُلوهية الله واستحقاقه للعبادة.

وقوله: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، أي: نسقيكم من اللبن المتكون في بطونها المنصب إلى ضروعها، وهذه النعمة موجودة في الإبل والبقر والغنم، فالجميع يخرج منه هذا المشروب النفيس من بين فرثٍ ودم لبناً سائغاً خالصاً للشاربين، فهو أعظم عبرة للمعتبرين.

وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾، أي: ولكم في هذه الأنعام، وأطلق المنافع ووصفها بالكثرة لتعددها، مثل: اللحم، والصوف، والوبر، والجبن، والسمن، والزبدة، ونحوها، وأباح لكم أكلها، بخلاف باقي الحيوانات التي يحرم الأكل منها.

وقوله: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾، الضمير يعود على الإبل فقط بناءً على السياق، والمعروف أن الإنسان لا يركب ولا يحمل بضاعة إلا على الإبل فقط، دون سائر باقي الأنعام، وفي الحديث: **"إن رجلاً ركب بقرة، فقالت: إنّا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث"**[1]، والفلك هي السفن التي تجري في البحر، فذكر وسيلة لحملهم في البر وأخرى لحملهم في البحر، تتميماً للنعمة وتكميلاً للمنّة، وذكر الفُلك هنا تمهيداً لذكر قصة نوح وسفينته بعدها.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ

(1) صحيح البخاري: (4/ 174) برقم: (3471).

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾، نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هو أول الأنبياء والرسل إلى الأرض، ولم يُسم آدم أول الأنبياء مع أنه نبي وهو الأول؛ لأن الله خلقه بيده على الفطرة والتوحيد، فكان بالخِلقة نبيًا مُوحداً يُوحى إليه، وأولاده كانوا على الفطرة مثله، **فعن** ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة"[1] فبعث الله فيهم نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإعادتهم إلى التوحيد وعبادة الله وعدم الإشراك به، وهذه هي مهمة الرسل كلهم.

وذكرهم بتقوى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، **فكان الجواب**: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾، **الملأ**، هم كبار القوم من السادة والأشراف الذين بيدهم الجاه والسلطان والمال، وهم أول من يرفض دعوة الرسل حفاظًا على مصالحهم الشخصية، وقد كفروا بدعوة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحذروا عامة الناس من قومه من تصديقه واتباعه، بشبهة أنه بشر مثلكم، والدافع له لادعاء النبوة والرسالة أنه يريد أن يصير له الفضل عليكم، فيكون متبوعًا، وأنتم له تبع[2]، **وقال الملأ** هذا القول قياسًا على أنفسهم، ولذا **قيل**: كل إناء بما فيه ينضحُ، فشغلُهم الشاغل هو التسلط والتكبر على عباد الله، فظنوا نوحًا مثلهم، فوصفوه بأنه بشر، ومع بشريته فقد أراد بذكائه ومكره أن يدّعي

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 480) برقم: (3654)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: تفسير الطبري:(18/ 16).

النبوة والرسالة من أجل أن يصير أفضلهم، ثم علّلوا بطلان رسالته بأن الله لو شاء لأرسل رسلاً من الملائكة، فاحتجوا بمشيئة الله في غير محلها، وما المانع أن يُرسل الله رسولاً من البشر، بل مشيئته وحكمتُه تقتضي أن يكون الرسول من البشر، فالرسالة مِنّة وفضل، **كما قال سبحانه:** ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:124]، ثم أضافوا شبهة باطلة أخرى للرفض؛ وهي عدم سماعهم ببعثة رسول في آبائهم الأولين، فعدم السماع لا يدل على عدم الوجود، فقد كان آدم نبيًا وهو من البشر.

وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾، ثم نقضوا دعواهم السابقة باتهامه بالجنون، سبحان الله!، **وكما قيل:** حبل الكذب قصير، فأنتم قبل قليل تقولون: إن هذا رجل ذكي مُخادع يريد أن يتفضل على الناس بادعاء النبوة والرسالة، وهذه الفِكرة لا تأتي إلا من عاقل مُتمكن، ولقناعتهم ببطلان هذه التهمة؛ لم يُطلقوا عليه الجنون المُطلق، ثم اتخذوا قرارهم بالتوقف عن الحوار والجدال معه، وانتظار هلاكه خلال وقت قريب ونرتاح منه، فمكث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا من الدعوة والبلاغ.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾، **أي:** ولما وصل معهم إلى طريق مسدود ولم يؤمنوا له، وأوحى الله إليه، **بقوله:** ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾[هود:36]، وخشي على نفسه الأذية منهم، دعا ربه بالنصر عليهم، **كما قال:** ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾[القمر:10]، وهذا الدعاء منه جاء بعد بذل وتضحية في الدعوة والبلاغ بالأساليب المتعددة لدعوتهم: ليلاً ونهاراً، سراً

وإعلانًا، ونوّع لهم الأساليب، وصبر على أذيتهم إلى أن أخبره الله بأنه لا مجال للإيمان بعد هذه المرحلة، وذكر العلة لذلك وهو تكذيبهم لرسالتِك.

وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن طريق الوحي إليه، أن يأخذ بأسباب النجاة المادية له ولمن آمن معه، وهو صناعة السفينة، فأذن له بأن يصنعها وفهّمه كيف يصنعها، لأن صناعة السفن تحتاج إلى خبرة في صناعتها، ونوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن من أهل سواحل البحار الذين عندهم خبرة في صناعة القوارب والسفن، بل كان في منطقة لا سواحل بحرية فيها، ولذلك كان قومُه يستغربون منه هذا العمل بل ويستهزئون به، **كما قال**: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود:38]، وكانت صناعته لها برعاية الله وعنايته وتسديده وتوفيقه بالوحي، فلما انتهى من صناعتها أعطاه الله علامة لنزول العذاب بقومه من أجل أن يستعد لركوبها عند مجيء الأمر القدري بإغراق القوم وإهلاكهم، **وكانت العلامة هي**: نبع الماء من كل مكانٍ في الأرض، حتى أنه ينبُع من المكان الذي يُخبز فيه الخُبز، وهو التنور، وإنما جعل هذا علامةً؛ لأن الناس في عرفهم لا يضعون التنور إلا في موضعٍ صلبٍ يابسٍ، مرتفعٍ، بعيدٍ عن مواضع الماء، فلما نبع الماء من موضع التنور؛ أمر الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يحمل ويدخل إلى السفينة من كلٍ زوجين اثنين من المخلوقات المأمور بحملها، حتى لا تذهب أصول المخلوقات بالغرق، وأمره أن يدخل أهله إلى السفينة،

واستثنى من أهله من سبق عليه القول بالهلاك، وهم زوجتُه وابنه، ونهاه عن الشفاعة لكل من كفر بالنجاة من الغرق، **أي:** لا تنظُر إلى الموقف وتأخذك الشفقة والرحمة عليهم فتطلب مني عدم إغراقهم، فقد حق عليهم الهلاك بالغرق بسبب ظلمهم، وفي ذلك إشارة إلى طبيعة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ففيهم شفقة ورحمة بأممهم.

ثم قال الله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، إذا ركبتَ أنت ومَن أُمرتَ بإدخالهم إلى السفينة، وعلَت بكم فوق الماء، فاحمد اللهَ تعالى، وأثنِ عليه أنتَ ومَن معك من المؤمنين، على النجاة من الهلاك، والإنقاذ من ظلم الكافرين، ثم أمره أن يدعو الله أن يُنزله (مُنزلاً) بالضم، وهو الإنزال، **وفي قراءة:** ﴿مَنزَلاً﴾ بالفتح(1)، وهو المكان، فطلب البركة في الموضع الذي ينزل فيه، والبركة في كيفية النزول؛ ليكون نزولاً مُباركًا، ومكانًا مباركًا، لا مشقة فيهما ولا تعب.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾، وفي إهلاك هؤلاء الكفار بالغرق ونجاة نوح ومن معه من المؤمنين علامة عظيمة، ودليل وبرهان على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظمته، وإنْ المخففة بمعنى ما، واللام لام الفارقة(2) بمعنى إلا، **أي:** وما كنا إلا مختبرين للناس بالإيمان والكفر وبالحسنة والسيئة،

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 28).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 185).

والمعنى: ما فعلناه بقوم نوح هو من الابتلاء لهم بإرسال الرسل، فمن أطاعهم نجا ومن عصاهم هلك.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الله تعالى له في كل خلقٍ حكمة، وفيها يظهر لطفُ الله بخلقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

2- بيان كيفية الاستفادة من النعم وضرورة استخدمها في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

3- أن كل إناء بما فيه ينضح، وأن حبل الكذب قصير.

4- مشروعية الحمد والثناء على الله بعد كل نعمة.

5- بيان سنة الابتلاء للخلق بالإيمان والكفر.

تفسير المقطع الثالث من سورة المؤمنون

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: أنشأنا من بعد قوم نوح أمة أخرى عاشت قرونًا بعده، وهذه الأمة لم يذكر اسم رسولها هنا، والجمهور[1] على أنهم قوم

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 261).

هود، **وقيل**[1]: إنهم قومُ صالح، لذكرِ هلاكهم بالصيحة، **والراجح** أنهم قومُ هود؛ لأنهم في الترتيب الزمني بعد نوح، **كما في قوله**: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾[الأعراف:69]، **وأن المقصود بالصيحة** التي خُتمت بها القصة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾[المؤمنون: 41]، هي الهَلَكة، وأن جبريل صاح بهم أثناء مُرور الريح عليهم فهلكوا[2]، وأن الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، هي خلاصة ولُب جميع الرسالات، فما بعث الله من رسول إلا دعا قومه إلى ذلك، ووعظهم بالتقوى، وهي الإيمان بالله ومراقبته والخوف منه، والابتعاد عن الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾، **والملأ سبق معنا**، أنهم كبار القوم وأصحاب الجاه والسلطان **وذكرهم بثلاث صفات**: الكفر بالله، والتكذيب بلقاء الآخرة، فقد كانوا ينكرون البعث والحساب، والانغماس في حب الدنيا وشهواتها، فقد أنعم الله عليهم بنعمٍ كثيرة وبسط لهم الرزق، حتى بَطِرُوا وجحدوا بالله، وكذبوا رسوله، بشبهة أنه من البشر، ولا فرق بينهم وبينه، فهو يأكل من نوع الأكل الذي يأكلون منه ويشرب من نوع الشراب الذي يشربون منه، فأي مِيزة له عليهم بأن

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 28).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (23/ 276).

يكون رسولاً مطاعـًا فيما يأمرهم به؟!، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك وهو أن طاعتهم لبشر مثلهم هو الخسارة بعينها، وهو إشارة إلى التسفيه لمن يؤمن بالله ويُطيع الرسُل، ولكن هذا يدل على انتكاس الفِطرة لديهم وفسادها، حتى تحول الحق لديها إلى باطل، والباطل إلى حق، والصواب أن من يُطع الرسول الذي أتى بالبينات، فهو المُفلح الفائز، ومن كذب به فهو الخاسر.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾، إن الذي يُبلغكم به هذا الرسول من حصول البعث والنشور للخلق يوم القيامة بعد أن أصبحوا تُرابـًا قد أرمت عظامُهم من كثرة البِلى؛ أنهم سيخرجون من قبورهم ويبعثون بين يدي الله للحساب، إن هذا الوعد مستبعد وقوعه وتحققه، **وهيهات اسمٌ فعل بمعنى:** بعُد بُعداً كبيراً، والغالب فيه التكرار، وكلما تكرر دل على زيادة الاستغراب، **والمعنى:** يُستبعد ويستحيل أن يتحقق ما وعدكم به من البعث والنشور والعودة والخروج من قبوركم بعد موتكم ومحاسبتكم بين يديه، وشبهتهم في ذلك هو ما اعتادوا عليه من طبيعة الحياة الدنيا التي يعيشون فيها، فمن مات منهم لا يرجع إليها مرة أخرى، حيث يموت الآباء ويحيا الأبناء، ويموتُ جيلٌ ويخلُفُه جيلٌ يحيا بعده، ثم أكّدوا على هذا المُعتقد الباطل لديهم بنفي حصول البعث لهم.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾، لما فرغوا من الطعن في صحة الحشر بنوا عليه الطعن في نبوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ،

واتهموه بالافتراء على الله وادعاء النبوة، بل وهو كاذبٌ في دعواه، وما نحن له بمصدقين، فلما سمع هود منهم هذه الأباطيل ولم يجد منهم إلا التكذيب والإصرار على الكفر، **دعا ربه سبحانه بما دعا به نوح** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **فقال:** ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، **أي:** انصرني عليهم بسبب تكذيبهم لي، وكفرهم بالله، فقال الله لهود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، انتظر زمنًا قليلاً وسيهلكهم الله، وسيندمون على ما وقع منهم من التكذيب ونزول العذاب بهم، وندمهم يكون عند رؤية مبدأ الاستئصال، ولا ينفعهم ندمهم بعد حلول العذاب، وليس المقصود به ندم التوبة، فإن الندم المصاحب للتوبة قبل نزول العذاب يقبله الله ويعفو به عن النادم، بل هذا ندم في غير وقته، فلا فائدة منه إلا مزيداً من التحسر والثبور لدى صاحبه.

وقولــــه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾، سبق أن فسّرنا الصيحة بصيحة جبريل بهم مع مرور الريح العاتية عليهم، أو أنها اسم لكل ما يُؤدي إلى الهلاك، بالحق، **أي:** بالعدل، فلم يكن هلاكُهم ظلمًا، وإنما كان هلاكُهم بسبب تكذيبِهم، وحُكم الله فيهم هو العدل بعينه الذي لا خلل فيه ولا خطأ، فصيّرهم كالغُثاء، وهو ما تبقّى من الحشائش والأعواد والبعَر ونحوها، مما يطفو فوق السيل؛ وهذا يدل على شدة الصيحة وقوتها، وأن الريح كانت عاتيةً، قد مزّقت أضلاعهم وأجسادهم، فتحوّلت إلى قطع مُتناثرة، ثم ختم الله قصتهم بالدعاء عليهم بالبعد من رحمته وجنته، جزاءً لظلمهم أنفسهم بالكفر بالله تعالى.

ثم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢﴾، ثم حرفُ عطفٍ للتراخي، والمقصود أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعد أن أهلك قوم هودٍ أنشأ من بعدهم أقواماً وأُمماً أخرى كقوم صالح وقوم لوط ومن بعدهم.

وقوله: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٤٣﴾، أي: لا تتقدم أمة من هذه الأمم المكذبة على أجلها، ولا أجلها يتقدم عليها، بل يتم ذلك وفق ما كتبه الله وقدّره في اللوح المحفوظ، سواءً في إنشاء الأمم وخلقها، أو في هلاكها وتدميرِها، مهما فعلت وسائل مختلفة للبقاء، فلا بد أن يأتيهم أجلهم المحتوم، فلا يتأخرون عنه ساعة ولا يتقدّمون.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٤٤﴾، ثم بعث الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الخلق عدداً كبيراً من الرسل المتعاقبين في البعثة، ومنه التواتر، وهو التتابع، كلما جاء أمة رسولها؛ كذبوا به وأعرضوا عن دعوته، فأتبع الله بعضهم بعضاً بالهلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم، وفي الآية بيان لاطّراد سنة الله تعالى في استئصال المكذبين لرسله، وصيّر أمرهم إلى أخبار وحكايات يتحدث عنها المتأخرون الذين أتوا بعدهم، ثم ختم الله قصتهم بالدعاء عليهم بالهلاك لهم بسبب عدم إيمانِهم، وفي هذا تحذيرٌ لمن يسمع خبرهم أن ينتبه فلا يسير بسيرتهم فيُهلكه الله كما أهلكهم.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، هي خلاصة ولُب جميع الرسالات.

2- خُطورة الترف على المجتمعات، وأنه سبب من أسباب التكذيب والغفلة عن الآخرة.

3- تهافت شبهة الكفار بتكذيبهم الرسل لأنهم من البشر.

4- أن دعاء الرسل على أقوامهم المكذبين مستجاب بعد أن يأذن الله لهم به.

5- رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق في إرسال الرسل المتتابعين إلى الأمم لدعوتهم إلى الحق.

تفسير المقطع الرابع من سورة المؤمنون

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ
﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟
مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠
رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى
غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل
لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ
﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ
وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾، ثم للترتيب والتراخي، فإرسال موسى كان بعد هلاك الأُمم

السابقة التي كذبت رسُلها، فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فطلب موسى من ربه أن يُرسل هارون أخاه معه، فاستجاب الله دعوته وجعل هارون رسولاً معه، وهارون أكبر سناً من موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فأرسلهما الله مصحوبين بالآيات التسع البينات وسلطان الحجة وقوة الدليل الذي منحه الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون، وهو حاكِم مِصر في زمن موسى، والملأ هم كبار القوم، وأصحاب الحل والعقد من قومِه، فاستكبروا عن التصديق برسالة موسى وهارون، والسين والتاء للتوكيد، أي تكبروا كبرياء شديدة، وكانوا قوماً قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم، فجمعوا بين الاستكبار والعلو في الأرض بالباطل، وكانت شبهتهم في التكذيب هي نفس شبهة من سبقهم من الأمم السابقة لهم، كيف نصدق برسول من جنس البشر مثلنا؟!، وهي شبهة باطلة، بل إن الحكمة تقتضي أن يُرسل الله الرسل من جنس البشر ليكونوا أُسوة وقدوة لهم، وأضافوا شبهة أخرى امتنعوا بسببها عن الإيمان برسالة موسى وهارون أنهما من قوم بني إسرائيل الذين كان فرعون وقومه يخضعونهم لخدمتهم، وفيه إشارة إلى ما كان يمارسه فرعون وقومه من الفخر والكِبر والاستعلاء على بني إسرائيل، **وقوله:** ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾، **أي:** فاستمروا في تكذيب موسى وهارون، فأهلكهم الله بالغرق في البحر وأنهى سلطانهم وقضى على كبرهم وفسادهم، وفي الآية تهديد وتعريض بقريش على تكذيبهم لرسولهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾، ثم أخبر الله عن منته على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وخص موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في

الطور، وكان هارون خليفته في قومه، وكان إعطاؤه التوراة بعد ملاقاتِه خلال أربعين ليلة، بعد هلاك فرعون وخروج موسى مع قومِه من مِصر إلى سيناء، وكانت الغاية من إنزال الكتاب هي حصول الهداية به لبني إسرائيل، فرسالة موسى موجهة إليهم، وإنما كان إرسالُه إلى فرعون لتسلطه عليهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾، ثم ذكر آيته العظمى في خلق عيسى، فهي معجزة دالة على صدق رسالته، وذَكَر أمه معه في هذه الإشادة؛ لتسفيه اليهود وبيان بطلان ما اتهموا به مريم من قول شنيع، والآية هي العلامة والحجة البينة الواضحة على القدرة الإلهية المطلقة، فقد خلقه الله من غيرِ أب، وأنطقه في المهد، ونحوها من المعجزات، وجعلهما يأويان إلى ربوة، وهي المكان المرتفع من الأرض، وكانت في بيت المقدس، حيث أوحى الله لمريم أن تنفرد بذلك المكان حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في منعزل من الناس حفظًا لعيسى من أذاهم، ووصف الربوة بأنها مُستقرة ومستوية وصالحة للعيش، وفيها ماءٌ عذب متجدد يجري، كما قال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم:24]، وهو النهر الصغير، تشرب منه وتغتسل، وفي ذلك إشارة إلى عناية الله ولطفه بعيسى وأمه.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، ثم أمر الله جميع الرسل بالأكل من الطيبات، والطيبات: ما ليس بحرام ولا مكروه، وأمرهم بالعمل الصالح، وهو الاستقامة على ما توجبه الشريعة، ويشمل مفهوم العمل الصالح العبادات المتعلقة بحق الله جَلَّ وَعَلَا، من صلاة

وصوم ونحوها، والقيام بحقوق الخلق، ويدخل فيه أيضـًا كـل مـا ينفـع البـشرية من أمور الدنيا العامة من زراعة وتجارة ونحوها بشرط النية الـصالحة في فعلهـا، وفي الآية إشارة إلى العلاقة بين الأكل من الطيب الحلال وبين العمـل الـصالح، فمن يأكل الحرام لا يُوفّق للعمل الصالح، أو يجده ثقيلاً على نفسه، وذلـك مـن ثمار أكل الحرام، بل إن دعاءه لا يستجاب، **كما في الحديث**: **"ثم ذكـر الرجـل يُطيل السفر أشعث أغبر ومطعمُه حرام وملبسه حرام وغُذيَ بالحرام، يرفـع يديـه يدعو يا رب يا رب، فأنى يُستجاب له"**[(1)]. كمـا أن أكـل الحـلال يـورث صـاحبه النشاط والهمـة العاليـة في الطاعـة، **وختـم الآيـة** ببيـان علـم الله المحـيط بكـل مـا يعملـه الرسـل والخلـق مـن خيـر أو شـر، فيكتبـه لهـم في صـحائف أعمـالهم ويحاسبهم عليه يوم القيامة.

وقولـــه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾، الخطـــاب للرسل، **والمعنى**: أن دين الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلـى عبادة الله وتوحيده فكلهم على دين الإسلام، وربكـم واحـد، هـو الله المستحق للعبادة، ثم أمرهم بتقواه باجتناب ما حرم وفعل ما أمر، ليقوا أنفسَهم من عذابه.

وقولــه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾، الــضمير يعود على أقوام الأنبياء الذين بعثوا إليهم، **أي**: كذبوا واختلفـوا وتفرقـوا في ديـن الله، **وزبر**: جمع زبور وهي الفرقة والطائفة[(2)]، فصاروا فرقـًا مختلفـة، كـل فرقـة

---

(1) صحيح مسلم: (2/ 703) برقم: (1015).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 420).

أخذت مذهبًا وطريقةً غير الأخرى، وظنت كل فرقة أنها صاحبة الحق، وفرحت بما عندها من الدين وأعجبت به، وهذا حال كثير من الفرق والمذاهب والنحل المخالفة للإسلام يُكفّر بعضهم بعضًا، وكلٌ يدّعي أنه على الحق، والحق منه بعيد.

وقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾، الخطاب للرسول، أي: اترك هؤلاء الذين كذبوك في جهلهم وغفلتهم عن الحق، وشبه الله سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه(1)، فليسوا بأهل للهداية، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل أجل موعده، فاتركهم حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر، فيعذبوا في النار، والآية خارجة مخرج التهديد لهم، وفيها إشارة إلى يوم بدر، فإن يوم بدر كان أول أيام الله في تأديب كفار قريش، فقد قتُل منهم سبعون رجلاً، وأُلقوا في قليب بدر.

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾، أي: لا تظنوا أيها الكفار المعرضون عن الله، أن ما أعطاكم الله من الأموال والبنين ونحوها من النعم؛ هو دليل على حب الله لكم وأنكم على خير وحق فتستمروا فيه، كلا، لا نفعل ذلك، بل هو نوعٌ من الابتلاء والاستدراج لكم دون أن تشعروا بذلك، كما قال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القلم:44]، ليزدادوا إثمًا، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وهذا دليل على شدة غفلتهم وقلة علمهم.

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (3/ 576).

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾، ثم انتقل للحديث عن صفات عباد الله المؤمنين، وهذه طريقةٌ معهودةٌ في أساليب القرآن الكريم، وهي طريقة المقارنة بين أهل الحق وصفاتهم وطريقة أهل الضلال والمكذبين وصفاتهم، حتى يتضح للقارئ صفات كِلا الطرفين ثم بعد ذلك يختارُ لنفسه من أيِّهما يكون، فوصف عباده المؤمنين بعدة صفات، **فمنها:** أنهم يخشون الله، والخشية هي: الخوف مع التعظيم، فلا يصح من حيث اللغة أن يقال: فلانٌ يخشى الكلب، لعدم تعظيمه له، فالمؤمنون يخافون من ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع تعظيم الله في قلوبهم، وهذا التعظيم له ثمرة من ثمار العلم به والرغبة فيما عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإشفاق هو الوجل، فجمعوا بين تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرهبة منه، فاندفعوا للعمل وأحسنوا في الطاعة، وخافوا الوقوف بين يديه، بخلاف المنافق والكافر الذي يجمعُ بين الإساءة والأمن من مكر الله، فيعيش وكأنه لم يفعل شيئًا.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨﴾، الآيات هي البراهين والحُجج الشرعية والكونية، فهم مصدقون بها كلها، فيسمعون ويطيعون الأمر الشرعي، ويستسلمون للحكم القدري فلا يسخطون على أقدار الله بل يرضون بها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾، سبق أن أثبت لهم الإيمان المطلق بالله، وهنا نفى عنهم الشرك المطلق به، سواءً كان هو الشرك الظاهر وهو عبادة غير الله، أو الشرك الخفي وهو الرياء وحب السمعة بالعمل، وأثبت لهم التوحيد الظاهر والإخلاص في عبادتهم لله وإرادتهم بأعمالهم وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾، **وفي** ﴿ءَاتَواْ﴾ قراءتان، **بالمد،** وهي قراءة الجمهور[1]، **بمعنى:** أعطوا، **أي:** يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء[2]، **والثانية بالقصر،** وهي قراءة عائشة وابن عباس والنخعي[3]، **بمعنى:** فعلوا، أو يعملون العمل الصالح وهم خائفون ألا يتقبل منهم، والعمل يشمل الطاعات كلها من صلاة وزكاة وصوم ونحوها من العبادات التي يفعلونها لوجه الله ويسارعون في تنفيذها والاستقامة عليها ومع ذلك تظل قلوبُهم مشفقة وخائفة ألا يتقبل الله منهم تلك الأعمال الصالحة، **وفي الحديث:** أن عائشة سألت رسول الله، فقالت: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عَزَّوَجَلَّ؟! قال: **"لا يا بنت أبي بكر، لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله** عَزَّوَجَلَّ"[4]، فلا يوجد لديهم غرور ولا عُجب بأعمالهم، بل يتهمون أنفسهم بالتقصير، والواو تُفيد الحال، **أي:** يفعلون الأعمال الصالحة وهم خائفون أن لا يتقبل منهم أعمالهم، وخائفون أن يرجعوا إليه يوم القيامة فلا يجدوه راضياً عنهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾، ومع صفاتهم السابقة

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 46).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 480).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 578).

(4) مسند أحمد: (42/ 156) برقم: (25263)، وسنن الترمذي: (5/ 180) برقم: (3175)، وإسناده صحيح.

فهم ليسوا كُسالى في فعل الطاعات وعمل الخير، بل هم من المسارعين والمبادرين إليها، وقيّد مسارعتهم ومبادرتهم في الخيرات، أما حالهم مع الشر، فهم بعيدون عنه وبطيئون جداً منه، ومن كان كسلاً في فعل الشر نشيطًا في فعل الخير، فهو على خير كبير، والمشكلة أن بعض الناس يكون بطيئًا وكسلاً في فعل الخيرات ونشيطًا ومسارعًا في فعل الشر، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو بقوله: "اللهم إني أعوذ بك من عجز الثقة وجلَد الفاجر"(1)، والثقة هو المؤمن الصالح، الذي لديه عجز وكسل في فعل الطاعات والخيرات، والفاجر هو الكافر والعاصي البعيد عن الله وطاعاته، وعنده نشاط وجلَد في فعل الشر، وانظروا في حال الذين يفعلون الشر كم يتعبون في تحقيق أهدافهم، فالسارق مثلاً إذا أراد أن يسرق كيف يُخطط ويسهر الليل، وينتظر الأوقات التي يكون الناس فيها غافلين، وقد يتسلق الجُدران، وربما يسقط منها، وقد يُضرب أو يُسجن وهو مستمر في فعل ذلك، بينما البعض كسلان في فعل الطاعات، مع سهولتها وأجرها العظيم عند الله.

أما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فإنهم يتسابقون في فعل الخيرات، للحصول على أُجور هذه الخيرات التي وعدهم الله بها، وقد كتب الله لهم السعادة في أقداره في اللوح المحفوظ ووفقهم للعمل بأسبابها، فعلى المسلم أن يكون من المسارعين المبادرين في الخيرات قبل أن يأتيه ما يمنعه من فعلها، خاصة في هذا العصر المليء بالفتن، وفي الحديث: **"بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمنًا ويصبح**

(1) ينظر: مناقب عمر لابن الجوزي، ص: (17).

كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا"[1].

وقولــه: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾، **أي:** إن التكاليف الشرعية التي سبق ذكرُها من الإيمان والعمل الصالح وسائر العبادات التي كلّف الله بها الخلق، مقدورٌ عليها مع مشقةٍ مُحتملة، فلا يحتج أحدٌ بتركها بأنها شاقة أو أنه لا يستطيع أن يفعلها، فلم يكلف الله العباد ما لا طاقة لهم به، وهذا يدل على يُسر الشريعة وسهولة تكاليفها، فقد خفف عنهم ورفع عنهم ما لا يستطيعون تحمله، **كما قال:** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة:286]، فقال: "قد فعلتُ"[2]، **أي:** قد استجاب الله لهم ذلك الدعاء كله، فلم يُحمّل الله الناس بعد ذلك من التكاليف الشرعية ما لا طاقة لهم به، والمقصود بالكتاب هنا كتاب العبد الذي سجلت فيه حسناته وسيئاته، **كما قال:** ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية:29]، فكل واحد من الخلق معه كتابٌ خاص به، يُسلم له يوم القيامة، **ويُقال له:** ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾[الإسراء:14]، فينطق ذلك الكتاب بما عمله العبد بالحق الذي لا باطل فيه، فلا تزوير فيه ولا غِش ولا خداع، بل فيه كل ما فعل العبد من خير أو شر دون زيادة ولا نُقصان، فيحاسب على ذلك بالعدل ولا يُظلم أحد في ذلك اليوم.

(1) صحيح مسلم: (1/ 110) برقم: (118).

(2) صحيح مسلم: (1/ 116) برقم: (126).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الاستكبار مانع من موانع التوفيق لقبول لحق، وأن التواضع سبب من أسباب قبول الحق.

2- أن حِل المطعم والمشرب من أسباب فعل العمل الصالح وقبول الدعاء، وأن أكل الحرام سبب من أسباب البُعد عن الطاعة والكسل عنها.

3- أن مِلّة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، وإنما اختلفت شرائعهم.

4- أن الاختلاف في الدين سبب للفرقة بين أقوام الرسل، وكلٌ يدّعي الحق وهو منه بعيد.

5- أن منح الله الأموال والبنين ونحوها من النعم للكفار ليس دليلاً على حب الله لهم، بل هو نوعٌ من الابتلاء والاستدراج لهم.

6- أن من صفات المؤمنين الصادقين أنهم يعملون العمل الصالح وهم خائفون ألا يتقبل منهم.

7- أن التكاليف الشرعية التي كلّف الله بها الخلق، مقدورٌ عليها مع مشقةٍ مُحتملة.

تفسير المقطع الخامس من سورة المؤمنون

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ
ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ
ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ
عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾
۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا
هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾، **الضمير يعود** لكفار قريش، والغمرة الغفلة، واسم الإشارة يعود إلى محمد ﷺ، والقرآن الذي نزل عليه، **والمعنى:** لم يكتفوا بالإعراض عنه والتكذيب به، بل لهم أعمال سيئة أُخرى يعملونها، فجمعوا بين الإعراض

والغفلة عن قبول الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، وعمل الأعمال السيئة الأخرى، وهذا حال كثير من الكفار، كمثل قوم شعيب فقد كانوا يشركون بالله ويطففون في الميزان والمكيال، وقوم لوط مشركون ويفعلون الفاحشة، وهكذا كفار قريش جمعوا بين ظلمهم لأنفسهم بكفرهم بالله وأذيتهم لخلق الله، وفي الآية أيضاً إخبار عمّا سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كتبت عليهم، وفي هذا دليل على أن كلاً ميسّر لما خلق له.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾، حتى للغاية، **أي:** سيظلون في غفلة عن القرآن والإعراض عنه والتكذيب به ومستمرين في الأعمال السيئة الأخرى دون إيمان ولا توبةٍ منها؛ حتى يأتي موعد هلاكهم وأخذهم بقوة، وخص المترفين وهم المُنعمون بالذكر؛ لأنهم سببُ إعراض الآخرين، فهم قادة الناس ووجهاؤهم وكبارُهم والقدوة السيئة لغيرهم، وقد يمنعون غيرهم من الإيمان، والعذاب يشمل عذاب الدنيا بالقتل أو السبي، كما حصل لكبار كفار قريش يوم بدر، وعذاب الآخرة المُؤجل لهم إلى يوم القيامة في النار، والجأْر هو الضجيج الشديد[1]، **أي:** يصيحون من شدة الألم، ويستغيثون ويطلبون النجدة، فكان الجواب لهم: لا تصيحوا ولا تستغيثوا، فلا يوجد لكم فرج ولا مخرج، فلن تُفلتوا من قبضتنا، ولن تنجوا من عذابنا.

ثم ذكر سبب عدم رحمتهم، فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾، الآيات تشمل الآيات القرآنية والآيات الكونية، فقد

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 20).

كانت تعرض وتُقرأ عليكم في الدنيا، وكان موقفكم منها الإعراض والتكذيب بها والاستكبار عن سماعها، حيث كنتم تتراجعون إلى الخلف عند سماعها وكأنكم ترون ثعبانًا بين أيديكم فتخافون منه، **والنكوص**: الرجوعُ إِلى وَرَاءٍ وَهُوَ القَهْقَرَى[1]، وهو التراجع للخلف خوفًا مما أمامك، فما الذي يخيفهم من القرآن حتى يهربوا منه، ولكن حينما يضل الله العقول والأفئدة لا يستفيد منها صاحبها.

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، **الضمير في مرجعه قولان**[2]: إن جعلناها متعلقة بما قبلها فهو يعود إلى القرآن، **أي**: تنكصون مستكبرين معجبين بأنفسكم وبكفركم بالقرآن، وإن جعلنها متعلقة بما بعدها فالضمير يعود إلى الحرم، **أي**: تستكبرون عن قبول الحق والهداية لأنكم من أهل الحرم، وأنكم أهل السدانة والوفادة، حيث تجلسون جوار الحرم سامرين ساهرين تقولون كلامًا باطلاً عن القرآن ومحمد ﷺ، كقولكم إنه ساحر وكذاب وكاهن ونحوها.

ثم قال الله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، **التدبر**: التفكر في الشيء لفهمه، والمقصود بالقول هنا القرآن، **أي**: لماذا لا تستمعون إلى القرآن وتتفكرون فيه، فلو فعلتم ذلك لظهر لكم الحق، وآمنتم به، و(أمْ) هي المنقطعة التي بمعنى بل، فهم لم يدبروا القرآن ليعرفوا الحق من خلاله، بل كانت حجتهم في تكذيبه أن محمداً ﷺ جاءهم بما لم يأتِ آباءهم السابقين لهم، وهي حجة جميع الكفار على رسلهم، **كما قال:** ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ

(1) ينظر: لسان العرب: (7/ 101).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 22).

وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[الزخرف:23].

وقولـه: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾، وهل السبب في عدم الإيمان أنهم لا يعرفون نسب محمد ﷺ، ولا صدقه وأمانته وأخلاقه، فلذلك لم يؤمنوا به؟!، **والجواب:** أنهم يعرفون ذلك كله عنه، لذلك انتقلوا إلى شبهة أخرى لرد الحق الذي جاء به وهي اتهامه بالجنون، وكيف يمكن لمجنون أن يأتي بمثل ما أتى به محمد ﷺ من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة، وكانوا يعلمون أنه بريء من هذه التهمة، وأنه أرجحهم عقلاً وأصدقهم قولاً، وقد تحداهم الله أن يأتوا بشيء مثل الذي أتى به، فلم يستطيعوا، فدلّ ذلك على تناقض أقوالهم وبطلانها، بل جاءهم محمد ﷺ بالحق، وهو القرآن، الذي يدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك، ولكن أكثرهم للحق كارهون، لأنهم قومٌ مطبوعون على الشرك وعبادة غير الله، وفعل القبائح، وهذه طبيعة النفوس إذا انتكست فطرتُها وتعمّقت في الشر حتى صارت تكره الحق ولا تقبلُه، وتتمسك بالعادات والتقاليد وما كان عليه الآباء والأجداد، حرصاً منهم على مناصبهم ووجاهتهم، وعبّر بأكثرهم إنصافاً لمن كان منهم من أهل العقول الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وعبادة غير الله، وهذا حال المشركين عموماً، فالقِلة منهم من يقبل الحق ويوفق له.

وقولـه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾، هذا تعقيب على إعراض المشركين وعدم اتباعهم لما جاءهم به محمد ﷺ من الحق، **والمعنى:** لو قُدر أن الحق جاء على وفق رغبات وأهواء المشركين؛ لكان

في ذلك إفسادٌ للسموات والأرض ومن فيهن من الخلق، وذلك لجهلهم واختلاف وتناقض أهوائهم، وما يحصل اليوم للبشرية من فساد وانحراف إنما هو بسبب تناقض تشريعات البشر وتعدد أهوائهم واختلاف رغباتهم، بخلاف الله جَلَّ وَعَلَا، فهو عليم حكيم، أحاط بكل شيءٍ علماً، ثم مدح ما جاءهم به من الوحي، **فقال:** ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾، بل أتينا هؤلاء المكذبين بالقرآن، الذي فيه شرفٌ لهم لو أخذوا به، **كما قال:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:44]، وفيه أيضاً تذكرة وعِظة لهم، ولكن من سوء تدبيرهم وقلة تفكيرهم؛ أعرضوا عنه وكفروا به، ولم يُؤمنوا به، وفي ذلك إشارة إلى غفلتهم وقلة عقولهم.

ثم قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾، **الهمزة** للاستفهام الاستنكاري والقصد منه التعجب، فمحمد ﷺ لم يطلب منهم مالاً مقابل دعوتهم إلى الإسلام، **وفيها قراءتان**[1]: ﴿خرْجاً﴾، و﴿خراجاً﴾، والفرقُ بينهما، **أن الخراج**: ما لزمك، **والخرْج**: ما تبرعت به[2]، وعلى كِلا المعنيين، فمحمد ﷺ لم يطلب من أحدٍ مالاً مُقابل أن يُعلمه ويُرشده إلى الإسلام والإيمان، بل دعوته مجانية، **كما قال:** ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[ص:86]، **والمعنى**: هل كان سبب امتناعهم عن الإيمان بك، أنك طلبت منهم مالاً مقابل دعوتهم إلى الله؟!، **الجواب**: لم يطلب منهم محمد ﷺ مالاً، بل هو ينتظرُ العطاء والأجر والثواب من الله سبحانه، فرزق الله خير من

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 268).
(2) فتح القدير للشوكاني: (3/ 584).

أموالهم، والله أفضل من أعطى وأجزل من وهب سبحانه!، وفي هذا إرشادٌ وتوجيهٌ لمن يدعو إلى الله أن يحتسب الأجر والثواب في دعوته من الله سبحانه، فهو خيرٌ من أعطى، وهو خير الرازقين.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾، ثم زكى الله رسوله ﷺ، وأن الذي جاء به كفارَ قريش هو دعوتهم إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام، فكان الأولى والأحرى بهم أن يُؤمنوا به مع هذه المحفزات إلا أنهم لم يفعلوا ذلك؛ لعدم إيمانهم بالآخرة ونسيانهم لها وانشغالهم بالدنيا، فمالوا وابتعدوا بسبب ذلك عن طريق الحق وانحرفوا عنه وكفروا بما جئتهم به.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾، الضمير يعود على كفار قريش، **أي:** لو رحمهم الله ورفع عنهم ما أصابهم من القحط والجوع، الذي دعا عليهم به رسول الله ﷺ بقوله: **"اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"**(1)، فاستجاب الله دعاءه، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، وقال: أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟! فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا الله، فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية(2)، **وأصل اللجاج:** التمادي في العناد، **أي:** لتمادوا في الطغيان

(1) صحيح البخاري: (1/ 160) برقم: (804).

(2) تفسير ابن عطية: (4/ 152).

والإعراض والتكذيب وهم متحيرون مترددون[1]، ومصرون على الكفر لا يرجعون عنه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾، **أي:** أخذناهم بالجوع الذي أصابهم سبع سنين، وقد كان بعد غزوة بدر[2]، فما تذللوا ولا تواضعوا لله وآمنوا به، **والتضرع هو:** دعاء الله بخضوع وخشوع، لرفع ما نزل بهم من البلاء، بل استمروا في الإعراض والتكذيب، وهذا حال بعض الناس لا تزيدهم المصائب والابتلاءات إلا إعراضاً وبعداً عن الله وقسوة لقلوبهم، **كما قال:** ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام:43].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾، **أي:** أنهم يستمرون بالكفر والإعراض حتى تأتيهم الساعة بغتة، ويفتح لهم باب من أبواب جهنم، فيأتيهم العذاب الشديد منها[3]، وحينئذ يبلسون من كل خير، **والإبلاس:** شدة اليأس من النجاة[4]، فييأسون من كل رحمة، وتنقطع آمالهم ورجاؤهم في الفرج والخروج من النار.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 584).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 152).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 487).

(4) التحرير والتنوير: (18/ 103).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان حال كثير من الكفار الذين يجمعون بين الكفر بالله وفعل القبائح، وأذيتهم لخلق الله.

2- أن من طبيعة النفوس التي انتكست فطرتُها وتعمّقت في الشر؛ أنها تكره الحق ولا تقبلُه، وتتمسك بالعادات والتقاليد وما كان عليه الآباء والأجداد.

3- أن الحق لو جاء على وفق رغبات وأهواء المشركين؛ لكان في ذلك إفسادٌ للسموات والأرض ومن فيهن.

4- بيان مجانية الدعوة إلى الله، وفضل من احتسب الأجر فيها على الله.

5- بيان حال بعض الناس الذين لا تزيدهم المصائب والابتلاءات إلا إعراضاً وبعداً عن الله وقسوة لقلوبهم.

تفسير المقطع السادس من سورة المؤمنون

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ
أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا
لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قــــول الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾، جاءت هذه الآيات بعد بيان إعراض كفار قريش عن الإيمان بالله ورسوله، مذكراً لهم بمجموعة من النعم التي منحها للخلق، **ومنها:** نعمة السمع والبصر

والأفئدة، وهي جمع فؤاد، وهو القلب، وعبّر به هنا لأن السياق للاتعاظ والاعتبار[1]، وهذه هي الوسائل التي يعرف بها العبد الحق، فالحق يُعرف بالسمع، ويُعرف بالرؤية، ويُعرف بالتفكير، فإذا استخدم العبد هذه الوسائل الثلاث في البحث عن الحق وصل إليه، وإذا لم يستخدمها استخداماً صحيحاً لم يستفد منها، ويكون حاله كحال الحيوان، **كما قال:** ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف:179]، والذي لم يستخدم هذه الوسائل في معرفة الحق فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة، وقليلٌ من الخلق من يشكر الله على هذه النعمة، وهم الذين استفادوا منها في معرفة الحق فآمنوا بالله وعبدوه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وهذه نعمة أخرى يذكّر الله بها الخلق، **وهي:** خلقهم وبثهم في الأرض من أجل أن يقوموا بعمارتها بشرع الله، وأن مصير الخلق عائد وراجع إلى الله فلن يبقوا مخلدين في هذه الأرض وإنما يعيشون فيها فترة من العمر ثم يموتون ويحشرون إلى ربهم سبحانه، فليستعدوا لملاقاته بالإيمان والعمل الصالح.

وقولـــه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾، وهو سبحانه الذي يحيي الخلق، فيوجدهم من العدم، ثم يُميتُهم ثم يحييهم يوم القيامة، فلا أحد يفعل ذلك غير الله، وهذا هو توحيد الربوبية، وهو إفراد الله بأفعاله، فلا يُشاركه في الخلق والإيجاد والإحياء والإماتة أحد من الخلق، وهو الذي يقلّب

(1) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (13/ 173).

الليل والنهار بطريقة منتظمةٍ ليس فيها خلل، فنتج عن ذلك انتظام المواعيد للصلاة والصيام والزراعة، وسائر الأحوال بدقة وإتقان، وأصبح علم الفلك اليوم مع تطور العلوم والآلات قادراً على حساب دخول الشهور وانقضائها لما بعد مئات السنين من الآن، فهلا تفكرتم في هذه النعم العظيمة وشكرتم خالقها.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾، بل هؤلاء بعيدون عن التفكر في ما حولهم من المخلوقات للوصول إلى الحق، **والمعنى**: أنهم لا يعقلون الأدلة، بل إنهم قومٌ مُقلِّدون يسيرون على ما كان عليه الآباء والأجداد، حالهم كحال كثيرٍ من الأولين من الأمم السابقة المكذّبة بالرسل، فقد كانوا يُنكرون البعث والنشور، بشبهة أن من مات من آبائهم لم يرجع إليهم، وهذا من جهلهم، فقد كانوا يظنون أن الناس يُبعثون في الدنيا، والحقيقة أن البعث موعده في الآخِرة، ولم يأت وقت البعث بعد حتى تسألوا عن بعث آبائكم الأولين، ثم وصفوا خبر البعث والنشور بالقصص والحكايات، والخرافات التي توارثها الناس من الأمم السابقة لهم، وفي هذا إشارة إلى خطورة التقليد للآباء والأجداد بغير علم، فهو سبب من أسباب رد الحق وتكذيب الرسل.

وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، **أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه محمداً ﷺ** أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، **ومنها**: من خلق الأرض ومن فيها من المخلوقات؟ ومن مالكُها والمتصرف فيها؟ فإن كنتم تعلمون فأخبروني، وفي

هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم[1]، **فسيقولون**: إن الخالق والمالك هو الله، **فقل لهم**: لماذا لا تتعظون بذلك وتدعون شرككم وكفركم بالله وعبادة آلهة غير الله، فمن خلق فهو المستحق للعبادة، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فلا يصح أن يُعبد غير الخالق المالك، فهذا هو الشرك بعينه، وقد كان هؤلاء المشركون أيضًا يُنكرون البعث والنشور، وفي إثبات الخلق دليل على قدرة الله على البعث، فمن خلق من العدم، فهو قادر على أن يُحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم.

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾، ثم اسألهم من رب السموات السبع، وذكر هنا العدد ولم يذكره في الأرض؛ لبيان أن السموات أوسع وأكبر وأعظم من الأرض، فإن الأرض كوكب من الكواكب التي تدور تحت قبة السماء، والعرش العظيم، هو أكبر المخلوقات وأعظمها، **فسيقولون**: إن ربها وموجدها هو الله، فقل لهم: فلماذا لا تتقونه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾، الملكوت، مبالغة في الملك المقترن بالتصرف، فمن هو الذي بيده مِلك كل شيء؟، فلا يشذ عن ملكه ولا يخرج عن سيطرته وقهره أحد، وهو يمنع ويحفظ من استجار به ولا يمتنع عن قهره أحد ولا يهرب من مُلكه أحد، ولا يُعجزه شيء، فهو المالك لكل شيء، إن كان لكم علم بعظمة الله وسلطانه، **فسيقولون**: إن الله هو من يفعل

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 586).

ذلك، فقل لهم: فكيف تُخدعون عن الإيمان بالله، وتذهب عقولكم إلى تعظيم وعبادة غيره؟ وقد سلك في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترقي، فابتدأ بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها؛ لأنها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين، ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السموات والعرش، ثم ارتقى إلى ما هو أعم وأشمل، وهو تصرفه المطلق في الأشياء كلها[(1)].

وقوله: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠﴾، بل ليس الأمر كما خُيّل إليهم، فقد أتيناهم بالحق وهو القرآن الكريم الذي يدعوهم إلى التوحيد والعمل الصالح، وإنهم لكاذبون فيما ينسبونه إلى الله من الشريك والولد.

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾، ثم نفى عن نفسه تلك الدعوى الباطلة التي افتراها الكفار، **وهي:** نسبة الولد إلى الله، وهي جريمة ومُنكر عظيم وقع فيها مشركو العرب، **فقالوا:** الملائكة بنات الله، **وقالت اليهود:** عزير ابن الله، **وقالت النصارى:** المسيح ابن الله، ونفى وجود شريك له في الألوهية والربوبية، فلا معبود بحق إلا الله، ولو كان مع الله إلهٌ آخر؛ لانفرد كل واحد منهما بمخلوقاته عن مخلوقات الآخر، واستبدّ كل واحد منهما بملكه، وطلب غلبة الآخر والعلوّ عليه، كما نرى من حال ملوك الدنيا، ولكن لّما رأينا جميع المخلوقات مرتبطة بعضها ببعض، والكون منتظم ومستقر منذ وجد، علمنا أن خالقه ومالكه ومدبره واحد، ولا إله غيره، فالله هو المتفرد بالخلق والإيجاد والملك والسيطرة، والمتفرد

(1) التحرير والتنوير: (18/ 113).

بالألوهية، والعقل يثبت ذلك كله، وجاء الشرع بما يؤيد العقل، واكتفى بذكر الدليل على نفي الشريك، ولم يذكر الدليل على نفي الولد؛ لأن الدليل على نفي الشريك يتضمن نفي الولد، وذلك أن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الأجانب، فلو كان لله ولد لأظهر المنازعة كما يكون بين الإلهين والمالكين[1]، ثم نزّه الله نفسه عن هذه الادعاءات الباطلة وأمر الخلق أن يُنزهوه عنها.

وقوله: ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾، أي: عالم ما خفي وما ظهر، فهو يعلم ما أظهرتم، ويعلم ما أخفيتم، وهو خبر يفيد التهديد والوعيد، فتعالى وتقدّس عن كل ما نسبه له المشركون من الشريك والولد ومما لا يليق به سبحانه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- السمع والبصر والفؤاد هي وسائل العلم والمعرفة، خلقها الله للعبد لكي يهتدي بها إلى الحق.

2- أن توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية.

3- خطورة التقليد للآباء والأجداد بغير علم، فهو سبب من أسباب رد الحق وتكذيب الرسل.

4- انتظام الكون واستقراره منذ وجد؛ دليلٌ على أن خالقه ومالكه ومدبره واحد، ولا إله غيره.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 50).

تفسير المقطع السابع من سورة المؤمنون

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ
أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ
وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ
﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا
وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ
ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ
عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾، أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظالمين وعقوبة المكذبين في حال نزول العذاب بهم وهو شاهد، فلا يجعله فيهم حتى لا يهلك معهم، وفي الحديث: "وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون"[(1)]، وذلك أن كفار قريش كانوا يستعجلون العذاب على أنفسهم استخفافًا واستهزاءً بمحمد ﷺ، كما قال الله عنهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: 32]، فعلّمه الله كيف يدعو، وأخبر أنه قادر على إنزال العذاب الدنيوي بهم، بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، وقد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة[(2)]، وتأخيرُ العذاب عنهم ليس لعجز، وإنما لحكمة، وقد استفاد من هذا الإمهال عدد كبير من الناس، فأسلموا وحسن إسلامهم.

وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أمر الله نبيه ﷺ بالصفح والاحتمال وحسن الخلق، أي: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، بل ادفع سيئاتهم بالإحسان إليهم، والله أعلم بما يصفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يتصفون به من الشرك والتكذيب، ونجازيهم بما يستحقون، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بالعقوبة، وهذا الأمر ليس خاصًا برسول الله ﷺ، بل عام لكل مسلم، فإن ذلك سيؤدي إلى صلاح

---

(1) مسند أحمد: (36/ 422) برقم: (22109)، وسنن الترمذي: (5/ 221) برقم: (3235)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 588).

المسيء مستقبلاً، كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[فصلت:34]، وسيكون له ثمرتُه بإذن الله ولو بعد حين.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾، في الآية السابقة بيّن له كيف يتعامل مع المسيئين من الإنس بالعفو والإحسان إليهم؛ لأن طبيعة الإنسان التأثر بالإحسان إليه، فيدفعُه ذلك إلى تغيير سلوكه السيء، وفي هذه الآيات بيّن له كيف يتعامل مع صنف الشياطين الذين لا تتأثر نفوسهم بالإحسان إليها بالخير، فأمره بالاستعاذة بالله والالتجاء إليه بأن يكفيه من همزات الشياطين، والهمز هو: الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه[1]، واستعمل مجازاً في غيرها كالوسوسة التي يقذفها في القلب، وسورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه[2]، ونحوها، ويكفيه من حضور الشيطان وملازمته له، وهذه أخطر من الأولى؛ وقد امتثل رسول ﷺ هذا الدعاء، فكان يقول: "اللهمَّ إني أعوذ بك من هَمزْ الشيطان ونَفثه ونفخه"[3].

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾، الضمير يعود

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (18/ 121).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 588).

(3) مسند أحمد: (6/ 380) برقم: (3830)، وسنن أبي داود: (1/ 203) برقم: (764)، وإسناده حسن لغيره.

على المكذبين بالبعث والنشور، يبقون على الكفر والتكذيب حتى ينزل بهم أسباب الموت ومقدماته، فيطلب أحدهم من الله أن يرجعه إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، فاشتمل هذا المعنى على وعد بالامتثال واعتراف بالخطأ، وجاء الخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم، فيُقال له: كلا، لا رجعة إلى الدنيا، ولست صادقاً في وعدك هذا، **كما قال الله**: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الأنعام: 28]، **وسؤاله** الرجعة مجرد كلمة يقولها ولا فائدة منها؛ لأنّه لا يجاب إلى ما يسأل[1]، **وقيل**: إن الضمير يرجع إلى الله، **أي**: لا خلف في خبره[2]، ومن أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الموت والبعث[3]، وهي دار البرزخ التي يعيشُها الإنسان بين موتِه وخروجه من الدنيا إلى أن يُبعث يوم القيامة، وحياة الناس في هذه الدار بحسب حالهم في الآخرة، فأهل النار مُعذبون وأهل الجنة مُنعمون، ويتفاوت عذابهم ونعيمهم فيها بحسب أعمالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، والنفخة الأولى هي نفخة الصعق، حيث يموت بها الأحياء إلا من شاء الله، ثم تكون النفخة الثانية بعدها، وهي نفخة البعث والحشر، وفي حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: "بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 64).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 590).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 71).

قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت"[1]، وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلمٍ بأنها أربعون سنة[2]، والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، فيُحشر الناس إلى ساحة المحشر، ومن شدة الأهوال والحيرة لا يتفاخرون بالأنساب ولا يذكرونها، ولا يسأل بعضهم بعضًا، فكلٌّ منهم مشغول بنفسه، **كما قال**: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾[عبس:37]، فكل شخص يريد أن يعرف مصيره إلى الجنة أو إلى النار، ولا ينافي هذا ما ورد من نصوص تثبت السؤال عن بعضهم في الآخرة، فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، والنفي باعتبار بعضها الآخر.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢﴾، **وفي الحشر** توزن أعمال العباد فمن ثقُلت كفة حسناتِه على كفة سيئاته فهو من الفائزين بمطالبهم المحبوبة، ومن الناجين من الأمور التي يخافونها.

وقوله: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾، **أي**: رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت به خطيئاته، من الكفر والشرك، فهو ممن ضيعوا أنفسهم وباءوا بالصفقة الخاسرة في جهنم، وصاروا ملازمين لها لا يخرجون منها، وينالهم من شدة لهيبها وسعيرها ما يحرق بشرة أجسادهم، **واللفح هو**: الإحراق، **يقال**:

(1) صحيح مسلم: (4/ 2270) برقم: (2955).

(2) شرح النووي على مسلم: (18/ 92).

لفحته النار إذا أحرقته، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء، وأن الحريق سيلتهم سائر الجسد، **والكالح**: الذي قد تشمرت شفتاه وبدت أسنانه[1]، بعد أن لفحت وجهه النار، فتحولت صورته الحسنة إلى صورة قبيحة محتقرة، وهو نوع من العذاب النفسي المصاحب للعذاب الجسدي.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، ثم يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا وكان موقفُكم منها هو التكذيب والإعراض.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾، فاعترفوا **وقالوا**: نعم، يا ربنا! لقد جاءتنا الرسل وتلوا علينا الآيات، ولكن إعراضنا وتكذيبنا وانشغالنا بلذائذ الدنيا وشهواتها، كان سبباً لِشِقوتنا؛ فتركنا الإيمان بالله ورسله، وابتعدنا عن طريق الحق، وسلكنا طريق الغواية، وسمى ذلك شقوة لأنه يؤول إلى الشقاء.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، ثم كرروا النداء لربهم وطلبوا منه أن يخرجهم من النار، وتعهدوا بعدم عودتهم للكفر والتكذيب الذي كانوا عليه في الدنيا، فإن عدنا فنحن ظالمون لأنفسنا، وقد انقطع عذرنا، فمكث الله ما شاء أن يمكث **ثم أجابهم بقوله**: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، **اخسئوا**: كلمة تستعمل في زجر الكلاب، وفيها إهانة وإبعاد[2]، **أي**: ابقوا فيها

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 590).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1207).

ذليلين محتقرين، فلا خروج منها، ولا يتكلم أحد منكم معي بعد اليوم، وهو نهيٌ لهم عن جميع أجناس الكلام، فلم يتكلم القوم بعد ذلك بكلمة[1]، وهي أعظم كلمة سمعها أهل النار فأصابَهم اليأس والقنوط.

ثم ذكّرهم ببعض أعمالهم القبيحة التي استحقوا بها النار، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾، **أي:** كان عباد الله المؤمنون في الدنيا، يُعلنون إيمانهم ويتوسلون إلى الله به، ويطلبون الله المغفرة وكنتم تمرون عليهم وتسمعون دعاءهم؛ فتستهزئون بهم، وتجعلونهم محلاً للسخرية والاستهزاء، حتى جعلكم هذا التصرف بعيدين عن الله، أو أن بُعدكم عن الله كان سبباً للاستهزاء بهم، فكلا الأمرين متلازمان[2]، وكنتم في الدنيا من عبادتهم ودعائهم وأحوالهم وأشخاصهم تضحكون استهزاء وسخرية، واليوم هو القيامة منحهم الله الجزاء العظيم والثواب الجزيل على صبرهم على العبادة، وصبرهم على استهزائكم وضحككم عليهم، فقد حاولتم أن تفتنوهم عن دينهم فصبروا على الابتلاء، فأعطاهم الله تعالى جزاء ذلك الجنة ووعدهم بالخلود فيها، ومنحهم الفلاح والفوز في الآخرة، وهذا يدل على أهمية الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله المؤلمة في هذه الحياة الدنيا.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 75).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:560).

ثــم قــال: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾، القائـل هـو الله، أو الملائكة بأمر الله[1]، يسألون الكفار يوم القيامة سؤال توبيخ يشعرهم أن بقاءهم في الدنيا هذه المدة القصيرة التي اكتسبوا فيها هذه الآثام العظيمة دليل على سفاهة عقولهم وفساد نفوسهم، فيجيبون جوابًا غير متأكدين منه، فيقولون مكثنا يومًا أو بعض يوم، فقد نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب، وأحالوا الجواب الصحيح على الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم، ثم رد الله عليهم: مهما كان بقاؤكم في الدنيا فهو قليل مقارنة ببقائكم في النار، فالحياة الدنيا كلها قليلة في مقابل الآخرة، كما قال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة:38]، ولو علمتم أنكم إلى الله ترجعون، لعملتم لذلك الأعمال الصالحة، ولكن جهلكم بذلك جعلكم تكفرون به فكنتم من أهل النار.

وفي الآية إشارة إلى ثمرة العلم بحقارة الدنيا وبيان الجزاء العظيم الذي يمنح الله المؤمنين في الآخرة مُقابل عملهم الصالح القليل في الدنيا.

ثـم قـال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾، الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أظننتم أن الله خلق الخلق بلا غاية ولا حكمة من خلقِهم؟!

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 484).

والعبث، هو اللعب والفعل بدون غرض صحيح[1]، بل خلقهم الله لحكمة وهي عبادته وتوحيده، **كما قال:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]، وسُتُرجعون إلى الله في الآخرة لحكمة وهو الجزاء والحساب، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، وظنكم هذا باطل لا يليق بالله، ولذلك نزّه الله نفسه عن ذلك فتعالى وتعاظَم شأنه عن أن يخلق خلقه عبثًا بلا غاية ولا حكمة من الخلق، وهو الملك المتصرف في خلقه بما شاء، الخالق الموجد لهم، والمعبود بحق -سبحانه-، وهو رب العرش الكريم، والكريم في صفة الجمادات **أي**: الحسَن، والعرش أعظم المخلوقات، ومن كان ربًّا لأعظم المخلوقات فهو ربها كلها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾، وكل من يدعو مع الله إلهًا آخر، فلا يوجد معه حجة ولا برهان، وهذا شأن كل معبود غير الله، ولو بحث عن برهان لما وجد، وهي جملة معترضة بين فعل الشرط وجوابه، فمن فعل ذلك فجزاؤه سيكون عند ربه، **وفيها معنى** التهديد والوعيد، وحكم ذلك الفعل الكفر، والكافر لا يُفلح، فنفى عنه الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، **وختمت السورة** بما ابتدأت به، فقد ابتدأت بإثبات الفلاح للمؤمنين واختتمت بنفي الفلاح عن الكافرين، فموضوعها العام هو بيان طرق الفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم قال: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾، أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو ربه، وهو أمر لكل المؤمنين أن يدعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمغفرة لذنوبهم

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 273).

والرحمة لأحوالهم، فالجميع محتاج إلى رحمة الله، ولا يوجد أحد معصوم من الذنب والخطأ والتقصير، فكلنا نُخطئ، **وفي الحديث: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"**[1]، **ومن معاني الرحمة** التسديد والتوفيق في الأقوال والأفعال، ولا يوجد من هو أرحم بنا من الله سبحانه، وهو خير الراحمين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن تأخير العذاب عن الكفار ليس لعجز وإنما لحكمة أرادها الله.

2- استحباب دفع السيئة بالإحسان، لما لذلك من أثر حسن على المسيء في المستقبل.

3- وجوب الاستعاذة بالله والالتجاء إليه من شر الشياطين ووساوسهم.

4- أن الإعراض والتكذيب للرسل والانشغال بلذائذ الدنيا وشهواتها، سبب لِشقاوة العبد.

5- حقارة الكافر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، فلا قبول لصياحه ولا استماع لندائه.

6- خطورة الاستهزاء بالصالحين في الدنيا، فعقوبتُها في الآخرة وخيمة.

7- استحباب الثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل الدعاء، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحب ذلك.

---

(1) سنن ابن ماجة: (2/ 1420) برقم: (4251)، وإسناده حسن.

تفسير سورة النور

تفسير المقطع الأول من سورة النور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي
فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ
وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ
إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ
أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨
وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ
تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾.

شخصية السورة:

سورة النور؛ سورةٌ مدنية[1]، **أي:** نزلت بعد الهجرة، ومعلومٌ أن مميزات القرآن الذي نزل بعد الهجرة أنه يتحدث عن الأحكام الشرعية التفصيلية الفرعية، **وسمُيت هذه السورة** بسورة النور لذكر لفظ النور فيها.

والمقصد العام لهذه السورة؛ هو: الدعوة إلى العفاف وحماية الأعراض، وبيان خطورة الفاحشة وأثرها على الفرد والأسرة والمجتمع.

افتُتحت السورة، بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾، **أي:** هذه سورة، **والسورة في اللغة**[2]: المنزلة الشريفة، **وفي الاصطلاح:** مجموعة من الآيات القرآنية، تبدأ بمُقدمة وتنتهي بخاتمة[3]، وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وسورة النور إحداها، والضمير في أنزلناها عائدٌ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا يدل على أن الله في جهة العلو، فإن النزول لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، ويدل أيضاً على أن القرآن ليس بمخلوق، وأنه صفة لله تعالى، **وقد أنزل الله القرآن على مرحلتين: إنزال إجمالي** من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، **وإنزال تفصيلي** من سماء الدنيا على قلب محمد ﷺ، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وهي مدة الوحي التي كان يتلقاها النبي ﷺ، بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والمقصود بالإنزال هنا الثاني، وفرض، بمعنى: أوجب، **والمعنى:** أن

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 5).

(2) ينظر: لسان العرب: (4/ 386).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 5).

الأحكام التي أنزلها في هذه السورة واجبة الامتثال والتنفيذ على المخاطبين بها، وقد احتوت هذه السورة على مجموعة من البراهين والحُجج الواضحات التي ليس فيها لَبس ولا غموض، كل ذلك من أجل أن يحصل لكم بها الاتعاظ، فتهتدون بما فيها من توجيهات، وتعملون بما فيها من أحكام.

ثم بدأ بتفصيل تلك الأحكام، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾، **هذا هو الحكم الأول، وهو:** بيان حد الزنا لغير المحصن، والألف واللام للاستغراق، فيشمل كل الزناة من حيث العموم، سواءً كانوا مسلمين أو ذميين، أحراراً أو عبيداً، مُحصنين أو غير محصنين، لكنه خصص هنا بغير المحصن بأدلة منفصلة، وهو الزاني البكر الحُر ولو كان ذمياً من أهل الكتاب؛ لأن أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا وجب علينا أن نحكم بينهم بشرعنا، وقدّم في هذه الآية الزانية الأنثى، لأن المرأة هي صاحبة الإغواء، فهي التي تُغوي الرجل، فتجعله يقع في الزنا، ولذلك أُمرت المرأة بالستر والعفاف والحجاب والبعد عن مخالطة الرجال؛ لأنها سبب لفتنة الرجال، والخطاب فيها لولاة أمر المسلمين، أو لمن ينوبهم لإثبات الحكم وتنفيذ الحد، وليس لأفراد الناس أن يقيموا الحدود، حتى لا تصير فتنة، وحد الزاني البكر أن يجلد مائة جلدة، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص منها، والبكر من النساء أو الرجال هو الذي لم يسبق له الزواج بعقد صحيح، وحد العبد أو الأمة نصف حد الحر، وهو خمسون جلدة، والجَلْد هو الضرب بالسوط، وسُمي الضربُ بالسوط جَلْداً؛ لأنه يقع على الجِلْد، وخصص

الجِلد بالضرب؛ لأنه مكان الإحساس بالألم، وقد ذكر الفقهاء وصفًا معينًا للجَلْد[1] بحيث يكون جَلداً معتدلاً، بسوطٍ لا أخضر ولا يابسٍ، وسط بينهما، وأن يرفع اليد عند الجَلد رفعًا معتدلاً، وأن يكون على الجِلد وأماكن اللحم والعصب، وأن يبتعد عن الرأس والوجه والعظم والمذاكير ونحوها حتى لا يُفسِد عليه أعضاءه، **ونهى المؤمنين** عن رحمة وشفقة الزناة عند تنفيذ الحد عليهم، بمحاولة دفع الحد أو تغييره أو تنفيذه بطريقة غير صحيحة، **والمعنى:** بل لا بد أن يُؤدى الحد بوصفه الشرعي، لأن حدود الله فيها الرحمة للخلق، ودين الله هو شرعه وأمره، فتطبيق الحدود من شرعه ودينه، وبيّن أن امتثال ذلك من الإيمان بالله واليوم الآخر، ويكثُر هذا الأسلوب في آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، حيث يربط تنفيذ الأحكام أو عمل الطاعات بتذكير العبد بإيمانه بالله واليوم الآخر، كقوله: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**"[2]، وهو أسلوب تحفيز وتذكير يدفعُ إلى الانضباط والتنفيذ للأمر، ثم أمر الله أن يحضر تنفيذ الحد على هؤلاء الزُناة مجموعة من المؤمنين، وسمى إقامة الحد عذابًا، لأنه نوع من التعذيب والإيلام الحسي للنفس، وحضور الناس نوع من الإيلام المعنوي، وهو حصول الفضيحة، ولو تم جلده سراً؛ لتحمل مئات الأسواط، ولكنه لا يريد أن يجلد سوطًا واحداً أمام الناس،

---

(1) ينظر: موسوعة الفقه الإسلامي: (5/ 109).

(2) صحيح البخاري: (8/ 11) برقم: (6018).

وخاصة أقاربه ومن يعرفه، وخص أن يكون الحضور من الصالحين وليس من الفُسّاق ولا من الكفار؛ لأن المجلود يستحي من الصالحين أكثر من حيائه من الفاسدين؛ لأن الفاسدين زملاؤه وشركاؤه في بعض الأفعال القبيحة، فلم يعد يستحي منهم، والمقصود بالطائفة عدد من الثلاثة إلى العشرة، بحيث يحصل بهم الإشهاد وتحصل لهم العِظة والعبرة، وكلما كثُر العدد كان أفضل، وفي ذلك فوائد، منها: حصول الفضيحة للمجلود حتى لا يرجع مرة ثانية إلى الزنا، ومنها: اعتبار من حضر حتى لا يقع في هذا الذنب، ومنها إشهار إقامة الحدود وتخويف الناس من الوقوع فيها.

فائدة: ذكَرتِ الآيةُ الجَلْدَ فقط، **وجاء في الحديث:** **"وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام"**[1]، **أي:** يُطرد من بلده سنة، **واختلف العلماء في حكم التغريب على قولين**[2]: الجمهور على أنه من الحد وأنه لا بد أن يُغرّب، ويرى أبو حنيفة أنه ليس من الحد، وإنما هو تعزير ويعود الحكم فيه للإمام، فيُمكن أن يُعفيه ويُمكن أن يُحوله إلى السجن، وهذا الذي أخذت به أغلب المحاكم الشرعية اليوم، لعللٍ منها: أن التغريب للشخص يزيده بُعداً عن قومه، وربما يقع في الزنا أكثر ويزداد فسقًا، فاكتفوا بأن يسجن وتُمنع حريته، وتوضع له برامج في السجن من أجل إصلاحه واستقامته وتوبته.

فائدة: حد الزاني المحصن هو الرجم، وقد جاء ذلك في آية نُسخ لفظُها وبقي

---

(1) صحيح البخاري: (3/ 184) برقم: (2695).

(2) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: (41/ 123).

حُكمُها[1]، **وثبت حد الرجم للزاني المُحصن بقوله ﷺ** وفعله في أخبار تشبه المتواتر، وأجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم[2]، **وقد تم الرجم في عهد النبي ﷺ في ثلاث حوادث: الأولى** قصة الغامدية[3]، **والثانية** قصة ماعز[4]، **والثالثة** قصة: **"يا أُنيس اغدُ إلى زوجة هذا فإن اعترفت فارجُمْها"**[5]، فذهب إليها فاعترفت فرجمها، ويُمكن لطالب العلم أن يتتبع كتب السنن والسيرة فقد يجد غيرها من الحوادث التي تم فيها الرجم بالاعتراف، أما الرجم للثيب أو إقامة الجلْد للزاني البِكر بشهادة الشهود فيكاد أن يكون منعدمًا، لصعوبة تحقق شروط الإثبات.

مسألة: اختلف العلماء: هل يُجمع للزاني المُحصن بين الجَلد والرجم، وهو مذهب عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبعض أهل العلم، أم يُكتفى بالرجم فقط؟ وفي المسألة أدلة لهؤلاء وهؤلاء، **والراجح** هو الرجم وحده؛ لأنه هو الذي أُقيم على ماعزٍ والغامدية، فلم يُذكر أن النبي ﷺ جمع لهما بين الجلد والرجم.

مسألة: إذا اختلف حال الزانيين، يقام على كل واحد الحد الذي يخصه، فلو أن رجلاً لم يتزوج زنا بثيب، فهو يُجلد، وهي تُرجم، ولو زنى رجلٌ متزوج

---

(1) صحيح البخاري: (8/ 168)، برقم: (6830)، وصحيح مسلم: (3/ 1317) برقم: (1691).

(2) ينظر: المغني لابن قدامة: (9/ 39).

(3) صحيح مسلم: (3/ 1324) برقم: (1696).

(4) صحيح مسلم: (3/ 1321) برقم: (1694).

(5) صحيح البخاري: (3/ 102) برقم: (2314).

ببكر، فهو يُرجَم، وهي تُجلد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾، **هذا هو الحكم الثاني**، وقدّمَ ذِكْرَ الزاني في الآية؛ لأن الأصل أن الرجل هو الذي يطلب الزواج من المرأة غالبًا، ومعنى الآية: أن الزاني لا تميلُ نفسُه ولا ترغب أن يعيش إلا مع من هي مثله في الوصف، والزانية لا تميلُ نفسُها ولا ترغب أن تعيش إلا مع من هو مثلها في الوصف، وبناءً على ذلك؛ فالزاني الذي صار من عادته الزنا، والتصق به هذا الوصف، ولم يتُب منه، فحكمه أنه لا يجوز له أن يتزوج بامرأة عفيفة صالحة؛ لأنه لا يصلح لها، ولا هو في مستواها، وكذلك المرأة الزانية التي صار من عادتها الزنا، والتصق بها هذا الوصف، ولم تتب منه، فحكمها أنه لا يجوز لها أن تتزوج رجلاً عفيفًا صالحًا، وقرن هنا بين الزانية والمشركة، لتشابه حالهما في عدم امتناعهما عن القبائح، **والمقصود من هذه الآية؛** هو التقبيح والتحذير من الاقتراب من الزُناة، **فقد جاء في الحديث:** **"أن رجلاً يُسمى مِرثد بن أبي مِرثد وكان يفك الأسرى من قريش، ويذهب بهم إلى المدينة، وبينما هو ذاهبٌ إلى مكة لفك بعض الأسرى المسلمين، رأته امرأة تُسمى عَناقًا، وكانت من الزانيات اللاتي لهن راية بِغاء، فقالت له: مرحبًا مرثد! هلُم فبتْ عندنا الليلة، قال: إن الله قد حرّم الزنا، فصرخت بأعلى صوتِها: هذا رجلٌ يسرِق أسراكم، فخرج الناس وتبعوه حتى هرب منهم إلى كهفٍ فجاؤوا إلى سطح الكهف، فبالوا عليه، فنزل البول على رأسه، قال فجلست حتى ذهبوا، ثم عُدت فأخذت صاحبي الأسير**

وكان ثقيلاً وأوصلته، فلما وصلتُ إلى المدينة، قلت: يا رسول الله أأنكِح عَناقًا؟ فسكت عني، فنزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾"[1]، فالزواج ممن هذا وصفه حرامٌ على المؤمنين، فإن المؤمن العفيف يتوقى من هذا حاله، ويبحث عن من هو مثله صلاحًا وتقوى.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾، **هذا هو الحكم الثالث**، وهو حد القذف، **وجاء الإحصان في القرآن على ثلاثة معانٍ، وهي**: العفيفة، **أو** المتزوجة، **أو** الحُرة التي ليست أَمَة، **ويُفهم المعنى المراد** من السياق، والمقصود به هنا المرأة المؤمنة العفيفة، وخصت المحصنات بالذكر مع أن الحُكم يشمل المحصنين أيضًا؛ لأن المرأة في الغالب هي من تغوي الرجل، والمقصود بالرمي هنا اتهامها بالفاحشة، كقوله: يا زانية، **فمن فعل ذلك فهو بين حالتين: إما** أن يأتي بأربعة شهود يُثبتون صحة ما قال، **وإما** أن يُجلد ثمانين جلدة، ونص على أن يكون الشهداء أربعة، وهؤلاء الأربعة لا بد أن يشهدوا شهادة واضحة بينة أن الزنا وقع فعلاً، وأنهم رأوه ينكحها دون شك!! فمن أين للشاهد أن يأخذ كل هذه التفاصيل؟!، وكيف يمكن لأربعة شهود أن تتفق شهادتهم على شخص بالزنا بهذه التفاصيل؟!، ولو نكِل واحد عن الشهادة يُجلد الثلاثة حد القذف؛ ولذلك فالأفضل عند عدم

---

(1) سنن الترمذي: (5/ 328) برقم: (3177)، وسنن النسائي: (6/ 66) برقم: (3228)، وصححه الألباني في الإرواء برقم: (1886).

تحقق هذا هو الستر، والخطاب للحاكم المسلم أو من ينوبه، وحد القذف أقل من حد الزنا في العدد، لكنه من حيث الوصف مثله، ثم ذكر ما يترتب على القذف من أحكام، فأبطل شهادة القاذفين، ووصفهم بالفسق، وبيّن أنها لا ترفع عنهم إلا بالتوبة الصادقة، فمن ندم على فعله، وأقلع عن الذنب، وأصلح حاله، وحفظ لسانه عن الطعن في الآخرين، فإن الله يغفر له ويتوب عليه.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، **هذا هو الحكم الرابع،** فبعد أن ذكر حكم من قذف امرأةً أجنبية، وأنه يلزمه إحضار أربعة شهود، أو يجلد حد القذف، فما الحكم لو رأى الرجل امرأته تقع في الزنا، فمن أين يأتي بأربعة شهود؟!! فإن تكلم جُلد، وإن سكت؛ سكت على باطل، وإن قتله قُتل به، **وقد ورد سبب نزول هذه الآية:** "أن هلال بن أمية، **قال:** يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد به، واجتمعت الأنصار **فقالوا:** قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن، فيضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في المسلمين، **فقال هلال:** والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا، **فقال:** يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئتُ به، والله يعلم إني لصادق، وبينما رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، **فنزلت:** ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾، فسرّى عن رسول الله ﷺ الوحي، **فقال:** أبشر يا هلال! قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا، **فقال هلال:** قد كنت أرجو ذلك

من ربي، فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها، فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما وذكّرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا.... الحديث"(1).

وقوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾، أي: يحلف الرجل فيقول: أشهد لله أن امرأتي وقعت في الزنا وإني لصادق، يقول ذلك أربع مرات، ثم يقول في اليمين الخامسة: لعنت الله عليه إن كان كاذباً في اتهامه لها.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾، وللزوجة أن تدفع عن نفسها حد الزنا، فتحلف أربع أيمان أن زوجها كاذب في اتهامه لها، ثم تقول في اليمين الخامسة: عليها غضب الله إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها، فإذا حصل من الزوج هذه الأيمان، **نتج عنها أربعة أحكام**: درء الحد عن نفسه، ونفي الولد عنه لو كانت حاملاً، والفُرْقَة الأبدية بين الزوجين، وإقامة الحد على الزوجة، فإن قامت وشهدت خمس شهادات، سقط عنها الحد، ولا نفقة لها ولا سُكنى.

لماذا قال في الرجل: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وفي المرأة: ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾؟

الجواب: لأن الزوج لا يجرؤ أن يتّهم زوجتَه بالزنا؛ لأن الفضيحة عليه، إلا إذا كان صادقاً مقهوراً، ولذلك يُحذّر في الخامسة إن كذب أن الله سيطردُه من رحمته.

(1) مسند أحمد: (4/ 33) برقم: (2131)، وسنن أبي داود: (3/ 569) برقم: (2256)، ورواه مختصراً البخاري، برقم: (4747).

وأما استخدام لفظ: ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾، فلأن المرأة غالبًا تكون هي المُتّهمة وتدرأ عنها العذاب بعد علمها بفعل الجريمة، ومن خالف الحق بعد علمِه به، فهو مغضوبٌ عليه، **كما وصف بذلك اليهود في قوله:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:7]، لأنهم خالفوا بعد العلم، ولذلك النبي ﷺ لما أتى بهذه المرأة ووصلت إلى الخامسة فأمر أحدَهم أن يقول لها: اتقي الله، عذاب الدنيا أشد من عذاب الآخرة، تلكّأت وكادت أن تعترف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فقال النبي ﷺ: **"فرّقوا بينهما"**، وكانت حاملاً، فقال ﷺ: **"إن أتت به على صفة كذا وكذا فهو للذي اتُهمت"**، فقال راوي الحديث: "فلما ولدت كانت هذا المولود أكثرهم غشية"، جاؤوا كلهم يريدون رؤيته، فإذا به على الوصف الذي وصفه النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: **"لولا أيمانٌ سبقت"**، وهو اللعان، "لكان لي معها شأن"[1].

ثم قال الله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾، الخطاب للمؤمنين، حيث تفضل عليهم بهذه الأحكام، التي فيها التخفيف حتى لا يقعوا في الحرج والمشقة، وبيّن أن الله كثير التوبة على عباده المذنبين، وأنه حكيم في أفعاله وشرعه.

(1) المصدر السابق.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن تطبيق الحدود دين، وعدم تطبيق الحدود نقص في هذا الدين.

2- أن الشرع ربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر في كثير من الأحكام الشرعية، وهو أسلوب تحفيز وتذكير، يدفعُ العبد إلى الانضباط والتنفيذ للأمر كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

3- شهود مجموعة من المؤمنين تنفيذ حد الجلد، لكي تحصل الفضيحة للمجلود فلا يرجع مرة ثانية إلى الزنا، وحتى يحصل اعتبار من حضر فلا يقع في هذا الذنب.

4- أن الرجم للثيب أو إقامة الجَلْد للزاني البِكر بشهادة الشهود، يكاد أن يكون منعدمًا، لصعوبة تحقق شروط الإثبات.

تفسير المقطع الثاني من سورة النور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، في هذه الآيات الحديث عن قصة الإفك، وهي قصة مشهورة حصلت في المدينة النبوية، في عهد النبي ﷺ، في السنة السادسة من الهجرة، في غزوةِ المُريسيع، وهو: ماءٌ لبني خُزيمة في الجزيرة، وتُسمى أيضًا غزوة بني

المصطلق، كما ذكر ذلك ابنُ إسحاق[1]، وذلك أن المنافقين اتهموا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا بالزنا، وأشاعوا ذلك في الناس بسبب حادثةٍ مُعينة، وقد جاء في الصحيحين[2] القصة بطولها في سبب نزول هذه الآيات، **وخلاصتُها**: أن النبي ﷺ كان إذا خرج في غزوةٍ وأراد أن يأخذ بعض زوجاته أقرع بينهن، فخرجت القرعة في هذه الغزوة على عائشة فخرج معها، فلما انتهوا من الغزوة، وأراد النبي ﷺ أن يرتحل بأصحابه، وكان لعائشة جمل عليه هودج، وهو عبارة عن شبه صندوق ولكنه من القماش، يُوضع على ظهر الجمل من أجل أن يستر المرأة أثناء الركوب فيه، فأذن النبي ﷺ لأصحابه بالرحيل، فجاء الموكلون بحمل الهودج على الجمل، وحملوه وعائشة ليست موجودة فيه، قالت عائشة: وكنتُ امرأة خفيفة، **أي**: لم تكن سمينة ولا ثقيلة في الجسم، فلم يشعروا هل هي موجودة، أم لا، لأنها ذهبت لقضاء حاجتها، فضاع عِقدُها، فانشغلت بالبحث عنه، فابتعدت عن مقر الجيش، فرجعت وقد ارتحل الجيش بهودجها فحوقلت، ثم قالت: فعدت إلى مكاني، فجلست فيه، فجاءني النوم فنمت، وهذا من فطنتها، حتى إذا افتقدوها رجعوا إلى مكانها، لأن تحركها من مكانها، والذهاب يمنة ويسرة، فيه إضلال لها ولهم، فبقيت في مكانها، وفي هذا إشارة إلى أن من ضاع يبقى في مكانه؛ لأن الغالب أن أصحابه سيبحثون عنه في المكان

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: (4/ 260).

(2) صحيح البخاري: (4/ 1517) برقم: (3910)، وصحيح مسلم: (4/ 2129) برقم: (2770).

الذي افتقدوه فيه، قالت: فما شعرت إلا بصفوان بن المعطل، وهو يُحوقل ويقول: زوجة رسول الله ﷺ، أم المؤمنين، قالت: وكان يعرفُني قبل أن ينزل علينا الحجاب، فلما سمعتُه خمّرت وجهي بخماري، فأناخ الجمل، ثم أركبها عليه، ثم قادها ولحق بالجيش، فأدركهم في نحر الظهيرة دون تخفي ودون أدنى شبهة، وسألها النبي ﷺ عن سبب ذلك، فأخبرته، وانتهى الأمر.!!

ولكن المنافقين وجدوا في هذه الحادثة فرصة للنيل من رسول الله ﷺ والطعن في عرضه، فأشاعوا أن هذا التأخر كان عن اتفاقٍ سابقٍ بين صفوان بن المُعطل وبين عائشة، وقد جاء في وصف صفوان بن المعطل أنه كان كثير النوم، فربما كان سبب تأخره هو النوم، فجاء يبحث عن الجيش، فوجد عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فأخذها معه، ومكث القرآن شهراً لا ينزُل، والمنافقون يتكلمون في هذه القضية ويُثيرونها، والنبي ﷺ يتألم، وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مرضت بعد هذه الغزوة، واستأذنت رسول الله ﷺ أن تُمرّض في بيت أبيها وهي لا تعلم بما أشيع عنها، وفي أحد الأيام زارتها أم مسطح، وهي خالة أبي بكر الصديق، وكان مسطحٌ من الذين شاركوا في حديث الإفك، فإن الإفك تناقله المنافقون، وتولى كِبره عبد الله بنُ أبيّ ابن سلول زعيم المنافقين، وتأثر به مجموعة من المسلمين منهم مِسطح بن أُثاثة وهو ابنُ خالة أبي بكر، وحسان بن ثابت شاعر الرسول الله ﷺ، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوجة رسول الله ﷺ أم المؤمنين، فأخبرت أم مِسطح عائشة بالقصة، فازدادت مرضًا، ورجعت إلى بيت أبيها، وسألت أمها وأباها، قالت: وكنت قد لمست ذلك الأمر من الرسول ﷺ أثناء مرضي فلم أجد

ما كنت أجده منه من قبل، فقد كان لما يدخل بيت أبي بكر يرد السلام، ويقول: "**كيف هاتِكم؟**" يعني: عائشة، ثم لا يتكلم، ولما استأذنتُه أذن لي، والشاهد أنها شعرت بالوحشة والألم، وجلست تبكي، بكت الليلة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة حتى كاد كبدُها أن يحترق من شدة بكائها، وجاء إليها النبي ﷺ، وقال لها: "**إن كنتِ ألميتِ بذنب فالله يغفر ويرحم**"، قالت: والله لو أني قلت لكم: إني بريئة فلن تُصدقوا، وإن قلتُ لكم: أني فعلتُ لصدّقتم، وذلك لما جرى من حديث وكلام طويل حول القصة خلال شهر، واستشار النبي ﷺ أصحابَه، فاستشار أسامة بن زيد، فقال له: ما علمنا عليها إلا خيراً، واستشار علي بن أبي طالب، فقال: إن رأيتَ منها ريبة، فالنساء غيرها كثير، ولكن اسأل الجارية تصْدُقك، والمقصود بالجارية خادمة عائشة، واسمُها بَرِيرة، فاستدعى بريرة فسألها، قالت: والله ما علمت عليها إلا خيراً، وإنما هي جارية حديثةُ السن تنامُ عن عجينتها حتى تأكلها الداجِن، ثم قام النبي ﷺ على المنبر، فقال: "**أيها الناس من ينصفني في أناس بلغ أذاهم إلى أهلي**"، فقام أحد الأوس فقال: إن كان من أصحابنا قتلناه، وإن كان من غيرنا فأمرنا نقتله، وقام سعد فتكلم، وحصلت ضوضاء بين الحاضرين، فأسكتهم النبي ﷺ، ثم ذهب إلى عائشة، فقالت: والله إني لأرجو أن يُبرِّئني الله، قالت: فلم يبرح مكانه من عندنا حتى نزل عليه الوحي، فقال: "**أبشري يا عائشة، قد أنزل الله فيكِ قرءانًا**"، وتلى هذه العشر الآيات، فقالت أمها: قومي إليه فاحمديه، قالت: والله لا أحمد إلا ربي الذي برأني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قام النبي ﷺ على المنبر وأبلغ الناس بها، ثم أمر بالثلاثة المسلمين،

وهم: حسان، وحمنة، ومِسطَح، فجُلدوا حد القذف، ثمانين جلدة، وأما المنافقون فلم يجلدهم؛ لأن الحدود تطهير للعصاة، وهؤلاء كفار لا يطهرهم الحد، فتركهم لعذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾، **أي**: اخترعوه، وفعلاً هم من اخترع القصة من الظن السيء بعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وهي زوجة النبي ﷺ، وبصفوان بن المعطل وهو من خيرة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، **والإفك** هو الكذب، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه[1]، **وسُمي الكذب** إفكًا؛ لأنه ضد الحقيقة، فالحقيقة أنه لا يوجد تُهمة، فكيف جعلتها تهمة، ومنه سمى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قرى لوط بالمؤتفكات، **كما قال**: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣﴾[النجم:53]؛ لأن جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رفعها إلى السماء ثم قلب عاليها سافلها، فانقلاب الشيء بطنًا لظهر، أو انقلاب المعلومة من حق إلى باطل يسمى إفكًا، ولماذا كان اتهام عائشة بالفاحشة باطلاً؟؛ لأنه لا يليق ولا يصحّ أن تكون زوجة نبيه ﷺ وهي غير عفيفة، فإن الله اختار لأنبيائه النساء العفيفات، **نعم** قد تكون زوجة النبي كافرة، لكن لا تكون فاجرة أو عاهرة، وما جاء في قصة نوح ولوط في **قول الله تعالى**: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم:10]، فليس المقصود بالخيانة في العرض، وإنما كانتا تنقلان الأخبار والأسرار لقومهما.

وقوله: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾، **أي**: مجموعة منكم، **قيل**: من الأربعة إلى الخمسة،

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 217).

وقيل: إلى العشرة، وبعضهم أوصلها إلى خمسة عشر، **وأصلها في اللغة**: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض[1]، وسماهم عُصبة تحقيراً لهم ولقولهم، فلا قيمة لقولهم في جانب تزكية جميع الأمة لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾، **أي**: من المسلمين، وأدخل المنافقين في الخطاب لأن ظاهرهم الإسلام، فالذين اخترعوا الإفك ليسوا يهوداً ظاهري الكفر ولا مشركين ظاهري الشرك، بل فعله من يُظهر الإسلام من المنافقين، ومن وقع في غفلةٍ من المسلمين.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، مع عظم هذه المشكلة التي حصلت في المدينة، وجعلتها في حالة حرجة لمدة شهر، إلا أن الله يبشر المؤمنين بثمرتها الطيبة وأن نتيجتها خير لهم، وهل المخاطَب بهذا القاذفون من المؤمنين، أو المقذوفون، أو عموم المؤمنين؟![2]، **قيل**: القاذفون من المؤمنين؛ لأن الله طهرهم بالحد بالدنيا، ولم يؤخر عذابهم إلى الآخرة، **وقيل**: المقذوفون وهم عائشة وصفوان؛ لأن البراءة قد حصلت لهم، وارتفعت درجاتهم بالتمحيص لهم، وعُرفت مكانتهم، ونزل فيهم قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، **وقيل**: عموم المؤمنين، وهو الراجح؛ لأنه يشمل كل من سبق، ولأن أهل المدينة من المؤمنين عاشوا مرحلة حرجة، واستفادوا من هذا الحدث فوائد كثيرة، وبعض الأحداث يكون ظاهرها شراً وهي خير، أو يكون ظاهرها خيراً وهي شر، **كما**

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 15).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (23/ 338).

قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾[البقرة:216]، لجهل الإنسان بحقائق الأمور.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ الضمير في "منهم" عائد إلى المنافقين ومن شاركهم من المؤمنين، فلكل من اشترك منهم جزاء ما اكتسبه من إثم الافتراء والإشاعة له؛ وذلك لأنهم متفاوتون في النشر والإشاعة، فلم يجعل عقابهم متساويًا، وإنما جعل لكل واحد منهم بقدر ما اكتسب من إثمه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾، ثم خص من تولى مُعظمه، وهو عبد الله بن أُبيّ، وأضاف الكبر إليه؛ لأنه كان هو من بدأ باستحداثه ونشره، وقد جاء في الحديث: **"أنه كان يستوشيه ويجمعُه"**[1]، ثم ينشرُه، فتوعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، ولم يُجلد ولم يُطهر بالحد في الدنيا؛ لأن عذاب الآخرة عظيم لا يساويه شيء من عذاب الدنيا.

ثم وعظ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المؤمنين الذين حصل فيهم هذا الحدث ومن جاء بعدهم بمجموعة من النصائح والتوجيهات والزواجر، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾، لولا بمعنى: هلاّ، وجيء بها للتوبيخ، ومحل التوبيخ جملة: ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، فأسند السماع إلى جميع المخاطبين، وخص بالتوبيخ من سمعوا ولم يكذبوا الخبر[2]، والمعنى: هلّا إذ سمعتم خبر الإفك، أيها المصدقون للخبر،

(1) صحيح مسلم: (4/ 2137) برقم: (2770).

(2) التحرير والتنوير: (18/ 174).

أحسنتم الظن بمن اتُهم به، وهما عائشة وابن المعطل، فأنزلهما منزلة النفس؛ بسبب أخوة الإيمان، **كما قال:** ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[النور:61]، **أي:** على إخوانكم المؤمنين، **والمعنى:** لو كنت أنت أو إحدى محارمك هو المتهم بهذه الفاحشة، فماذا ستفعل؟! **فإن المطلوب في هذه الأحوال** هو الظن الحسن بإخوانك المؤمنين، فلا تصدق الإشاعة عليهم من أول وهلة، بل قدّم حسن الظن على سوء الظن في كل من تثق في دينه وأمانته واستقامته من المسلمين، واستبعد وقوع الفاحشة منه، وهذا من ثمرة حسن الظن بالآخرين، فإذا سمعت عنهم كلاماً قبيحاً، فلا تنشره، بل قدّم حسن الظن وتثبت منه خاصة إذا كان المتهم موصوفاً بالعفاف والصدق والأمانة، **وقد رُوي** أن أبا أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال لأم أيوب: أما ترين ما يقال؟ فقالت: "لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءاً؟ قال لا، قالت: ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك"[1]، فانظر إلى هذا المرأة الصالحة الفطنة، كيف تعاملت مع الأمر، واقتدِ بفعلها.!

ثم قال: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾، هلّا جاء من افترى هذا القول واخترع هذا الإفك بأربعة شهود يشهدون على ذلك، فإن لم يفعل فهو قاذفٌ كاذب في دعواه؛ يُجلد حد القذف ثمانين جلدة، والواقع أنهم كاذبون في علم الله، فعليكم أن تُطالبوهم بالشهداء، فإن لم يأتوا بأربعة شهداء، تبيّن لكم أنهم كاذبون عندكم أيضاً.

(1) تفسير الرازي: (23/ 341).

ثم قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾، **أي:** إن من رحمة الله بالخلق ألا يُعاجلهم بالعقوبة على ما يرتكبون من جرائم في حقه أو في حق الآخرين، بل يُمهلهم ويُعطيهم فرصة للتوبة، ففضل الله هنا هو الإمهال لهم، وتأخير نزول العقاب عليهم، وإعطاؤهم فرصة للتوبة، وشملتكم رحمته فلم ينزل عليكم العذاب في الدنيا بل أعطاكم فرصة للتوبة حتى لا يقع عليكم عذاب الآخرة، **والمس، هو:** ملامسة الشيء للشيء، **والمعنى:** لأذاقكم شدة العذاب الأليم، بسبب الكلام الباطل القبيح الذي تحدثتم به ونشرتموه بين الناس، ووصف العذاب هنا بأنه عظيم تخويفاً لهم، ولأن فعلهم عظيم القبح، فسيكون عذابهم عظيماً بناءً على عظمة وقُبح الذنب.!

ثم وصف الحالة التي تم فيها انتشار حديث الإفك، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، **أي:** إنكم بمجرد أن سمعتموه تكلمتم به، والأصل في تلقي الخبر أن يكون بالأذن، فهي حاسة السمع، ثم يتفكر الإنسان ما سمعه بعقله، ثم يتحدث به بلسانه، ولكن لما لم يحصل التفكر فيه، وانتقل من الأذن إلى اللسان مباشرة، فتكلّمت به دون فهم؛ صار كأنه وصل إلى اللسان مباشرة وخرج منها،!! وهذا يدل على أنه لو تفكر المستمع للإفك، لظهر له بطلانه، ولما شارك في نشره أو التكلم به، وهو إشارة إلى أن الإشاعات إنما تنتشر حينما لا يُفكر في مدلولها ولم تعرض على العقل، ولو عرضها على العقل وفكر فيها لما قبلها، فالأصل في اللسان أنه يُعبّر عما في القلب، والأصل أن ما يسمع يعرض على العقل فيستوعبه، ثم تتكلم به اللسان، فإن لم يحصل ذلك، وتكلمت به الأفواه دون فهم وتفكر، فهو مجرد تخرُص وظنون

باطلة، وأوهام فاسدة، ليس فيها شيء من العلم، وكنتم تظنون أن ما تكلمتم به من الإفك أمر حقير وصغير، ولكنه في حكم الله عظيم قبحه وكبير إثمه، فهو طعن في امرأةٍ عفيفةٍ صالحة، وطعن في عرض رسول الله ﷺ، والله يغار على أنبيائه ورسله، وهذا يدلنا على أن الاستصغار للذنب يشجع على اقترافه والاستمرار عليه، حتى لو كان صغيرة من الصغائر، ولذا قيل: **"لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار"**[(1)]، **وقال بعضُ السلف**: لا تنظر إلى صِغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت[(2)]، ففي كِلا الحالين سواء فعلت ذنبًا كبيراً أو صغيراً، فأنت تعصي الله العظيم الكبير المطلع عليك.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، فأرشدهم في هذه الآية إلى التصرف الصحيح مع الإشاعات والكلام السيء في الآخرين، وخلاصتُه أن تترفّعوا عن الكلام في أعراض الناس، وتعظوا أنفسكم وتحذروها من أن تتكلم بالإفك، **قائلين لها**: لا يليق بنا ولا يجوز لنا أن نتكلم بهذا الأمر القبيح، لأن المطلوب منا أن نتكلم بالخير أو نسكت، **كما أمرنا في الحديث: "من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"**[(3)]، وهذا حكم عام في كل الأحوال، وأمرهم بتنزيه الله من أن يختار لنبيه زوجة غير عفيفة، إذْ لو حصل ذلك لكان نوعًا من النقص في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتقدس عن ذلك، **بل قولوا بألسنتكم**: هذا بهتان واضح بيّن،

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي: (3/ 295).

(2) ينظر: تفسير التستري: (ص:141).

(3) صحيح البخاري: (8/ 11) برقم: (6018).

والبهتان، هو: الشيء المُحير[1]، **كما قال**: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[البقرة:258]، **أي**: تحيّر، **والمعنى**: أنه كذب واضح البطلان، ومن شدة بطلانه وقبحه، يتحير السامع في تصديقِه لبُعده عن الواقع.

ثم قال الله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾، ينهاهم الله ويحذرهم أن يعودوا لمثله في الزمان المستقبل كله، والخطاب يصلح أن يكون لعموم المؤمنين، ويصلُح أن يكون خاصاً بالقاذفين منهم، **فإذا قلنا**: إنه لعموم المؤمنين، فتعودوا، **معناها**: تصيرون، **كما في قوله**: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف:89]، **بمعنى**: نصير إليها، **والمعنى**: من لم يقع منكم في هذا الإفك، فلا يصير إليه مستقبلاً ويقترف مثله، **وإن قلنا**: إن الخطاب للقاذفين من المسلمين، فيكون المعنى فلا ترجعوا إلى القذف والكلام في أعراض الناس نهائياً، فإن هذا الفعل يتنافى مع كمال الإيمان، فأرشدهم إلى ترك هذا الذنب مطلقاً، ليتحصل لهم الإيمان الكامل، لأن المؤمن الحق هو الذي يخاف الله ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه.

ثم قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، **أي**: يُوضح ويُفصل لكم البراهين والأدلة والحُجج على بُطلان الباطل وإحقاق الحق وتبرئة البريء ومعاقبة المذنب، وعليم، صيغة مبالغة من العلم؛ لأنه أحاط بكل شيءٍ علماً، وحكيم، صيغة مبالغة من الحكمة، فليس في أفعاله خلل أو قصور.!!

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ

(1) ينظر: العين: (4/ 35).

﴿أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾، **أي**: يرضون أن يشيع خبر الفاحشة؛ لأن الشيوع من صفات الأخبار، **والفاحشة هي**: الفعلة البالغة حداً عظيماً في الشناعة، وفحُش الشيء إذا قبُح[1]، **والمقصود بها** الزنا وما شابهه من الجرائم، فكيف لو فعلوها؟!، وأطلق هذا اللفظ على الزنا واللواط، لأنهما يتعلقان بإفساد الأعراض، واختلاط الأنساب، وخص الله الذين آمنوا بالذكر؛ لأنهم هم أهل العفة والصلاح، وعذاب الدنيا هو إقامة الحد عليهم، وهو الجلد ثمانين جلدة، وعذاب الآخرة هو دخول النار لمن لم يتُب منهم، ثم ذكر قاعدة عامة، وهي أن علم الخلق مهما كان كبيراً؛ فهو قليل في مقابل علم الله سبحانه، **وفي حديث موسى مع الخضر قال له: "ما علمي وعلمك في علم الله إلا كمثل ما أخذه هذا العصفور من ماء البحر"**[2] **أي**: نقطة واحدة في بحر عظيم.!!

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، وفضل الله ورحمتُه على المؤمنين، بالإمهال وفتح باب التوبة لمن تاب، والمغفرة لمن أخطأ وأناب، والفضل هو الزيادة من العطاء، والرحمة هي العفو عنهم ومغفرة ذنوبهم، وجواب لولا محذوف، **والتقدير**: لحصل لكم الهلاك والعنت والمشقة والتعذيب، ولكن الله رؤوف بكم ورحيم بخلقه، وجمعهما مع بعض ليكتمل عطاء الله ورحمته وخيره للبشرية، وخاصة للمؤمنين الممتثلين لأمره وشرعه.

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 1014).

(2) صحيح البخاري: (6/ 88) برقم: (4724).

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - استغلال المنافقين لأي خللٍ في المجتمع المسلم من أجل نشر الفاحشة فيه، وما زال المنافقون إلى اليوم يستخدمون هذه الأساليب، وإن اختلفت أشخاصُهم فأساليبُهم مستمرة وأفعالهم القبيحة متتالية في المسلمين، فليحذر المؤمن من المنافقين.

2 - أنه يوجد بين المؤمنين أناس ضُعفاء التفكير يُصدقون شبهات المنافقين، وكان ذلك في عهد الصحابة، فكيف بحال الناس اليوم؟!.

3 - أن هذه الآيات العشر التي تحدثت عن الإفك، فيها تكريم لرسول الله ﷺ، وزوجته عائشة، ولآل أبي بكر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

4 - أجمع العلماء من عهد الصحابة إلى اليوم على أن من اتهم عائشة أو قذفها أو تكلم في عرضها أنه كافر خارجٌ من الملة، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم؛ لأن في ذلك تكذيب للقرآن الكريم الذي برأها الله فيه.

5 - يجب على المسلم أن يتثبت من أي شائعة يسمعها، ولا يتكلم بها ولا يثيرها، وأن يظن بإخوانه المؤمنين خيراً.

6 - أن الراضي بالفاحشة كالفاعل لها.

7 - أن علم الخلق مهما كان كبيراً، فهو قليل في مقابل علم الله سبحانه.

تفسير المقطع الثالث من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك، والنداء بصفة الإيمان فيه حث للنفوس المؤمنة وتذكيرها بوجوب امتثال الأخلاق الفاضلة، والابتعاد عن الأخلاق الرذيلة، كالطعن في الأعراض واتهام الناس بالفاحشة، فليست هذه من أخلاق المؤمنين، وما يقع به بعض المؤمنين من تلك المخالفات فسببه اتباعُهم لخطوات الشيطان، **لذلك نهى**

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المؤمنين أن يسترسلوا في متابعة خطوات الشيطان، **والاتباع هو:** السير وراء الآخر، **فيقال:** اتَّبع فلانٌ فلانـًا إذا سار وراءه[1]، **والخطوة في اللغة هي:** المسافة بين الرجلين عند المشي[2]، **والمقصود بخطوات الشيطان:** أساليبه التي يخدع بها الناس **مثل:** تحسين وتزيين الباطل والوسوسة، ونحوها، فكأن الشيطان صار دليلاً لمن يمشي خلفه، ونهاية طريق الشيطان معروفة، **كما في قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾[فاطر:6]، فهو داعية إلى النار، ولكنه يستخدم التدرج في إغواء الناس، ويأخذهم إليها خطوة خطوة، فالشيطان لا يطلب من المؤمن أن يكفر بالله مباشرةً أو أن يسجد لصنم، ولو فعل ذلك لوجد من المؤمن ابتعاداً وصُدوداً، ولكنه يبدأ معه من المعاصي الصغيرة، ثم يتدرج معه إلى التي تليها، وهكذا حتى يصل به إلى الكفر، وسُمي الشيطان شيطانـًا لبُعده عن الخير، وكل من يبتعد عن صفات الخير، يُسمى شيطانـًا من الإنس والجن[3]، **كما في قوله:** ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[الأنعام:112]، **والحيوان، كما في الحديث:** **"الكلب الأسود شيطان"**[4]، وجعل الأسود منها شيطانـًا لخبثها، لأن الأسود البهيم أضرها وأعقرها[5].

---

(1) ينظر: تاج العروس: (20/ 380).

(2) ينظر: المصباح المنير: (ص:93).

(3) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (5/ 2144).

(4) سنن أبي داود: (1/ 187) برقم: (702)، وسنن الترمذي: (1/ 441) برقم: (338)، وإسناده صحيح.

(5) شرح السنة للبغوي: (11/ 212).

وقولـه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، **بيّن هنا** ثمرة متابعة الشيطان، فشأن الشيطان وحاله هو أن يأمر أصحابه ويُزين لهم ويدلهم على الفحشاء، وهي: كل ما فحُش وغلُظ وازداد قُبحُه من فعل أو قولٍ أو اعتقاد، والمنكر كل ما استنكرته النفوس السوية، وهو ضد المعروف، فيدخل في ذلك عموم المعاصي، وعطف المنكر على الفحشاء هنا من باب عطف الخاص على العام، لمزيد من البيان.

ثم قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، الخطاب للمؤمنين، لبيان فضل الله ومنته عليهم، **والمعنى:** لولا أن الله منحكم الهداية والتوفيق والحفظ من الشيطان؛ ما طهر منكم من أحد، **أي:** ما طهُرت نفسُه وما ذهب ما فيها من خبث وسوء، ولا قوي إيمان أحد وارتفع خلُقُه الحسن، ونكّر لفظ (أحد) ليشمل كل الأفراد وأكده بـــ (أبداً) ليشمل كل الأزمان المستقبلية.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ٱللَّهَ﴾، **أي:** إن الزكاة التي حصلت لأنفسكم، ليست منكم ولا بسبب ذكائكم وقدرتكم، ولكنّها من الله، فالله هو الذي يُوفق ويُلهم ويمنح طهارة النفس ونمو الإيمان لمن يشاء من عباده.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، سميع، صيغة مبالغة من السمع، فوسع سمعُه كل صوت، وعليم، صيغة مبالغة من العلم، فوسع علمُه كل شيءٍ، وفي التعقيب بهذين الاسمين تهديد ووعيد لمن يتبع خطوات الشيطان، فالله مُطلعٌ على حركاتِه وسكناتِه وجميع وساوسه وخواطره!!.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، **هذه الآية نزلت** في أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1]، وذلك أنه لما سمع بأن مِسطح بن أُثاثة، ابن خالته، شارك في الإفك، وكان رجلاً من المهاجرين الفقراء، وكان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُنفق عليه، وعلى أسرته، ولما خاض في الإفك وتكلم في عائشة مع المنافقين، تألم أبو بكر من فعلِه هذا، فحلف أبو بكر ألا يُنفق عليه، فأنزل الله هذه الآية عتاباً لأبي بكر، فكفّر أبو بكر عن يمينه، وعاد إلى النفقة عليه، **فقوله**: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **أي**: ولا يحلف ويمتنع أصحاب الفضل، وهو الإيمان والتقوى، والسّعة **أي**: المال، والمقصود به أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهو أفضل الصحابة على الإطلاق، والحكم عام في غيره أن لا يحلف أحد على ترك عمل صالح[2]، ثم ذكر ثلاث صفات موجودة في مِسطح: فهو قريب لأبي بكر، ومسكين، ومهاجر من مكة إلى الله ورسوله، فهو مستحق للنفقة، ولو أخطأ على أبي بكر وشارك في الإفك، وقد جُلد وطهّر من هذا الذنب.

وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾، وهذا أمر لأبي بكر بالعفو والصفح عنه، وربط العفو والصفح عنه بأسلوب المقايضة، وبدأه بأسلوب التحفيز والحث!! **فقال**: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، **والمعنى**: اعفوا واصفحوا عنه؛ كي يغفر الله

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 136).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1225).

لكم، فلما سمع أبو بكر هذه الآية، قال: بلى والله إني أُريد أن يغفر الله لي، وقد عفوت وصفحت عنه، وأرجعت له نفقته، والله لا أنزعُها عنه أبداً!![1]، **فهذه الآية تدل** على فضيلة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعلى سرعة استجابته، وعلى مدح الله له أنه من أهل الدين والفضل، وأهل المال، وأن ماله هذا أنفقه كله في سبيل الله، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

وما الفرق بين العفو والصفح؟، العفو: ترك العقوبة، **والصفح:** ترك المعاتبة، وجمع بينهما لتحقق الكمال، لأنه يمكن أن تعفوا عن شخص بترك عقوبته، ولكنك ربما إذا رأيته عاتبته على ما صدر منه، فالعقوبة هي ترك النفقة، وقد أرجعها له، والصفح هو عدم المعاتبة له مستقبلاً، وكأن شيئًا لم يحصل منه!!

ودلت الآية على قاعدة عامة: أن من أراد أن يحصل على مغفرة الله وعفوه، فليُسارع إلى العفو والصفح عن المخلوقين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، **وقد جاء في الحديث:** **"كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله، فتجاوز عنه"**[2]، **وفي هذا** العلاج والبلسم الشافي لما يُسمى الألم النفسي، الذي يحصل للنفس من أذى الآخرين.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾، وهذا يدل على أن مسطحًا مذنب، وأن الله قد غفر له، ودل على أن فعل أبي بكر في قطع النفقة خلاف الأولى، والله قد غفر له ذلك.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 31).

(2) مسند أحمد: (14/ 344) برقم: (8730) بنحوه، وإسناده صحيح.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾، قيل المقصود بها عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة[1]، والراجح أنها عامة تشمل كل مؤمنةٍ محصنة غافلة[2]، فالمؤمنة هي: المستقيمة في دينها، والمحصنة التي حفظت فرجها من الحرام، والغافلة: البعيدة عن التفكير في الذنب، والبعيدة عن موطن الريبة، فالثلاثة الأوصاف تنطبق على عائشة من باب أولى، فمن اتهم وقذف مؤمنة عفيفة غافلة بالفاحشة فإنه يستحق الطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولعنتهم في الدنيا تكون على ألسُن الناس، ولعنتُهم في الآخرة تكون بطردهم من الجنة، فهي رحمة الله في الآخرة، كما في الحديث القدسي أنه قال للجنة: "أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشاء"[3]، ومتوعدون بالعذاب العظيم في نار جهنم، ويدخل في ذلك من يطعن في عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا إلى اليوم، ومن يرمِي امرأة مؤمنة عفيفة غافلة، فهو ملعون ومطرود من رحمة الله في الدنيا والآخرة ما لم يتب من ذنبه هذا توبة صادقة مقبولة.

ثم قال الله: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾، أي: هؤلاء الذين يرمون المحصنات، ستشهد عليهم ألسنتُهم يوم القيامة بما تكلموا به، وأيديهم وأرجلهم بما عملوا بها في الدنيا، لأن العبد الذي تعود المغالطة والكذب في الدنيا، يحاول أن يفعل ذلك في الآخرة، فيقول: يا رب، لا أقبل

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 180).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 33).

(3) صحيح البخاري: (6/ 138)، برقم: (4850).

شاهداً إلا من نفسي، فيعطيه الله ما طلب، كما قال الله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾[يس:65]، فتصير جوارحُه هي الشهود، فتشهد عليه بما كان من الأعمال الباطلة القبيحة في الدنيا.

ثم قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾، **أي:** يُجازيهم الله يوم القيامة الجزاء الثابت الذي لا شك في ثبوته، بالقدر الذي يستحقونه بلا زيادة ولا نقصان، ويتبيّن لهم ويستقر عندهم بهذا الحكم العادل في ساحة المحشر، أن الله هو الإله الحق الظاهر الذي لا شك فيه، فهو المعبود بحق، وهو الحق في أُلوهيته، ووعده ووعيده، وأحكامِه وشرعه، وأن ما كانوا يتخيلونه من حق لشركائهم، فهو باطل زاهق لا وجود له.

ثم قال: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾، **ذكر هنا أربعة أصناف**، **صنفين** من الذكور، **وصنفين** من الإناث، **صنفين** طيبين، **وصنفين** خبيثين، **فالطيب**: اسمٌ لكل ما طاب وحسُن وقُبِلَ، **والخبيثُ**: اسمٌ لكل ما خبُثَ وقبُح ورُفِضَ، ويشمل ذلك كل شيء من الأسماء والأشخاص والأقوال والمعتقدات والأزمنة والأماكن والمأكولات والمشروبات ونحوها، **كما قال:** ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾[الأعراف:58].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:157]، **ولكن المقصود بها** هنا الرجال والنساء، فالخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء

للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[1]، **والمعنى**: أن الخبيث لا يميل إلا إلى خبيث مثله، والطيب لا يميل إلا إلى طيب مثله، كما **قيل**: "إن الطيور على أشكالها تقع"، وهذا مشاهد في واقع الناس اليوم في العلاقات والصداقات واللقاءات ونحوها، فكل شخص يميل إلى من يُشابهه، وفي الآية إشارة إلى أن محمداً ﷺ هو الطيّب المُطيّب، فكيف يأذن الله له أن يتزوج امرأة خبيثة تقع في الزنا، فبطلت التهمة من أصلها، وثبت أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طيّبة مطيّبة!!.

فائدة: مشهور عند العوام أنهم إذا شموا الطيب، قالوا: "اللهم صل على محمد"، فما علاقة الصلاة على محمد ﷺ بالطيب؟! **الجواب**: هذا استشعار نفسي، واستذكار للطيّب المطيّب محمد ﷺ، حيث يلوح ذكره في خاطرهم بشم الطيب، فيصلون عليه!!، وليس ذلك من البدع، كما يظن بعض الناس، ومما ينسب لابن الأمير الصنعاني أنه كان إذا طيّبه شخص؛ صلى على النبي ﷺ، فسئل هل في ذلك سنة واردة؟، **فأنشد يقول**:

يقولون: عند الطيب تذكر أحمداً فهل عندكم من سنة فيه تؤثرُ

فقلت لهم: لا، إنما الطيب أحمد فأذكره، والشي بالشيء يُذكرُ

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾، **أي**: أولئك الطيبون الذين قيل فيهم الإفك مُبرّءون من التهمة، **وفيه الإشارة إلى**

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1229).

عائشة وصفوان بن المُعطل، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعبّر بلفظ: أولئك؛ لعلو منزلتهم، وتخيّل أن الله العظيم السميع العليم يشهد لهم بالبراءة، مُقابل التهمة من البشر الجاهلين المقصرين، وحذف كلامهم الذي قالوه فلم يذكره احتقاراً له، ثم ختم الله الآية بذكر جزائهم على ما أصابهم، وما حصل لهم من ابتلاء، فمنحهم المغفرة لذنوبهم، والرزق الكريم، وهو دخول الجنة.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن الشيطان يبدأ مع المؤمن بالمعاصي الصغيرة، ثم يتدرج معه إلى التي تليها، وهكذا حتى يصل به إلى الكفر.

2 - أن الهداية والتوفيق والحفظ من الشيطان، وحصول التزكية للعبد، ليس بسبب ذكائه وقدرته، وإنما هو فضلٌ من الله ومنّة.

3 - أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من أولي التقوى والإيمان والمال، وأنه كان سريع الاستجابة لأمر الله.

4 - أن من اتهم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد نزول براءتها، فهو كافر ومطرود من رحمة الله.

5 - أن من يرمِي أي امرأة مؤمنة عفيفة غافلة، فهو مطرود من رحمة الله، ومتوعد بالعذاب بالآخرة إن مات دون توبة صادقة.

تفسير المقطع الرابع من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾، هذه الآيات ذُكرت بعد قصة الإفك، والمناسبة بينهما أن النظر إلى

عورات الناس سببٌ من أسباب الوقوع في الفتنة ووسيلة إلى الزنا، فشرع الله لعباده مجموعة من الآداب التي تحول بينهم وبين أن يقعوا فيما حرّم الله عليهم، فأمرهم بالاستئذان حين الدخول إلى بيوت غيرهم، أما بيوتهم فالأمر فيها أخف، والمُستحب لك أثناء الدخول إلى بيتك أن تدخل بصوتٍ مسموع، حتى لا ترى عينُك شيئًا غير مناسب من أهلك، وكل ذلك من أجل أن تأتلف النفوس، وعبّر هنا بالاستئناس الذي هو ثمرة ما بعد الاستئذان، فالاستئناس معناه: أن تجد الأُنس والرضى والقبول من أهل البيت، وهو خلاف الاستيحاش[1]، فهو أبلغ من الاستئذان، لأنه قد يؤذن لك، ولكنك تشعر من طريقة الإذن بعدم رغبتهم بدخولك، كأن يكون الوقت غير مناسب، أو لديهم ما يشغلهم، فالأصل في هذه الحالة ألّا تدخل، والحكمة من الاستئذان أن لا تقع عينك على عورات الآخرين في بيوتهم، **وفي الحديث**: **"إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر"**[2].

وقوله: ﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، وهذا أدب آخر يلازم الاستئذان، بل هو قبله، فقد جاء في الحديث بيان كيفية الاستئذان، وهو أن يقول الشخص: "السلام عليكم، أأدخل؟"[3]، **أي**: يرد السلام ليُسمعهم فيستأذن، فإذا سُئل: من أنت؟ فيقول: أنا فلان، **ومن الآداب**: أن تستأذن من جهة الشمال أو من جهة اليمين

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 23).

(2) صحيح البخاري: (8/ 54) برقم: (6241).

(3) سنن أبي داود: (4/ 345) برقم: (5177)، وسنن الترمذي: (4/ 350) برقم: (2690)، وإسناده صحيح.

من الباب، وأن لا تقف أمامه؛ لأن الهدف من الاستئذان حماية البصر من رؤية عورات الآخرين، **ومن الآداب:** أن يستأذن ثلاثـًا، ومثله أن يدق الباب ثلاثـًا، فإن أُذن له بعدها وإلا رجع، وقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط، فدلت على أنه إن قدّم الاستئذان على السلام أو قدّم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه(1).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾، الضمير يعود إلى الاستئذان وإلقاء السلام، **وخير:** جاءت في موضع التفضيل مع أنه لا تفضيل هنا، فالتفضيل يكون بين شيئين متساويين في الحكم أو في الصفة، كالدخول خير أم الخروج، والاستئذان واجب، وعدم الاستئذان ممنوع، **فيكون المقصود بها هنا** ثمرة الاستئذان ورد السلام، **أي:** في فعلهما خير ونفع لكم، ولهما آثارٌ عظيمة في حياتكم، ثم بيّن العلة من ذلك وهي الاتعاظ والامتثال لأوامر الله سبحانه.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾، وهذا إخبار عن حال البيوت، لأنك قد تذهب إلى بيت فتستأذن، فيوجد فيه ناس فتُسلم عليهم ويأذنون لك، أو تذهب إلى بيتٍ تستأذن وتُسلم ولا يرد عليك أحد، لأنه لا يوجد في البيت أحد، أو يوجد فيه أناس ولم يأذنوا لك؛ فترجع، وقد سبق ذكر حكم الأول، وذكرت هذه الآية حكم الثاني، وهو عدم الدخول إليها، حتى يؤذن لك، لأن دخولك إلى بيت غيرك وهو غير موجود تعدٍ لحرماته، ثم ذكر حكم القسم الثالث منها، وهو

(1) التحرير والتنوير: (18/ 199).

الذي فيه ناس ولم يأذنوا لك، بل طلبوا منك الرجوع عن الدخول، فارجع ولا تدخل، خاصةً أن الآيات نزلت في حالٍ لم يكن للبيوت آنذاك أبوب مغلقة، بل كانت عبارة عن ستائر من الثياب ونحوها يستر بها من بداخل البيت، وفيه إشارة إلى أهمية تربية الناشئة والأطفال على كيفية الاستئذان، فبعض الجيران قد يُرسل ابنه إلى جاره، فيذهب فيدق الباب مراراً وتكراراً، ولا يرجع هذا الطفل حتى يفتحوا، وإذا لم يفتحوا يستمر في طرق الباب، وربما يخرج صاحب البيت فيضربه، وربما تحصل فتنة بسبب قلة الأدب، والأصل أن لا يزيد المستأذن عن ثلاث مرات، **وفي الحديث**: "أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ، حتى سلم ثلاثًا، ورد عليه سعد ثلاثًا، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ، واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا هي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك، ومن البركة، ثم أدخله البيت"(1).

وقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾، **أي**: امتثال أمر الرجوع وعدم الدخول إذا لم يأذن لك صاحبُ الدار، فهذا أطهر وأطيب لنفوسكم وأخلاقكم، والله عليم بالذي بما في قلوبكم، فقد ترجعون وأنتم مستأنسون وراضون، وقد أعذرتم من لم يأذن لكم، أو ترجعون متأففين تتكلمون في عرضه؛ لأنه لم يأذن لكم، فكل هذه الأحوال يعلمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

(1) مسند أحمد: (19/ 397) برقم: (12406)، وإسناده صحيح.

والأُسلوب خبري، ولكنه يفيد التهديد والوعيد لمن لم يمتثل الأمر بطيب نفس!، وفي الآية إشارة إلى أدب عظيم، وهو فضيلة قول الحق بأسلوب لا أذية فيه، وفضيلة قبول الحق ولو كان خلاف ما تهواه النفس.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هذا قسم آخر من البيوت، وهي البيوت غير المسكونة كالتي كانت تُبنى على الطرقات لعابري السبيل، ونحوها، فهذه ليست ملكاً لأحد، فهذه يجوز أن تدخلها بدون استئذان، ولكن يستحب أن تفعل فيها ما تفعله في بيتك مع أهلك، فتذكر الله من أجل التنبيه فقط، **ويلحق بمعنى البيوت غير المسكونة:** الأسواق، والمطاعم، والمستشفيات، والدوائر العامة، ونحوها، **والمتاع المقصود به** المنفعة العامة لكم[1]، كالعلاج والأكل والبيع والشراء، ونحوها، فهذا النوع من البيوت، قد رفع الله فيه الحرج، وهو الإثم على من دخلها بدون إذن، ثم ختم الله موضوع الاستئذان للبيوت بأنواعها بأن الله يعلم بما نعلن وما نكتم في نفوسنا من الرضى وعدمه، بهذه التوجيهات الشرعية، وهو إشعار بالتهديد والوعيد للمخالف لها، وإشعار الممتثل لها بالمدح والثناء والأجر.

ثم قال الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، أمر الله رسوله أن يأمر المؤمنين بغض البصر، وخصهم بهذا الخطاب؛ لأن المؤمن هو المعني بمثل هذه الآداب والأخلاق،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 24).

أما الكافر فما زال بعيداً عنها، **ومعنى الغض في اللغة**: الكف للشيء[1]، **والمعنى**: لا ينظروا إلى ما لا يحل لهم نظرة تفحّص وتأمل، بل يكف النظر ويصرفه عند النظر إلى ما فيه فتنة، ومن للتبعيض **أي**: غُض بعضاً من بصرك، لأن الغض التام لا يمكن[2]، والمطلوب عدم التحديق فيما فيه فتنة، وربط بين غض البصر وحفظ الفرج؛ لأن البصر بريدٌ إلى الفرج، فإذا نظرت بعينك إلى النساء، تحركت الشهوة في قلبك، فيؤدي ذلك إلى الوقوع في الفاحشة، وهذا مشاهد وواقع اليوم، ولذلك تجتهد وسائل الإعلام السيئة في نشر الصورة الخليعة، لتحفيز الناس على الحرام والفاحشة، لأن من أطلق بصره في النظر إلى النساء؛ فإن الشيطان يقوده خطوة خطوة إلى أن يقع في الفاحشة، **والفَرْجُ** مأخوذٌ من الفُرجة، **فيشمل الفرْج**: الدُبُر والقُبُل في التحريم، ففيه تحريم الزنا، وتحريم اللواط، **ويطلق عليه اليوم مصطلح**: (الشذوذ الجنسي)، وقد انتشر على نطاق واسع وصار للشواذ مجتمعٌ خاصٌ، **يُسمى**: مجتمع (الميم)، **وأطلق عليهم مصطلح**: (المثليين)، **ويعني**: أن كل واحد يستمتع بمثله، رجل برجل، وامرأة بامرأة، ولهم منظمات دولية تدعمهم، وتبنّت دعمهم الأمم المتحدة وعدد من الدول الغربية، فأخرجوهم من وضع الاحتقار والنبذ لهم إلى وضع التشجيع لهم والترحيب بهم والمطالبة بحقوقهم، وتشجيع غيرهم للالتحاق بفِعلتهم القبيحة، نسأل الله السلامة والعافية، وحفظ الفرج يتضمن: ستره وعدم كشفه؛

---

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 1095).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (18/ 203).

لأنه من العورة المغلظة، وحفظُه من الاستمتاع المحرم، فيشمل حفظه من جميع **أنواع المحرمات المتعلقة بالفرج**: كالزنا، واللواط، والعادة السرية، وهو الاستمناء باليد، ونحوها، واسم الإشارة (ذلك) يعود إلى غض البصر وحفظ الفرج، والتزكية هي الطهر والعفاف، **والمعنى**: إن الذي يغض بصره ويحفظ فرجه، فقد أخذ بأسباب التزكية من القبائح، **وذيّل الآية بجملة**: إن الله خبير بما يصنعون؛ لإشعار الناس أنه مطلع على دقائق ما يصنعون، وهو أسلوب يفهم منه التهديد والوعيد لمن خالف أوامره، والمدح والثناء لمن امتثل أمره.

ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وجاء الخطاب استقلالاً للمؤمنات، مع أن لفظ المؤمنين يشملهن من باب التغليب، ولكنه أفردهن بخطاب خاص، لخطورة الأمر وأهميته، فكل واحد من الجنسين يجب أن ينتبه لنفسه، وما سبق بيانه في معنى غض البصر وحفظ الفرج للرجال، ينطبق على النساء، وفيه أيضاً تحريم السحاق، وهو أن تتمتع المرأة بالمرأة، وتحريم العادة السرية عليها، ثم ذكر حكماً يخص المرأة، وهو ستر الزينة؛ لأن المرأة من صفاتها التزين، **كما قال**: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾[الزخرف:18]، فالمرأة تُربى وتُنمى على التحلي والتزين والتجمل، وزينة المرأة تفتن الرجل، فالمطلوب منها إخفاؤها، ولذلك أمرت المرأة بالحجاب، وأما الرجل فالأصل فيه الشدة والقوة والظهور والبروز، ولذلك لم يُؤمر الرجال بالحجاب، وأُمرت المرأة أن تحتفظ بزينتها لمن يجوز لهم أن يطلعوا عليها فقط، أما الذين لا يجوز لهم أن يطلعوا على

زينة النساء فالمطلوب من المرأة أن لا تُظهرها لهم، وهذه الآية إحدى آيات وجوب الحجاب على المرأة، **فالزينة تشمل أمرين: زينة فطرية، وزينة مكتسبة، فالزينة الفطرية** هي الجمال الموجود فيها خِلقةً من الله، **والزينة المكتسبة** التي تضيفها المرأة على جسدها، **مثل**: الكحل، والحُلي التي تلبسها، والحناء والخضاب والمساحيق، والثياب الجميلة التي تلبس فتُظهر مفاتن المرأة، ونحوها، فهذه من الزينة المكتسبة، والمرأة مأمورة بحفظ زينتها الفطرية والمُكتسبة، واستثنى ما ظهر من الزينة، وهو: ما انكشف بدون إرادتها، أو ما ظهر من وجهها ويديها، وهذا عند من يرى أن الوجه والكفين ليسا بعورة[1]، **ولكن الراجح عند جمهور العلماء**[2]: أن الوجه والكفين إذا كانا سبباً لفتنة الرجال أنهما يُغطيان؛ لأن مكان زينة المرأة في وجهها، وإنما يؤذن للمرأة غير الجميلة ولا تفتن من نظر إليها أن لا تتغطى كما كان حال الإماء قديماً، فقد كان يؤتى بهن من بلاد أفريقيا وبلاد الزنج، وغيرها، ولم يكنّ جميلات ولا يفتتن بهن العرب.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وهذا دليل آخر لمن يرى أن الوجه عورة، فإن الضرب معناه: إسدال الخمار من الرأس إلى الصدر، لأن الخمار هو ما تختمر به المرأة، وهو الغطاء الذي يلبس على الرأس، والجيوب هي شقوق الثياب التي تكون على الصدور، فأمرت النساء بسدل الخمار عليها، حتى لا ينكشف الصدر والثديين.

---

(1) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: (31/ 44).

(2) ينظر: عودة الحجاب، للمقدم: (3/ 474).

وقولـــــــــه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، كرّر النهي عن إظهار الزينة، ثم استثنى من يجوز له أن يرى زينة المرأة، سواء كانت الزينة الفطرية أو المكتسبة، **والمقصود بها هنا** ما ليس بعورة مُغلظة، **مثل**: وجهها، وشعرها، وسواعدها، وشيئًا من ساقيها، فهذا يجوز إظهاره لمن ذُكروا في هذه الآية، وهم: اثنا عشر صنفًا: البعل وهو الزوج، وآباء الزوجة وإن علوا، وآباء الزوج وإن علوا، وأبناء المرأة نفسها، أو أبناء أبنائها وإن نزلوا، وأبناء الأزواج وإن نزلوا، ولو كانوا من زوجة أخرى، وإخوانهن أشقاء أو لأب أو لأم، وأبناء إخوانهن وإن نزلوا، وبنو أخواتهن وإن نزلوا، ولم يُذكر الخال والعم هنا وهم من محارم المرأة، ولكنهم مذكورون في آيات أخرى، ثم ذكر غير المحارم من الرجال، وهنّ من تثق فيهن المرأة من النساء سواءً كانت مؤمنة أو غير مؤمنة، وأما من لا تثق فيها فلا تظهر عليها ولو كانت مؤمنة؛ لأنها ستصفها للرجال الأجانب، وذكر مِلك اليمين، ويُطلق على العبد والأمة، وخصه البعض بالأمة المشركة.

وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء(1)، **واستدلوا بحديث**: "**إنما هو أبوك وغلامك**"(2)، أما عبد غيرها فهو رجل

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 48).

(2) أخرجه أبو داوود برقم: (3928)، وصححه الألباني.

أجنبي، فلا تظهر عليه المرأة، والتابعون هم من يتبع أهل البيت، وهم عموم الخدم ونحوهم، ممن ليس عنده شهوة ولا حاجة له في النساء، كأن يكون شيبة هرمًا، أو رجلاً مخبولاً لا يفهم ولا يفكر في الشهوة، ثم ذكر الطفل الذي لم يُميّز، ولا يفكر في هذه الأمور، ويختلف الحكم من طفل لآخر بحسب حاله، وأطفال اليوم ليسوا كأطفال الأمس، فأطفال اليوم قد أصبحوا يفهمون ويميزون في سن مبكرة بسبب وسائل الإعلام وما يرونه فيها من تهييج للشهوات وتفسخ في العورات، فلينتبه لهم.!!

ثم قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، نهى عن استخدام وسائل الإثارة من المرأة للرجل، فقديمًا كانت المرأة تلبس الخلخال في رجلها، فإن ضربت رجلها أثناء المشيء صار للخلخال صوتٌ؛ فيلتفت الناس إليها، وهو من الزينة المخفية، ويدخل في هذا النهي كل وسيلة من وسائل الإثارة للرجال فلا تلبسها ولا تستخدمها.

ثم قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾، أمر الجميع بالتوبة من الخلل والتقصير أو الوقوع فيما يُخالف أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن هذه الأحكام قلّ أن يمتثلها الإنسان كاملة، والتوبة مطلوبة من المؤمنين جميعًا، وعلّل الأمر بالتوبة بالفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، فالتوبة أحد أسبابه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن النظر إلى عورات الناس سببٌ من أسباب الوقوع في الفتنة والريبة، وهو بريد ووسيلة إلى الزنا.

2- أن الاستئناس هو ثمرة ما بعد الاستئذان، فالاستئناس معناه أن تجد الأُنس والرضى والقبول من أهل البيت عند دخولك إلى بيوتهم.

3- يجب أن يربى الناشئة والأطفال على كيفية الاستئذان الصحيحة، حتى لا يؤذوا الجيران.

4- زينة المرأة تشمل أمرين: زينة فطرية، وزينة مكتسبة، فالزينة الفطرية: هي الجمال الموجود فيها خِلقةً من الله، والزينة المكتسبة: هي التي تضيفها المرأة على جسدها، مثل: الكحل، والحُلي التي تلبسها، والحناء والخضاب، ونحوها، والمرأة مأمورة بحفظ زينتها الفطرية والمكتسبة.

5- استثنى الله من يجوز له أن يرى زينة المرأة، سواء كانت الزينة المكتسبة أو الفطرية، والمقصود بها هنا ما ليس بعورة مُغلظة، مثل: وجهها، وشعرها، وسواعدها، وشيئًا من ساقيها.

6- نهى الله المرأة عن استخدام وسائل الإثارة للرجل، حتى لا يلتفت إليها.

تفسير المقطع الخامس من سورة النور

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ
وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، جاءت هذه الآية بعد الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، وتسلسل آيات سورة النور في أحكامها مرتبطٌ بعضها ببعض، ففي البداية حرم الزنا، ثم حرم القذف، ثم بيّن أحكام اللعان، ثم تحدث عن الإفك، ثم ذكر أحكام الاستئذان، وكل

ذلك من أجل بناء الفضيلة والعفاف، وحماية الأعراض في المجتمع المسلم، ولأن النفس البشرية لديها شهوة، وتحتاج إلى أن تُفرّغها في الحلال، فقد شرع الله النكاح وأمر بالزواج وحث عليه، والخطاب للأولياء، وفيه دليل على أن المرأة لا تزوج نفسها، **والأيم هو** الذي لا زوج له من الرجال أو النساء[1]، **والمعنى**: زوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم؛ لأن اللفظ الذي بعده دل عليه، ثم أمر بزواج الصالحين من العبيد، وهم المماليك، وتشجيعهم على ذلك، والأصل أن يتزوج الحر من الحرة، والعبد من الأمة، ويجوز للحر أن يتزوج من أمَة في بعض الأحوال للضرورة، وخص الصالحين من العبيد والإماء بالذكر؛ لأن الأصل في العبيد هو غير الصلاح بسبب انفلاتهم ورقِّهم فغالبًا الصلاح فيهم قليل، فحث على التزويج لهم استكمالاً لصلاحهم وتشجيعًا لغيرهم أن يكونوا مثلهم، ويشمل هذا الأمر السعي في تزويج من لم يتزوج من خلال تهيئة الظروف للزواج، بتقليل المهر، والبحث لهم عن زوجات صالحات وتخفيف النفقات والحفلات وغيرها، من أجل أن يتم الزواج ويسهل أمره؛ لأن العنوسة اليوم قد ضربت بجذورها في مجتمع المسلمين، فهناك شباب بلغوا الثلاثين والأربعين ولم يتزوجوا، وهناك نساء بلغن الثلاثين والأربعين ولم يتزوجن، والسبب هو تعقيد الزواج، إما بالعادات والتقاليد القديمة، أو التأثر بأفكار أعداء الإسلام الذين وضعوا العقوبات الكثيرة أمام الحلال، وفتحوا طرق الحرام سهلة ميسرة أمام الشباب، من أجل أن تنهار

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 227).

المجتمعات، ويكثر فيها الفحش والبغاء والزنا وسائر القبائح.!

وقوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، الضمير عائد إلى الأيامى من الأحرار، **أي:** لا تجعلوا الفقر عائقاً عن الزواج، فربما كان الزواج سبباً في الغنى، **وهل هو وعد بالغنى أو ليس بوعد؟ قولان**[1]، **الأول:** أن هذا وعدٌ من الله لمن سعى في تحصين نفسه بالزواج، وكان فقيراً؛ أن الله سيُيسر له الغنى ولو بعد حين، **والثاني:** ليس وعداً وإنما هو رد على الواقع الذي كان عند بعض الناس، فإنهم كانوا يربطون الزواج بالغنى، فحثهم على عدم ربط الزواج بالغنى، بل اجعلوا الزواج بدون شرط الغنى، **كما قال:** ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾[النساء:135]، **ومن قال:** إنه وعدٌ فهو مُرتبط بمشيئة الله، **كما في قوله:** ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾[التوبة:28]، وإنما ذكر هذا الشرط وهو أن إغناءهم تحت مشيئة الله، حتى لا يتخلف الوعد، **فقد يقول قائل:** إن كان الزواج للفقير وعداً له بالغنى؛ فقد تزوج فقراء كثير ولم يغتنوا؟!! **قلنا:** وإن كان وعداً فإنما هو مرتبط بمشيئة الله، فقد يمنح هذا الفقير التوفيق للغنى، وقد يتركه فيظل فقيراً، إما لعدم أخذه بالأسباب وإما عقوبةً له لانحرافه أو لغير ذلك من الأسباب، فالله يفعلُ ما يشاء في خلقه، **وفضل الله:** هو رزقه، ومن المعلوم أن الأرزاق تأتي بالأخذ بالأسباب، فالزواج سببٌ للرزق، فإن الشخص يشعر بتحمل المسؤولية، ويبدأ يبحث عن عمل يسترزق منه؛ فيمنحه الله الرزق، لأن من طلب الله الرزق أعطاه الله ومنحه.

(1) ينظر: تفسير الرازي: (23/ 371).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾، أي: أن فضله وكرمه ورزقه وعطاءه واسع، وليس بقليل ولا ضيق، حتى تخاف أنه إذا أعطى مجموعة لم يُعط أُخرى، وفي الحديث القدسي: **"لو أن آخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فدعوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من مُلكي إلا كما يُنقص المخيطُ من البحر"**[1]، أي: الإبرة إذا أُدخلت في البحر وأُخرجت، أي: لا شيء ينقص من مائه، وعليم، صيغة مبالغة من العلم، أي: أنه يعلم من يحتاج ومن لا يحتاج، ومن يستحق ومن لا يستحق، فعلمُه مُحيط بحاجات الناس وأحوالهم.

وقوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: من قدر على الزواج فليُبادر إليه، ومن لم يجد من يُشجعه ولم يجد مُؤنةً لكي يتزوج؛ **فعليه بالاستعفاف، وهو**: طلب العفة، بمنع شهوته من أن تخرج في الحرام، وعليه بالصوم، فهو وسيلة للعفاف، **كما جاء في الحديث**: **"يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه أحصن للفرج وأغضُّ للبصر"**[2]، **ومن أسباب العفة كذلك**: البُعد عن كل ما يُهيج الشهوة ويثيرها من النظر في المحرمات والاختلاط بالنساء، ونحوها، ويستعين بالله ويأخذ بالأسباب حتى يحصل على ما يعينه على الزواج، **وفي الحديث**: **"ومن يستعف يُعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله"**[3]، و(حتى): هنا لغاية

(1) صحيح مسلم: (4/ 1994) برقم: (2577).

(2) صحيح البخاري: (3/ 26) برقم: (1905).

(3) صحيح البخاري: (8/ 99) برقم: (6470).

الامتناع عن الزواج بالاستعفاف، وليست لغاية الاستعفاف، فليس معنى الآية أن تكون عفيفًا حتى تتزوج، فإذا تزوجت كنت بلا عفة، فهذا معنى باطل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾، وهم العبيد والإماء، الذين يريدون أن يتحرروا من رق العبودية، فإذا طلبوا منكم أن تُكاتبوهم على مبلغٍ معين، وهو قيمة رقهم، ويُسلموه لكم بالتقسيط، فإذا استكملوا تلك القيمة؛ أصبحوا بعد ذلك أحراراً، فاستجيبوا لطلبهم، وهذا على سبيل الاستحباب عند الجمهور(1)، **واشترط هنا لاستجابة طلبهم:** أن يعلم فيهم الخير، **والخير معناه:** الصلاح والاستقامة للنفس، وأن يكون عنده حرفة وقدرة على كسب المال والعمل، فإن علمتم فيهم خيراً في دينهم وخيراً في كسب دنياهم، فكاتبوهم لكي يتحرروا، وإن لم يتحقق فيه ذلك؛ فليبق عبداً لدى سيده يسعى في إصلاحه والنفقة عليه حتى يتحسن حاله، وحث السادة على أن يخففوا على المكاتبين من قيمة العقد الذي كاتبوه عليه، أو يعفوا عن بعضه عند قرب انتهاء العقد وبقي عليه مبلغ فسامحه وأعتقه، ولا مانع من الجمع بين القولين، فيشجعه في البداية ويشجعه في النهاية، ولا بأس أن يساهم المجتمع المسلم بتشجيع العبيد على التحرر من رق العبودية، فقد جعل الله ذلك من مصارف الزكاة، **كما في قوله:** ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[التوبة:60]، وهذا من تشجيع الإسلام على عتق الرقاب، وأن الرقّ كان في ظرف محدد، ولذلك شرعت كفارات الأيمان، والظهار، والقتل الخطأ،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 34).

وكفارات الجماع في نهار رمضان، ونحوها، وجعل عتق الرقاب في كل ذلك تشجيعاً للتحرر من الرق، وأخبر أن المال مال الله، والعبد مستخلف فيه، **كما قال:** ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:7]، **أي:** يخلُف بعضُكم بعضاً فيه، فلا يبخل في إنفاقه في الخير، فيؤخذ منه إلى غيره.

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، هذه الآية تتحدث عن واقع كان في الجاهلية، حيث كان يقول الرجل لأمَتِه: اذهبي فازني وما أخذت من المال تعالي به، فتفعل ذلك، وربما فعلت ذلك وهي مكرهة، فجاء الأمر بتحريم الزنا وتحريم أسبابه ومنع إكراه الآخرين عليه، **وفي الحديث:** "أن جارية لعبد الله بن أُبيّ بن سلول، يُقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية"[1]، والشرط فيها لا مفهوم له، فقد جاء موافقاً لحال النزول، لأن الجواري التي كان ابن أُبيّ يكرههن على الزنا كن مسلمات يردن التحصّن[2]، فخرج مخرج الغالب، فلا يقال إن المرأة التي لا تُريد التحصن؛ يجوز لسيدها أن يغصبها على الزنا، فالغصب على الزنا أو التشجيع عليه، لا يجوز سواء كانت المرأة راضية أو غير راضية، والإكراه لا يتأتى غالباً إلا مع إرادة التحصن، أما إن كانت راغبة بالزنا فستذهب بدون إكراه.

وقوله: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بيانٌ للعلة والسبب الذي من أجله يتم

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2320) برقم: (3029).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 249).

إكراههن، وهو الحصول على عَرَض الدنيا، وهو المال أو الأجرة التي تأتي بها إليه من البغاء.

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ **أي:** فمن يستمر في الإكراه بعد نزول هذا الحكم والمنع، فإن الله غفور لذنب تلك المرأة التي أُكرهت[1]، وهو رحيم بها حيث لم يؤاخذها لقلة حيلتها وضعفها عن مقاومة إكراه سيدها.

ثم ختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، **الخطاب عام،** لقد أنزل الله آيات القرآن الكريم واضحات الدلالة والإفادة في الأحكام والحجج والبراهين، وذكر مع هذه الآيات المثل، **وهو:** القصة العجيبة التي ضربها الله لهم من الأمم التي مضت قبل أمة محمد ﷺ، كقصة قوم ثمود وعاد وقوم لوط وفرعون وغيرها من القصص التي فيها العظة والعبرة لهم، فجمع الله لهم بين الآيات الشرعية التي فيها الأوامر والنواهي للامتثال، والقصة للعظة والعبرة، وخص المتقين بالاتعاظ؛ لرقة قلوبهم وقربهم من الله، أما الفاجر والكافر فهو قاسي القلب بعيد عن الإيمان، لا تؤثر فيه الآيات والعضات والعبر.

ثم قال الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هذه الآية تسمى آية النور، وقد سُميت السورة بها، وفيها مثلٌ ضربه الله لنور الإيمان الذي يقذفُه في قلب عبده

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 176).

المؤمن، وبيان أثر ذلك النور على حياتِه وحياة من حوله، وهو من باب التشبيه التمثيلي، حيث يُشبه شيءٌ بشيءٍ في مثالٍ واحد، وفي الآية أربعة من التشبيهات في مثال واحد، كما سيأتي بيانه، **والنور نوعان: نورٌ** هو صفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو نورُه الذاتي، وهذا النور صفة ذاتية لله غير مخلوقة، **مثله مثل**: السميع البصير العليم، فهذا نور الله المرتبط بذاته، ولذلك لما صعد النبي ﷺ إلى السموات العُلى، وكان قاب قوسين، قيل له: أرأيت ربك؟ قال: "**نورٌ، أنّى أراه**"[1]، وهو نور يليق بجلاله، فلا نشبهه بشيء من خلقه، **كما قال**: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:11]، وهو الذي نوّر السموات والأرض بنوره.

والنور الثاني: النور المخلوق، فنور الله المخلوق مثل: الشمس التي فيها نور وتُنور الأرض، والقمر ونحوها، ومنه النور الذي يقذفُه الله في قلب المؤمن، فهذا نورٌ مخلوق، ولذلك جاز تشبيه النور المخلوق بمخلوقٍ آخر.

وقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، **أي**: مثل النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن من الإيمان والهدى كمثل الكُوّة، **وهي**: الفتحة في الجدار غير النافذة إلى الخارج[2]، وفي هذه الكُوّة سراج، وهو الفتيلة التي تغمس بالزيت فتشتعل،وهذا السراج داخل زجاج، والزجاج من شدة بياضه ونصاعته يشبه النجم الساطع في السماء، وهذا السراج،

---

(1) صحيح مسلم: (1/ 161) برقم: (178).

(2) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: (7/ 119).

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ **أي:** يشتعل بزيت من شجرة مباركة، هي شجرة الزيتون، التي أُنبتت في ربوة مُرتفعة من الأرض، فليست شرقية مُطلقًا، ولا غربية مُطلقًا، بل بين الشرق والغرب، تمر عليها الشمس عند الشروق وعند استوائها في السماء وعند الغروب، وما كان هذا حاله من شجر الزيتون فثمره من أجود الثمار، وهذا سبقٌ علميٌ في علم النباتات، ولذا كان زيتها ذا جودة عالية، حتى إنه من شدة نضارته وجودته، يكاد يشع منه النور قبل أن يشتعل به السراج، ومعلوم أن زيت الزيتون من أحسن وأفضل وأقوى أنواع الزيوت إضاءةً.

ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، سبحان الله! ما أجمل هذا الوصف؟!! نورٌ على نورٍ، ما وجهُ التشبيه بين هذه الأربعة الأشياء وبين النور الذي يقذفُه الله في قلب المؤمن من الإيمان والتقوى؟! **الجواب:** هناك أربعة أشياء هي: الكُوَّة، وهذه يُقابلها صدر المؤمن، والسراج، ويُقابله القلب، ونور الفتيلة الذي يُضيء، ويُقابله نور الإيمان، والزيت الذي يُضيء بدون أن يمسه نار، ويُقابله الوحي الذي يمدُ القلب بالحياة، فالزيت يمد السراج بالنور، والوحي يمُد القلب بالحياة، والسراج داخل الزجاج، والإيمان داخل القلب، والزجاج مع السراج داخل الكُوَّة، والقلب داخل القفص الصدري، فهذه أربعة أنواع من التشبيه في مثال واحد؛ وهذا من بلاغة القرآن، **كما يقصد به المثال الحسي:** نور الكوة مع نور السراج مع نور الزجاج مع نور الزيت، **ويقصد به في المثال المعنوي:** نور الوحي مع نور الفطرة مع نور الإيمان مع نور الهداية من الله، فهذه أربعة أنوار

اجتمعت كلها في قلب المؤمن، فازداد نوراً على نور.

وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، أخبر الله سبحانه أنه مصدر الهداية ومانحها للخلق، فهو المتفضل على العباد بها، وطلب من الخلق التعرض لها وطلبها منه سبحانه، **كما في الحديث القدسي**: **"يا عبادي كلكم ضال إلا من هديتُه، فاستهدوني أهدكم"**[1]، فمن طلبها وأخذ بأسباب الحصول عليها، وكان ممن شاء الله هدايته؛ منحه الله نور الهداية.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾، **أي**: يقرب لهم الأمور الغائبة بأمثال حاضرة من أجل إفهامهم، فتتضح لهم الصورة ويزدادوا فهماً واستيعاباً لها، وأخبر عن إحاطة علمه بكل الأشياء، ومنها ما في القلوب من نور الإيمان أو ظلمة الكفر، وما تلهج به الألسن من الدعاء بالهداية أو الإعراض عنها!!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أهمية الحث على الزواج، وتخفيف المهور، وإعانة المحتاجين من الفقراء على الزواج وتشجيعهم عليه، لعلّ الله أن يُغنيهم بسبب الزواج.

2- تحريم تشجيع البغاء ونشره، سواءً بالقول الفاحش أو بنشره عن طريق وسائل الإعلام أو مواقع التواصل، وتحريم إكراه الخدم على الباطل والفُحش.

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 1994) برقم: (2577).

3 – فضل قلب المؤمن الذي اجتمع فيه نور الوحي مع نـور الفطـرة مـع نـور الإيمان مع نور الهداية.

4 – أهميـة ضـرب الأمثـال، وأنهـا سـيلة مـن وسـائل الـدعوة، وفيهـا تقريـب للصورة المعنوية بصورة حسية.

تفسير المقطع السادس من سورة النور

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
(٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى
إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ
كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، هذه الآيات جاءت بعد المثل الذي ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنور الإيمان الذي يقذفه في قلب عبده المؤمن، **والمناسبة بينهما** -**والله أعلم**-: أن من يُريد أن يقذف الله في قلبه الإيمان، ويستنير قلبُه بالتقوى والعمل الصالح؛ فليكن من رواد المساجد، فإن المساجد هي المكان المناسب لبناء الإيمان والتقوى، حيث يوجد فيها وسائل

التربية والتزكية، بخلاف الأسواق وأماكن واللهو واللعب، فإنها غالبـًا لا تبني إيمانـًا ولا تُزكي نفسًا، بل ربما تكون سببًا من أسباب ضعف الإيمان وتدهوره، البُيوت جمعُ بيتٍ، وهي المساجد، **و(أذن) هنا تأتي لمعنيين: بمعنى** الإذن الشرعي، **وبمعنى** الإذن الكوني، مثلها مثل لفظ: أمَر، وقضى، وحكم، وأراد، والإذن الشرعي قد يتحقق وقد لا يتحقق، لأنه مرتبط بمشيئة العبد، ولكنه يشترط فيه أن يُحبه الله، والإذن الكوني لا بد أن يقع، الإذن الكوني مرتبط بمشيئة الله، ومشيئة الله نافذة لا تتخلف، ولا يُشترط فيه أن يكون محبوبـًا لله، **وهذا هو الفارق بين النوعين، فالأول**: مرتبط بالمحبة، **والثاني**: مُرتبط بالوقوع، وبناء على ما سبق، فالإذن هنا هو الإذن الشرعي، **أي**: أمر وشرع وأحب ورغب في عمارتها حسـًا ومعنى، فالحسي البناء لها بالأحجار ونحوها، **كما قال**: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[البقرة:127]، فالرفع هنا هو البناء الحسي، **وفي الحديث**: **"من بنى مسجداً بنى الله له مثله في الجنة"**[1]، وهو البناء الحسي لها بتوفير احتياجات المساجد من فرشٍ وإضاءة وماءٍ ومِيضأةٍ، ونحوها، مما يجعل الناس يُصلون فيها دون أذى أو مشقة، والعمارة المعنوية للمساجد، تكون بإقامة الصلاة والذكر وقراءة القرآن، وغيرها من أنواع العبادات التي أذن الله وشرعها في المساجد، وهي المشار إليها هنا والواو عاطفة، فكما شرع الله أن تُرفع وتبنى حسـًا، فقد شرع الله أن يُذكر فيها اسمُه، والذكر يشمل المعنى العام له، وهو العبادة المطلقة لله، بسائر أنواع العبادات، ويدخل فيها الصلاة وقراءة

(1) صحيح البخاري: (1/ 97) برقم: (450).

القرآن، والتسبيح والتهليل، ونحوها، والذكر بمعناه الخاص، وهو ذكر الله باللسان فقط، وخص اسمُ الله بالذكر، **أي:** لا يُذكر فيها غيرُه، **كما قال:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾[الجن:18]، لأن الأصل في المساجد أن تكون مكانًا لتعظيم الله وحده، وليست مكانًا لتعظيم المخلوقين ولا مدحهم ولا الثناء عليهم.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، **والتسبيح معناه** تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به، **ومعنى يسبح هنا فيه قولان**[1]، **الأول:** التسبيح المطلق، وهو أحد أنواع الذكر العام، ولكنه ذكره هنا من باب ذكر الخاص بعد العام لمزيد عناية، والذكر العام مشروع ومأجور عليه العبد في أي مكان، فيقوله في الشارع، أو في البيت، أو في العمل، **كما قال:** ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[النساء:103]، في أي وقت، وعلى أي هيئة، وفي أي مكان، باستثناء الأماكن النجسة، إلا أن الذكر والتسبيح في المسجد له مزية خاصة، فهو بيتُ الله، وتدخله بطهارة، وتجلس فيه بعد أن تُصلي تحيته، وقد ابتعدت عن أشغال الدنيا وضجيج الأسواق، فاختلاؤك في بيتٍ من بُيوت الله للذكر والتسبيح فيه، له مزية إضافية على تسبيحك المطلق خارج المسجد، **والثاني: بمعنى:** يصلي فيها، بقرينة الغدو والآصال التي هي أوقات الصلاة، **وفيها قولان**[2]: أن المقصود بالصلاة:

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 298).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 192).

صلاة الفجر، وصلاة العصر، وهما من أعظم الصلوات، **وفي الحديث**: **"من صلى البردين دخل الجنة"**[1]، أو أن المقصود به الصلوات كلها في اليوم والليلة، وذكر الغدو والأصال لأنها أول اليوم وآخره، وفي هذا إشارة إلى أن صلاة الجماعة ساقطة عن النساء، وأن الرجال هم فقط المطالبون بها في المساجد، ووصفهم بالرجولة وليس بالذكورة؛ لأن الرجولة صفة إيجابية لا تتحقق إلا في قليلٍ من الذكور، ولو تتبعت آيات الرجولة في القرآن لوجدتها مرتبطة بأوصاف عظيمة تتعلق بالطاعة والعبادة والقيام بما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **مثل قوله**: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[الأحزاب:23]. **وقوله**: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾[غافر:28]، وغيرها من الآيات، فكلها تدل على مفهومٍ إيجابي لوصف الرجولة، وأنه مدحٌ وثناءٌ لهم، وهنا وصف هؤلاء الرجال بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بيع، فهم تُجار وعندهم أعمال دُنيوية، ولكنهم جعلوا الدنيا في أيديهم والآخرة في قلوبهم، فمجرد أن يسمعوا النداء للصلاة؛ فإنهم يتركون التجارة والبيع ويذهبون لإقامتها، وذكر التجارة والبيع؛ لأنها إحدى الوظائف التي يشتغل فيها عامة الناس، ويُقاس عليها غيرها من الأعمال الأخرى، كالزراعة، والصناعة، ونحوها، **والمعنى**: أنه لا يُلهيهم شيءٌ من الوظائف الدنيوية، فبمجرد سماعهم لنداء: (حي على الصلاة، حي على الفلاح)، يتركونها ويذهبون مباشرةً إلى المساجد، **وذكر الله**: هو عموم الطاعة والعبادة، **والمعنى**: لا تُلهيهم التجارة عن التسبيح، ولا عن بر الوالدين، ولا عن الإحسان إلى الناس، ولا عن الصلاة،

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 119) برقم: (574).

والصوم، والزكاة، والحج، وسائر العبادات، فهذا معنى ذكر الله العام، الذي يشمل ذكر اللسان وذكر القلب وذكر الجوارح، وعطف الصلاة على الذكر بمفهومه العام من باب ذكر الخاص بعد العام لمزيد عناية به، والإقامة معناها تسوية الشيء، **والمقصود بها هنا:** أداء الصلاة بكامل شروطها وأركانها وواجباتها وسننها، فلا تُسمى إقامة الصلاة إقامة إلا إذا كانت بهذا الوصف، وهي عبادة بدنية تحتاج إلى أن يقوم البدن بجميع جوارحه في أدائها بطريقة صحيحة، فقلبُك حاضر، ولسانُك ذاكر، وجوارحُك تضعها في المكان الذي أُمرت أن تضعها فيه أثناء القيام وأثناء السجود وأثناء الركوع، وتقول الذكر في مكانه بحضورٍ وخُشوعٍ، وكل هذا يحتاج منك إلى تنبُه وحضور قلب، ولذلك عبّر هنا بالإقامة، **أي:** كن مستيقظاً إذا صليت، والإيتاء هو: الإعطاء، ويكفي في الزكاة، أن تسلمها لمستحقها، ولو كنت غافلاً أو مكرهاً؛ فإن سلمتها برضى وإخلاص وطيب نفس؛ أُجرت عليها، وإلا أُخذت منك بالقوة، بخلاف الصلاة فلا يصلح أداؤها بالإكراه، ولا تُقْبل منك وأنت غافل عنها.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾، **هذا بيانٌ** لبعض أوصاف هؤلاء الرجال، فهم يخافون الوقوف بين يدي الله يوم القيامة، ونكّر لفظة يوم؛ لتعظيمه وتهويله، فالقلوب فيه مضطربة، ومتقلبة من شدة الخوف، **كما قال:** ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾[غافر: 18]، فالقلب الذي مكانه في الصدر، يكاد يطلع إلى الحنجرة من شدة الخوف والهلع، والأبصار كذلك تضطرب وتتقلب من شدة الخوف، **كما قال:** ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

ٱلۡمَوۡتِۖ﴾[الأحزاب:19]، أي: من شدة الفزع والخوف والقلق والاضطراب يتأثر البصر فيضطرب ويتحرك ويتقلب، فهؤلاء الرجال كانوا خائفين من هذا اليوم وهم في الدنيا، فدفعهم هذا الخوف إلى زيادة التعبد والإقبال على الله بالذكر والاستغفار والطاعة، أما من لا يخاف لقاء الله والوقوف بين يديه في اليوم الآخر؛ فإنه ينساه ويعيش في غفلة عنه حتى يفاجئه الموت، وهو ضعيف الإيمان، قليل العبادة والطاعة، غير مستعد للوقوف بين يدي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أي: ليُثيبهم الله ويُجازيهم أحسن الجزاء على العمل الحسن الذي عملوه، كما قال: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن:60]، ويزيدهم من فضله وكرمه، فهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُجازي الحسنة بمثلها، ثم يضاعفها إلى عشرة أضعاف، إلى سبعمائة ضعف، ثم يزيد في الأجر فوق ذلك من فضله ما شاء، وقيل: إن الزيادة هنا هي النظر إلى وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس:26]، أي: يجعلهم ينظرون إلى وجهه في جنات عدْن، ونظر المؤمنين لربهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الجنة، ثابت بالنصوص الشرعية، وهو أعظم نعمة يحصل عليها المؤمنون في جنات عدن.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾، ومن فضله وكرمه أنه يمنح ويُعطي الخير من يشاء من خلقه بغير عد ولا حساب، وليس معنى ذلك أن الله لا يعلم عدد هذا الخير، فكل شيء عند الله معلوم، وإنما هذا تعبيرٌ على أنه كثير لا يقدر البشر على عده من كثرته وتنوعه.!!

ثم قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾، ولأن من أسلوب القرآن الكريم المقارنة بين ما يُجازي به الله المؤمنين الصالحين في الجنة، وبين ما يُجازي به الكافرين العصاة في النار؛ ليتبين الفرق بينهما للسامع، ذكر الله حال الكفار الذين لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وكيف يصير عملهم الصالح يوم القيامة؛ لأن بعض الكفار لهم أعمال صالحة في الدنيا، فهم يفعلون ما يُسمى اليوم بالأعمال الإنسانية، كبناء دور الأيتام وكفالتهم، وتوزيع الطعام والكساء والدواء للفقراء، وتعبيد الطرقات، ونحوها من أعمال الخير، فهذه الأعمال الصالحة قد توجد من الكفار مع عدم إيمانهم بالله، ولكنهم لا يستفيدون منها في الآخرة شيئًا، بل يأخذون جزاءها في الدنيا، بالسمعة الحسنة حيث يذكرهم الناس بخير، أو بما يجدونه في صدورهم من انشراحٍ وسعادة، أو بهما معًا، وهذا غاية ما يُريده الكافر من عمله للخير في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق، **والسراب هو**: الخيال الذي يُرى من بعيد في مكان منبسط، والباء حرف جر، وقيعة جمع قاع، لأن السراب لا يتكون إلا في القيعان المنبسطة، فيظن العطشان أن هذا الخيال ماءً من شدة حاجته إليه، وذُكر هنا الظمآن وهو العطشان لشدة حاجته واهتمامه بالبحث عن الماء، وهو تصوير لحال الكفار وحاجتهم للأجور يوم القيامة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، **أي**: حتى إذا وصل إلى مكان السراب، لم يجد ماءً، وهذا حال الكافر، حين يظن أن معه أعمالاً صالحة، فإذا جاء يوم القيامة، لم يجد شيئًا منها، بسبب عدم إيمانه، **كما قال الله**: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ

مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[الفرقان:23].

وقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾، أي: وجد الله له بالمرصاد، فوفاه جزاء عمله، أو وجد وعد الله بالجزاء على عمله[1]، فأعطاه جزاءه وافياً غير منقوص، وحاسبه على عمله حساباً لا نقص فيه ولا زيادة، وإنما أخذ حقه تماماً، وهذا من عدل الله سبحانه، ففي باب العذاب لا زيادة ولا نقص، وفي باب الحسنات يعطيه أجره بغير حساب ويزيده من فضله!.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾، أي: لا يأخذ حساب المخلوقين من الله وقتاً كثيراً، لأنه يعلم تفاصيل حالهم، ولا يُعجزُه سبحانه شيءٌ من أمرهم.

وقولــه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، وهذا مثال آخر ضربه الله للكافر الذي يبحث عن عمله في الآخرة، فلا يجده، وإنما يجد ظلمات في بحر شديد العمق، تتابع فيه حركة الموج الضخمة، حيث تضطرب الموجة الأولى، وتتبعها موجة أخرى أكبر منها، ثم فوق هذا الموج المتتابع المضطرب سحاب كثيف أسود يسبب الظلام الدامس، فلو تخيلنا ظلمة البحر بعمقه، وظلمة الموج الأول، وظلمة الموج الثاني، وظلمة السحاب، لوجدنا أربعة أنواع من الظلمات، بعضها فوق بعض، فإذا أخرج الشخص الذي فيها يده لم يرها من شدة الظُلمة، فلم ير أقرب شيءٍ من نفسه، فكيف سيرى ما هو أبعد منه؟!!.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 46).

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾، فهل المقصود النور الحسي أو النور المعنوي أو هما معاً؟! الجواب: هما معاً، فالنور الحسي: هو نور البصر الذي ترى به ما حولك، في مقابل الظلمات الأربع السابقة، والنور المعنوي: هو نور الإيمان والتقوى في مُقابل ظلمات الكفر والفجور والهوى والمعاصي والمنكرات، فمن كان عنده نور الفطرة ونور الوحي ونور الإيمان ونور التقوى، تبددت أمامه كل الظلمات، ومن لم يمنحه الله نوراً من عنده، فإنه سيعيش في ظلامٍ دامس في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، ولما ذكر في الآيات السابقة تسبيح الرجال المؤمنين في المساجد، ذكر هنا تسبيح المخلوقات الأخرى، والخطاب لمحمد ﷺ ثم لعموم الخلق بعده، والرؤية هنا هي الروية القلبية، وهي بمعنى العلم، والتسبيح مطلق التنزيه له سبحانه، من جميع المخلوقات في الكون، وكل مخلوق له تسبيح على ما يليق به، والطير من عموم المخلوقات، ولكنه أفرده بالذكر لمزيد عناية به، وكأن المعنى: أن هذا الطير الذي في السماء فارداً جناحيه بالطيران، لم يشغله هذا الحال عن تسبيح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والضمير في (علم) له معنيان[1]، الأول: قد علم الله صلاة وتسبيح كل هذه المخلوقات، والثاني: قد علم كل واحد من أفراد هذه المخلوقات كيف يُسبح وكيف يُصلي لله، فالجبال لها كيفية، والأشجار لها كيفية، والطير لها كيفية، والنمل لها كيفية، وهكذا سائر

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 48).

المخلوقات، فكل مخلوق قد علم كيف يعبد الله ويسبحه، فقد هدى الناس للعبادة الصحيحة عن طريق الرسل والكتب، وهدى باقي المخلوقات عن طريق الغريزة التي فطرهم عليها، **والثاني أرجح، لقوله:** ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾، فالله محيط علماً بما يفعل الخلق أجمعون.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾، **بيانٌ** بأن الله مالك الكون وخالقه وتسبيحُهم له، لأنهم من ضمن أملاكه، ومرجع هؤلاء المخلوقين إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يوم القيامة، فلا أحد منهم يذهب بعيداً عن الله، بل كلهم راجعٌ إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أهمية العناية ببيوت الله وعمارتها حساً ومعنى.

2- أن الرجولة الحقيقية هي تأدية عبادة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما أمر الله، وليس من الرجولة الحقيقية إظهار القوة في أذية الناس والبطش بهم.

3- أن الأمثال التي يضربُها الله هي من باب تقريب الفهم للناس.

4- أن التسبيح والتنزيه لله سبحانه حاصل من جميع مخلوقاته، كل بالكيفية التي علّمه الله إياها.

تفسير المقطع السابع من سورة النور

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا
بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ
أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي
مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ
مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا
فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ
يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾، ألم تعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسوق

السحاب بالرياح سوقًا خفيفًا لطيفًا[1]، ثم يجمع بين هذا السحاب المتفرق ويضمه إلى بعضه، ثم يركم بعضه فوق بعض، وهو وصفٌ لمراحل تكوين السحب؛ حيث يبدأ متفرقًا ثم تسوقُه الرياح لينظم بعضُه إلى بعض ثم يتراكم فوق بعضه حتى يتكثف، فإذا تكثف صار طباقًا، وهذه الطباق يضغط بعضُها على بعض وترتفع في طبقات الجو، وكلما ارتفعت كلما تكثف المطر داخلها، فالسُحب الدنيا تكون أمطارُها خفيفة، والسُحب الأعلى تكون أثقل، فإذا ارتفعت إلى طبقات الجو العليا صارت ثلجًا، فإذا ارتفعت أكثر صارت برداً، **والودق**: هو المطر الذي يخرج من خلال السحاب، **والخِلال**: جمع خلل، وهي الثقوب التي ينزل منها المطر، وهذا من نعم الله وفضله على خلقه أن جعل في السحاب ثقوبًا ينزل منها المطر على شكل قطرات، إذ لو نزل المطر على شكل قطع كبيرة أو نزل صبًا، كما تُصب أفواه القِرب؛ لكان أثرُه خطيراً على المخلوقات في الأرض، ثم بيّن أن السحاب يتكثف في أعلى السماء المرتفعة حتى يصير ثلجًا كالجبال من ضخامته وشدة تجمده، وأنه يُنزِّل من هذه الجبال شيئًا من البرد على شكل كريات صغيرة، وهذا من لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذْ لو نزل البرد على شكل أحجار كبيرة، لأهلك الحرث والنسل والبُيوت، ويصيب بهذا البرَد من يشاء من خلقه، فجعل نزول البرد إصابة لأنه يفسد الزرع والثمرة، وجعل صرفه نعمة ورحمة بهم، فالصرف له عنهم نعمة والإصابة لهم به نقمة، وكلاهما بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونية النافذة، فلا راد لقضائه ولا مُعقب

---

(1) ينظر: تاج العروس: (38/ 211).

لحكمه، **والسنا**: ضوء البرق، **والمعنى**: يكاد ضوء البرق الذي يخرج من بين السُحب من شدته وقوته لو تبعه البصر أو نظر إليه الناظر؛ لخطف البرق بصره، وفي هذا سبقٌ علمي في علم الطب أن من يتعرض لضوءٍ شديد بعد ظلمة، فإنه ربما يُصاب بالعمى، ولذلك هذا ما يفعله بعض المجرمين في بعض السجون، حيث يجعلون المسجون في غرفةٍ مظلمةٍ ظلمة شديدة، ثم فجأة يفتحون عليه أنواراً شديدة الإضاءة، فيذهب جزء من بصره وربما يذهب بصرُه كاملاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، **وفي الحديث**: "أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: **ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: **زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**"[1] **ويقول علماء الفلك**: إن السحاب يحتوي على شحنات موجبة وشحنات سالبة، فيحصل تماس بينهما فيتكوّن ضوء البرق وصوت الرعد، وفي كل الأحوال فإن ذلك كله يحدث بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾، وتقليب الليل والنهار هو دخول هذا في هذا وزيادة هذا من هذا، ويدخل في ذلك تقليب مناخهما من حر إلى برد والعكس، والضمير في ذلك عائدٌ على كل ما سبق، وهو: إزجاء السحاب، والتأليف بينه، وجعْلُه ركامًا، وإخراج المطر من

(1) سنن الترمذي: (5/ 145) برقم: (3117)، والسنن الكبرى للنسائي: (8/ 218) برقم: (9024)، وإسناده حسن.

خلاله، وإنزال البرد من السماء، وإصابة من يشاء به، ومنعه عن من يشاء، وتقليبُ الليل والنهار، وهي سبع قضايا ذُكرت، وكلها تفيد العِظة والعِبرة لمن تفكّر فيها وتأمل في هذا الكون، وكيف أن الله تعالى يُقدرُ فيه الأمور والأحوال، فالكون هو الكتاب المفتوح للتدبر والاتعاظ والتبصر والوصول إلى الإيمان العميق بالإله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخص العبرة بأولي الأبصار، وهم أصحاب البصائر التي تفهم وتتعظ، وبين نهاية هذه الآية ونهاية الآية التي قبلها جناس كامل، حيث اتفق اللفظان في الأحرف والنطق واختلفا في المعنى، فالأبصار في الآية الأولى من البصر، وهي الأعين، والأبصار في الآية الثانية من البصيرة، والمقصود بها التبصُّر والتفكُّر.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾، وهذه قاعدة عامة تُبيّن أن الماء أساس خلق كل حي، **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:30]، وكل: من صيغ العموم، **والدابة في اللغة:** كل ما دبّ وتحرك على وجه الأرض[(1)]، **وفي العرف العربي:** أن الدابة ذوات الأربع التي يُركب عليها، ولكن المقصود هنا المعنى اللغوي، وأن المراد بالدابة التي تدب على وجه الأرض، فتخرج الملائكة والجن[(2)] من عموم معنى الدابة كونهم لا أجسام لهم، ثم بدأ يُفصل في كيفية حركة هذه الدواب التي خلقها الله من ماء وتدُب على الأرض، **فقال:** ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، **مثل** الزواحف من ثعابين وحيات ونحوها، ﴿وَمِنْهُم

(1) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (1/ 188).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 406).

﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾، **مثل** البشر والطيور ونحوها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، **مثل** باقي الحيوانات كالأبقار والأغنام ونحوها، ولم يذكر الحيوانات التي تمشي على أكثر من أربع؛ لأن المقصود هو الإشارة إلى الأعم الأغلب، ولم يقصِد إحصاء كل الحيوانات، **وقيل**[1]: إن الحيوانات التي لها أكثر من أربع أرجل؛ داخلة تحت النوع الذي له أربع أرجل، فهي الأصل والباقي فرع عنها، **مع أن قوله**: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، **فيها إشارة** إلى غير هذه الأنواع، مثل بعض الحشرات والعناكب والحيوانات البحرية، التي لها أكثر من أربع أرجل.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾، فما شاءه الله كان، فلا حد لقدرته في الخلق، ومشيئتُه نافذة على كل شيء.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾، ذكر لنا فيما سبق الآيات الحسية في الكون، وهنا أراد أن يُنبهنا إلى الآيات الشرعية في القرآن الكريم، فما رأيته بعينك أو علمته بقلبك وتفكُرك في آيات الله وقدرته في الكون والأنفس؛ فهي إحدى الآيات البينات الدالة على وحدانية الله وقدرته، فانظر أيضاً في آيات الله البينات في كتابه الكريم المُبينة للحكم الواضح، **والمقصود بالهداية هنا** هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد والدلالة؛ فهي مبذولة لكل الخلق، ومن وفّقه الله للاعتبار والاتّعاظ؛ اهتدى إلى الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، وهو الوصول إلى الحق، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، وهو الموصل إلى طريق الجنة،

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 50).

ومن حرمه التوفيق بقي على ضلاله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، في هذه بيان لحال قسمٍ ثالث، غير المؤمنين الذين ضرب الله المثل لنوره في قلوبهم بالإيمان، وغير الكفار الذين أعمالهم كسرابٍ بِقيعة، وهم المذبذبون الذين ظاهرهم الإسلام وباطنُهم الكفر، وهم المنافقون، فذكر أنهم يدّعون الإيمان، وهم في الحقيقة أسلموا إسلامًا فقط؛ لأن الإسلام: النطق باللسان، والإيمان: اليقين الذي يصدر عن القلب، والمقصود بالرسول هنا محمدٌ ﷺ، والألف واللام للعهد الذهني، وأطعنا **أي:** أطعنا الله وأطعنا الرسول، ولكن الواقع أن فريقًا منهم يكذبون في هذه الدعوى، فهم يُعرِضون عن الإيمان والامتثال من بعد إعلانهم بألسنتهم الإيمان والطاعة، ونفى عنهم الإيمان حقيقة، وعبّر بأولئك لأن اللام تدل على البعد، والمقصود بُعدهم عن الإيمان وأن ادعاءهم باطل، ولم يحصل أن دخل الإيمان إلى قلوبهم، وإنما ادّعوا الإيمان ادعاءً، فنفى الله عنهم الإيمان الذي هو الامتثال والفعل واليقين القلبي، وأثبت لهم قول اللسان، وهذا يدل على أن القول وحده لا ينفع ولا يُغني، فلا بد أن يقترن قول اللسان بعمل القلب والجوارح.

ثم ذكر مثالاً على إعراضهم وتوليهم، فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فإذا دُعوا إلى كتاب الله، وإلى رسول الله إن كان حيًا أو إلى سنته بعد وفاته، ليحكم بينهم، رفضوا وأعرضوا.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذا الإعراض من المنافقين لا يطّرد، بل موافقتهم وعدمها مبنية على الهوى والتشهي، **فقال:** ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩﴾، **الإذعان في اللغة:** الإسراع مع الطَّاعة[1]، **أي:** إن ظنوا أن الحكم سيكون لصالحهم ذهبوا إليه طائعين مسرعين، وإن ظنوا أن الحكم سيكون عليهم أعرضوا عنه، فذهابهم إليه ليس استسلامًا لحكم الله، وإنما هو اتباع للهوى، وهذا حال الذين في قلوبهم مرض وشك من حكم الله ورسوله، وينطبق هذا على قبول الفتوى الشرعية من عدمها، فالبعض قد يسأل العالم عن مسألة؛ فإن أفتاه على ما يُريد، قال: هذا هو الصواب، وأنتم العلماء الربانيون، وإن أفتاه على خلاف ما يُريد، رفض الفتوى، وقال: أنتم كذا وكذا!، فاتباع الهوى سبب للضلال عن الحق، **كما قال:** ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص:26]، وهذا توجيه لنبيٍ من أنبياء الله، فكيف بغيره من الناس، مما يدل على خطورة شهوة اتباع الهوى؛ وأنها تُضل عن الحق والهدى.

ثم قال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٥٠﴾، فعدّد سبب إعراض المنافق عن حكم الله وعدم الإذعان له؛ فأمرُهم لا يخرج عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، وهو النفاق، أو قد عرض لها شك في نبوته ورسالته، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيّا ما كان من هذه الأسباب الثلاثة فهو كفر محض[2]، **والحيف هو**

(1) ينظر: معاني القرآن، للزجاج: (4/ 5).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 74).

العُدول عن الحق إلى الباطل، وهو الجور والظلم[1]، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صدرها بالاستفهام الإنكاري، فليس ذلك لشيء مما ذكر، بل لظلمهم وعنادهم، فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر؛ لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم[2]، وعبّر بأولئك لبُعدهم من الحق وقربهم من الظلم، فاجتمعت لديهم كل هذه القبائح؛ فجعلتهم يهربون من حكم الله ورسوله ويُعرضون عنه.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾، لما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن حال المنافقين وإعراضهم عن حكم الله ورسوله، ذكر حال المؤمنين الصادقين، وهو الامتثال المطلق لحكم الله ورسوله ﷺ في أي شيء، ولو كان ذلك فيما يكرهون، **فهم يقولون بلسان الحال ولسان المقال**: سمعنا لأمر الله وأمر رسوله، وامتثلنا لهما، وأتى باللام هنا لبيان بُعد منزلتهم وعلوها، وحصول الفلاح والفوز الكبير لهم في الدنيا والآخرة.

ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾، هذا بيانٌ لأسباب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وتوكيد لأهمية طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، الطاعة والامتثال المطلق، وجمع بين الطاعة لهما لتلازمهما، وأفرد الخشية والتقوى لله؛ لانفراد استحقاق الله بهما، والخشية هي: الخوف من الله مع التعظيم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتقوى هي: فعل ما أمر الله،

(1) ينظر: لسان العرب: (9/ 60).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 52).

والابتعاد عما حرّم الله، فمن توفرت فيه هذه الصفات الثلاث، فهو من الفائزين بدخول الجنة والتنعم فيها، المبعدين عن النار، **كما قال**: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:185]، فجمع لهم بين الفلاح والفوز؛ لأن **الفوز هو**: الخلاص من المكروه مع الوصول إلى المحبوب[1]، **والفلاح هو**: نيل الخير[2] والحصول على المطلوب، فحصلوا على مطلوبهم، ونجوا من الشر والضرر، وتحقق لهم الأمران: البعد عن النار، ودخول الجنة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أهل الفوز والفلاح.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من نعم الله وفضله أن جعل للسحاب ثقوباً ينزل منها المطر على شكل قطرات، إذ لو نزل المطر على شكل قطع أو نزل صباً كما تُصب أفواه القِرب؛ لكان أثرُه خطيراً على المخلوقات.

2- خطورة النظر إلى ضوءٍ شديد بعد ظلمة، فإنه يؤذي البصر.

3- أن الماء أساس خلق كل حي.

4- أن هداية الإرشاد والدلالة مبذولة لكل الخلق، ومن وفّقه الله للاعتبار والاتّعاظ؛ اهتدى إلى الإيمان والاستقامة على الصراط، ومن حرمه التوفيق بقي على ضلاله.

(1) ينظر: معجم الفروق اللغوية: (ص:532).

(2) ينظر: المصدر السابق: (ص:321).

5 – أن المنافقين قد اجتمعت لديهم كل القبائح؛ من اتباع الهوى والشك في دين الله، واتهام الله ورسوله بالظلم، فجعلتهم يهربون من حكم الله ورسوله ويُعرضون عنه.

6 – أن الفوز هو: الابتعاد عن مكان الضرر، والفلاح هو: الحصول على المطلوب، وكلاهما متحقق للمؤمنين.

تفسير المقطع الثامن من سورة النور

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي
لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، الحديث ما زال متصلاً عن بعض المنافقين الذين كانوا في المدينة، وبيان تعاملُهم مع رسول الله ﷺ، **فذكر من أوصافهم:** الاجتهاد في كثرة الحلف كذبـًا؛ لتزيين صورتِهم وقبول أعذارهم، فقد بلغوا وُسعهم في ذكر الأيمان التي تُبرر موقفهم، **والجَهد:** بذلُ الوُسع، فهؤلاء المنافقون يجتهدون في الأيمان فيحلفون بألفاظٍ متعددة وهيئات متنوعة، لإثبات صدقهم في الخروج معك في

الجهاد في سبيل الله، إن طلبت ذلك منهم في المستقبل، وقصدهم من هذا هو أن يعفو عنهم ما مضى من تخلفهم عن الخروج معه، فإنهم كلما خرج النبي ﷺ إلى غزوٍ وجهاد تخلّفوا عنه، وعند انتهاء الغزو يأتون إليه يعتذرون ويحلفون أيمانـًا مُغلظة أنهم كانوا مشغولين ومعذورين، فكان الجواب عليهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يعلم ما في قلوب هؤلاء المنافقين ويعلم سرهم، قل لهم يا محمد: طاعة معروفة، **وفيها معنيان**[1]، **الأول**: لا داعي لكثرة الحلف، فقد تعودتم على هذا مِراراً وتكراراً، وكذبُكم معروف عندنا سلفًا، وطاعتكم المزعومة معروفة عندنا سلفًا، فأنتم لا تُطيعون، وإنما تتخلفون وقت الجد، ثم إذا انتهى الأمر أتيتم وحلفتم، فطاعتكم معروفة، **والثاني**: المطلوب منكم الطاعة بالمعروف، **والمعنى**: أن المطلوب من الإنسان أن يُطيعَ من يأمره سواءً كان رسولاً أو عالمـًا أو أميراً أو غيره بالمعروف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، **وفي الحديث**: "**إنما الطاعة بالمعروف**"[2]، والأول أرجح؛ بناءً على السياق، لأنه يُحدثنا عن وصف حالهم.

وذيّل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾، **أي**: أن هذا الأمر يختلف في بواطنكم عن ظواهركم، والله تعالى يعلم دقائق وبواطن الأمور، والنفاق منها، فأخبرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن ما ادّعوه، إنما هو طاعة مزعومة لا حقيقة لها، وأن قولهم هذا نوع من الخداع والكذب، والله خبيرٌ بما ينوون فعله، فلا

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 76).

(2) صحيح البخاري: (9/ 63) برقم: (7145).

يخفى على الله شيء من أعمال خلقه.

ثم قال الله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، هذا الأمر من الله لرسوله أن يخاطب المنافقين، قل يا محمد للمنافقين الذين أكثروا من الأيمان أنك لو خرجت مرة ثانية إلى الغزو لخرجوا معك، إن المطلوب من كل مسلم أن يُطيع الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وكرر فعل الطاعة ليعلم المسلم أن طاعة الرسول مثل طاعة الله، وأن هناك أوامر جاء بها الرسول ﷺ ليست في القرآن، وإنما استقلّت بها السنة، **وفي هذا ردٌ على من يقول:** نكتفي بالقرآن عن السنة.

نعم القرآن كلام الله لا شك، لكنه مُجمل، والسنة جاءت شارحة ومُبينة للقرآن، والله أمرنا بطاعته وأمرنا بطاعة رسوله، **فقال:** ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:7]، **وقال:** ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء:80]، فطاعة الله وطاعة الرسول مطلوبة من العبد ليصح إيمانه، فمن أطاع الله ولم يُطع الرسول؛ لم يصح له إيمانه، **وهذا معنى:** أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، **فقولك:** أشهد أن لا إله إلا الله، **يعني:** أنك عبدٌ لله تُطيع أمرَه، **وقولك:** وأشهد أن محمداً رسول الله، **يعني:** أنك متبعٌ لرسول الله تُطيع أمرَه، فدل على أن طاعة رسوله مستقلة عن طاعة الله، بخلاف طاعة أولي الأمر، **كما في قوله:** ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء:59]، وهم العلماء عند الجمهور، **وأضاف بعضُهم:** الأمراءَ الصالحين، فلم يجعل طاعتهم مستقلة بل جعلها تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله، وليس لهم الطاعة المنفردة عن الله ورسوله؛ لأنهم ليسوا معصومين.

تنبيه: ظهرت إشكالية عند بعض المتفلسفين ممن أصابتهم لوثة الأفكار الغربية والشبهات العقلانية، **وهي:** أنهم يُريدون أن يوجدوا صداماً بين القرآن والسنة، **فيقولون:** السنة تُعارض القرآن، أو القرآن يُعارض السنة، نحن نقبل بالقرآن ونرمي بالسنة، والحقيقة أن هذا التعارض في عقله الذي فيه شيء من الخَبَل، فمنذُ أن أرسل الله الرسول وأنزل الكتاب فهما مُجتمعان وغير مفترقين، **وفي الحديث:** **"تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما إن تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض"**[1]، فالقرآن وحي من الله، والسنة وحي من الله، **كما قال:** ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم:3-4]، فلا وجه لافتراض الخصومة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي صحت عن رسول الله ﷺ.

نعم قد توجد أحاديث مكذوبة كذبها بعضُ الكذابين على رسول الله ﷺ، وربما هذه تتناقض مع القرآن الكريم، أما السنة الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، فلا تتعارض مع القرآن الكريم، بل تُكمله وتبينه وتوضح ما فيه من إجمال، **كما قال:** ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[النحل:44]، فمهمة الرسول ﷺ بيان الأحكام التفصيلية التي يحتاجها الناس، **فقد جاء في القرآن قوله:** ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:43]، على العموم، وجاءت السنة

---

(1) مسند البزار: (15/ 385) برقم: (8993)، والمستدرك للحاكم: (1/ 172) برقم: (319)، وسنن الدار قطني: (5/ 440) برقم: (4606)، والسنن الكبرى للبيهقي: (10/ 195) برقم: (20337)، وحسّنه الألباني في المشكاة برقم: (186).

ببيان تفصيلي لأحكامها، فبقيت السنة والقرآن جنباً إلى جنب لشرح مُفردات الوحي وبيانه للناس، رغم افتراءات المبطلين عليها قديماً وحديثاً!.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾، **أي**: إن أعرض هؤلاء المنافقون عن طاعة الله وطاعة الرسول ظاهراً وباطناً، فإنما يُسئل الرسول يوم القيامة على ما حُمّلَ، وهي أمانة التبليغ، **كما قال**: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[العنكبوت:18]، وقد أداها وبلغها، وفي خطبة حجة الوداع قال للناس: "**اللهم: هل بلّغت؟ اللهم فاشهد!!**"(1)، ثلاث مرات، يرفع إصبعه إلى السماء وينكت، حتى شهد له مائة وعشرون ألفاً من الذين حضروا الحج من الصحابة رضوان الله عليهم، **والمعنى**: إنما عليه ما كُلّف به وسيسأله الله تعالى عنه، وعليكم أيها السامعون الاستجابة والطاعة، فماذا فعلتم بما كُلّفتم به؟!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾، وهذه هي الخلاصة، فربط الهداية بطاعته، وربط الغواية بمعصيته، فالذي يعصي رسول الله ﷺ، ويترك سنته ولا يأخذ بها، فقد سلك طريق الغواية، ومن أطاعه وعمل بسنته، فقد سلك طريق الهداية.

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾، **وهذا بيانٌ لمُهمته** ﷺ، وهي: البلاغ الواضح لأحكام الإسلام، وليس من مهمته أن يُدخل الإسلام والإيمان إلى قلوب الناس، وقد بلّغ الأمانة وأدّى الرسالة كما أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(1) صحيح البخاري: (2/ 176) برقم: (1739).

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآواهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: متى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت هذه الآية[1]، تسليةً لهم ووعداً ينتظرون تحقيقه، والآية عامة في المؤمنين جميعًا، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وذكر الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا ينفع عمل صالح بدون إيمان ولا ينفع إيمان بدون عمل صالح، وذكر صفة العمل وهو الصلاح، وترك نوعه ليعم كل العبادات من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وبر والدين، وذكر، وتسبيح، وغيرها، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين: الإخلاص، بأن يعمله العبد لله، وأن يكون هذا العمل وفق سنة رسول الله ﷺ، فإذا انخرم أحدُ الشرطين فلا يُسمى عملاً صالحًا ولا يقبل.

وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لنورثنهم أرض الكفّار من العرب والعجم فنجعلهم ملوكها وساستها وسكانها[2]، والخلافة معناها: حفظُ الدين وسياسة الدنيا به، والمقصود بالأرض عموم الأرض المعروفة آنذاك لهم، وقد تحقق ذلك، وفتحت البلدان واحدةً تلو الأخرى خلال فترة وجيزة.

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما حصل استخلاف

---

(1) المستدرك، للحاكم: (2/ 401)، وصححه الذهبي، والضياء المقدسي في المختارة: (3/ 353) برقم: (1145، 1146) وقال محققه: إسناده حسن.

(2) التفسير البسيط: (16/ 343).

للذين من قبلهم، وهم الأمم المؤمنة التي كانت قبلهم، فقد أهلك الله قومَ نوح واستخلف بعدهم المؤمنين، وأهلك فرعون واستخلف بعده بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، **أي**: يجعل دينهم -وهو الإسلام- يثبت ويتوطد وينتشر في الأرض، فقد كان وقت نزول الآية مُحارَبًا من أعدائه، فوعد الله بنشره وظهوره وتمكّنه، **كما قال**: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:33]، **وفي الحديث**: **"إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وأن مُلْك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها"**[1]، فالتمكين لدين الإسلام، ونسَبَهُ إلى هؤلاء المؤمنين تشريفًا لهم، فهو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، **كما قال**: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:3].

وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، **والتبديل**: تغيير الشيء عن حاله[2]، فوعدهم بإحلال الأمن بتغيير حياتهم من الخوف إلى الأمن، **وفي الحديث**: **"والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"**[3]، وقد انتزع الله هذا الخوف منهم بعد غزوة الأحزاب، **فقال النبي** ﷺ: **"الآن نغزوهم ولا يغزوننا"**[4] ثم مكّن الله لدينه، ودخل النبي ﷺ مكة فاتحًا سنة ثمان للهجرة، وقال للذين

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2215) برقم: (2889).

(2) ينظر: لسان العرب: (1/ 231).

(3) صحيح البخاري: (4/ 201) برقم: (3612).

(4) صحيح البخاري: (5/ 110) برقم: (4109).

طردوه وأخرجوه: **"ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟"**، وهم بين يديه، قالوا: أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، فقال: **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"**[1]، فتغير الحال بسنوات معدودة وحصل التمكين للدين قبل وفاة رسول الله ﷺ، ثم خلال مدة الخلافة الراشدة فُتحت الشام وبيت المقدس والعراق واليمن ومصر، وغيرها من البلدان.

وقوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾، هذا شرط إضافي لتحقق التمكين للمؤمنين الصالحين، وهو أن يستمروا في عبادة الله وحده، ولا يُشركوا به شيئًا، والعبادة بمفهومها، **هي**: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[2]، فإذا توفر في أي عمل محبة الله ورضوانه فهو عبادة حتى ولو كان أمراً دنيويًا، فلا بد أن يتوسع مفهوم العبادة في أذهاننا؛ حتى نُؤديها كما أمر الله، فلو أن المسلمين فهموا العبادة فهمًا صحيحًا لعمروا أوطانهم وبلدانهم، وما نجده اليوم من تخلف في ديار المسلمين في الصناعة والزراعة والتجارة، ونحوها، فبعضه بسبب جهل بعض المسلمين بمفهوم العبادة الشامل، وبعضه بسبب تسلط الأعداء عليهم، فإذا أراد المسلمون أن يعود لهم التمكين والأمن والأمان، فليحققوا شروط التمكين، وهي: الإيمان الصحيح، والعمل الصالح بمفهومه العام، وعبادة الله بمفهومها الشامل، وترك الشرك بالله بجميع أنواعه وصوره؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لما ذكر هذه الشروط لم يُعلّقها بزمان ولا بمكان بل أطلقها، فمن تحققت فيه في أي زمان ومكان؛

---

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: (5/ 74).

(2) ينظر: العبودية، لابن تيمية: (ص:44).

جاءه وعدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾، **أي:** ومن جحد وأعرض بعد ذلك التمكين الذي منحه الله لمن توفرت فيه شروطه؛ وتنكب عن طريق الاستقامة والطاعة؛ ففعْلُه هذا دليلٌ على فسقه، وعدم صلاحِه للتمكين والاستخلاف في الأرض، فمن مكّنه الله في الأرض ولم يحكم بشرع الله، ولا قام بما أمره الله به؛ فهو يحفر قبره بظفره، ومعلوم أن من أسباب سقوط الدول وزوالها هو الظلم والبغي والفساد الذي يحصل من حكامها بعد أن يُمكنهم الله، فربما كان بعض الناس مُشرداً أو مسجوناً، ثم شاء الله له أن يصبح حاكماً لمنطقة أو لدولة، فإذا به يمارس البطش والظلم والفجور، كما كان يمارسه من قبله، ولم يتعظ بسقوطهم، فلينتظر سقوطه كما سقط الذي كان قبله، فهذه سنة الله في الظالمين.!

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾، ذكر هنا أسباب الرحمة في الدنيا والآخرة، وهي: إقامة الصلاة بأركانها وواجباتها بطريقة صحيحة، لا خلل فيها ولا نقص، وإعطاء الزكاة التي فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أموال الأغنياء للفقراء والمحتاجين كما أمر الله، وطاعة الرسول ﷺ، الطاعة المطلقة، وذكر هنا الصلاة والزكاة كنموذجين للطاعة، وهذا يدل على مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام، حيث أمر بها استقلالاً ثم عطف عليها الأمر بالطاعة للرسول إجمالاً، فالرسول هو المبلّغ عن الله، وطاعة الرسول هي طاعة لله، **كما قال:** ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:80]، فبهذه الثلاثة

الأمور تُستمطر الرحمات من رب الأرض والسموات.!

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، والمقصود به أمته، أي: لا تظنوا أننّا عاجزون عن إهلاك هؤلاء الكفار الذين يُؤذونكم ويُحاربونكم، أو معاقبتهم، إنما تركناهم للإمهال، فالله لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، بل نتركهم حتى يزدادوا من أسباب غضب الله ومقته عليهم؛ ليكون مقرهم ومثواهم عذاب النار في الآخرة، وبئس المصير مصيرُهم.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أنه لا تعارض بين القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، بل هي مُكملة ومبينة وموضحة لما فيه من إجمال.

2- أن من رد سنة رسول الله ﷺ، فقد سلك طريق الغواية، ومن أطاعه وعمل بسنته، فقد سلك طريق الهداية.

3- أن مُهمته ﷺ هي البلاغ الواضح لأحكام الإسلام، وليس من مهمته أن يُدخل الإسلام والإيمان إلى قلوب الناس.

4- أن شروط التمكين، هي: الإيمان الصحيح، والعمل الصالح بمفهومه العام، وعبادة الله بمفهومها الشامل، وترك الشرك بالله بجميع أنواعه وصوره.

5- أن الضعف والتخلف وتسلط الأعداء الذي أصاب المسلمين اليوم؛

كان ناتجًا عن تخلُّف شروط التمكين السابقة، فإذا أراد المسلمون أن يعود لهم التمكين والأمن والأمان، فليحققوها كاملة.

6- أن من أسباب رحمة الله للعبد في الدنيا والآخرة؛ إقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ، الطاعة المطلقة.

تفسير المقطع التاسع من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ
مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ
لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ
كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾
لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن
تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ
بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ
بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ
جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ
عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾، ناداهم باسم الإيمان؛ تحبيباً وتحريضاً لهم على مزيدٍ من الامتثال للأمر والطاعة، وأمرهم أن يُؤدبوا ويُعلموا ويُربوا عبيدهم وإماءهم ومن لم يبلغ الحلم من الأحرار، وهم الأطفال من الذكور والإناث، **ويأمروهم بالاستئذان في ثلاثة أوقاتٍ**، وهي التي يغلب فيها أن يضع الإنسان ثيابه، وهي تتكرر كل يوم، **فالوقت الأول**: وقت الاستيقاظ لصلاة الفجر، **والوقت الثاني**: وقت القيلولة، حين تشتد الظهيرة والحر فيتخفف الإنسان من ثيابه ليقيل ويرتاح، **والوقت الثالث**: بعد صلاة العشاء وهو وقت الاستعداد للنوم، ومن باب أولى باقي الليل، فلو أراد الخادم أو الطفل الدخول على أهله؛ لزمه أن يستأذن في هذه الثلاثة الأوقات وسماها عورات؛ لأنها مظنة انكشاف العورات فيها، والسبب في ذلك أن العرب قديماً لم يكن لبُيوتهم أبواب، وإنما توضع عليها السُتُر، ومن السهولة بمكان أن يدخل الطفل دون أن يشعر من داخلها وقد يكون غير ساتر لعورته، أما اليوم فالأمر قد أصبح أكثر تحرزاً من كشف العورات، فهناك أبواب ومغاليق ونحوها، ولكن مع هذا يبقى التأديب مشروعاً ومطلوباً للأطفال حتى يتدربوا على هذه الأحكام من صِغرهم، وليس عليكم ولا عليهم حرج في ترك الاستئذان في غير هذه الأوقات؛ لأنكم في الغالب ستكون عليكم ثيابُكم، ثم علّل ذلك بأن هؤلاء الأطفال يكثرون التردد

والدخول عليكم، لتنفيذ توجيهاتكم وخدمتكم، فلو طُلب منهم الاستئذان في كل وقت؛ لشق ذلك عليكم وعليهم، وكما بيّن لكم من قبل أحكام الاستئذان والسلام وما يتعلق بدخول البيوت لمن أتى من خارجها، كذلك بيّن لكم هنا حكماً آخر يخص من هم في داخل البيت وماذا يلزمه، والآيات المقصود بها الآيات الشرعية الدالة على أحكامه، والله عليمٌ بما يُصلح العباد، وما يفسدهم، وحكيم في شرعه، فلا خلل فيه ولا نقص!.

ثم قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾، وإذا بلغ أولادكم الصغار الحلم وصاروا في حكم المكلفين فيلزمهم أن يستأذنوا في كل وقت يريدون الدخول فيه على غيرهم، كما يستأذن البالغون قبلهم من الرجال والنساء، وهذا يعني استمرار العملية التربوية في تعليم الآداب للناشئة حتى يكونوا على ما أراد الله من الأخلاق الحسنة، ويبلغ الإنسان الحلُم بعلاماتٍ، منها: الاحتلام، والحيض للأنثى، أو أن يبلغ الشخص خمسة عشر سنة من العمر، ونحوها من العلامات، وبلوغ الحلم: هو الحد الفاصل بين التكليف وعدم التكليف، كما في الحديث: **"رُفع القلم عن الصبي حتى يبلُغ"**[1]، أي: قلم التكليف، قلم الحسنات والسيئات مرفوع عن الطفل، ويؤجر والدُه إن فعل حسنات، ويأثم والدُه إن قصّر في تربيته أثناء الطفولة إذا فعل سيئات، ولا يُكتب

(1) مسند أحمد: (41/ 224) برقم: (24694)، وسنن الدارمي: (3/ 1477)، برقم: (2342)، وإسناده صحيح.

في صحائف الولد الحسنات أو السيئات إلا بعد البلوغ، فيُصبح الإنسان مسؤولاً عن نفسه إن فعل خيراً كُتب له، وإن فعل شراً عُوقب به، وختمت الآية بمثل التي قبلها مع تنويع في الخطاب والمعنى مُتقارب، لأن كيلهما يحتوي على تشريع، والتشريع يقتضي العلم والحكمة، فإن الجاهل لا يُشرع، وغير الحكيم لا يُوفق في فعله، فهو سبحانه عليمٌ بمصالح العباد، حكيمٌ فيما شرعه لهم من الأحكام.

ثم قال: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠﴾، **القواعد** جمعُ قاعد، وهي التي كبُر سنُها حتى قعدت عن الاستمتاع والشهوة[1]، **والمقصود بهن** النساء العجائز اللاتي كبُر سنُهن وذهب جمالُهن وليس لهن طمع ولا رغبة في الجماع، ولم يعد لهن حاجة بالرجال، ولا الرجال يُفتنون بهن، فلا حرج عليهن أن لا يحتجبن؛ لأنه لا يوجد فتنة منهن، واشترط عليهن أن لا يُظهرن الزينة المخفية، وهي الثياب والحلي وما تضيفه المرأة إلى جسدها من وسائل التجمل والزينة، كالكحل والأصباغ ونحوها، التي تدفع الرجال إلى اشتهائها، والأفضل لهن طلب العفاف، بلبس الحجاب حتى ولو كنّ عجائز؛ لأن الشيطان يزين الحرام للناس ويُجمله لهم، فقد جاء بعض التابعين إلى حفصة بنت سيرين، وكانت امرأة من العالمات التابعيات التي درست على الصحابيات وقد كبُر سنها، وهي تُحدث الطلاب

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:574).

من وراء الحجاب، فقال لها أحدُهم: رحمك الله، **ألم يقل الله:** ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني: يريد منها أن تظهر وتحدثهم؟ فقالت له: أكمل الآية يا بُني، فأكملها، ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾، فتقول: هو إثبات الجلباب[1].

وختم الله الآية باسمين من أسمائه لتنبيههم على أنه سميع لأقوالهم، عليمٌ بأفعالهم، وسيُجازي كل إنسان على عمله.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾، ذكر الله ثلاثة أعذار، وهي: العمى، والعَرَج، والمرض، فلا حرج على من كان به علة من ذلك في ترك الأمور الواجبة[2]، **وقيل:** رفع عنهم الحرج في المشاركة في الأكل مع الناس[3].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾، ولا حرج على أنفسكم أن تأكلوا من بُيوت أولادكم، فالولد بمنزلة النفس، **وفي الحديث:** **"أنت ومالُك لأبيك"**[4]، ولذلك لا حرج على الأب أو الأم أو الجد أو الجدة أن يأكلوا من بيوت أولادهم، وهذا حكمٌ عام، يشمل طعام الأبناء والبنات، ويستثنى من ذلك طعام البنت المتزوجة إذا كان زوجُها هو الذي يملِك الطعام، فلا بد من أن

(1) ينظر: السنن الكبرى للبيهقي (7/ 150) برقم: (13534).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:575).

(3) تفسير الخازن: (3/ 305).

(4) مسند أحمد: (11/ 261) برقم: (6678)، وسنن أبي داود: (3/ 289) برقم: (3530)، وإسناده صحيح.

يستأذن لأن المال ليس مالها، إلا إذا علم من العرف والعادة أنه لا يمانع أو قد أعطاها إذنًا مطلقًا فلا بأس.

﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾، وهذا واضح أيضًا، فليس على الابن أو البنت من حرج أن يأكل من بيت أبيه أو بيت جده.

﴿أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، ويدخل في ذلك بيوت الجدات، وقد تقول: كيف بيوت الأمهات؟ **نعم** يمكن يكون الأب متزوجًا والأم متزوجة، ذاك معه بيت، وتلك معها بيت، وفي بيت الأم إن كانت متزوجة والمال مال زوجها لا بد من الرضى أو الإذن المطلق منه، فإذا علمت أنه يمنع فلا بد من الاستئذان.

﴿أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ﴾، سواءً كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ﴾، سواءً كنّ شقيقات أو لأم أو لأب.

﴿أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ﴾، والأعمام هم إخوان الأب، سواءً كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ﴾، العمات هن أخوات الأب، سواءً كن شقيقات أو لأب أو لأم، بالشرط المذكور في بيت الأم.

﴿أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ﴾، الأخوال إخوان الأم، سواءً كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾، الخالات هن أخوات الأم، سواءً كن شقيقات أو لأب أو لأم، بالشرط المذكور في بيت الأم.

﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، **أي:** الوكلاء والأجراء والعبيد الذين يمسكون مفاتيح مخازن الأموال[1]، ويدخل فيها الحارس الذي يملك مفتاح البيت الذي يحرسه، فهؤلاء لا يحتاجون أن يستأذنوا، بل يأكلون من الطعام الذي يحرسُونه.

﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾، المقصود به بيت الصديق الصادق، فالصداقة الصادقة أقيمت مقام الرحم.

وقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتًا﴾، **أي:** لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين، أو كل واحد يأكل بمفرده، وذلك إبطالاً لعادات الجاهلية، فقد كان الشخص يتحرج أن يأكل بمفرده[2]، وإن كان الأفضل أن يأكل الناس مجتمعين لتحل عليهم البركة، فإن البركة تحل على الطعام إذا كثر عليه الآكلون، **كما في الحديث:** **"طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة"**[3].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةً مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، **أي:** إذا دخل المسلم بيتاً رد السلام على أهله، فيقول: السلام عليكم ورحمة الله، **وإن زاد:** وبركاته، فلا بأس، وإن لم يكن فيه أناس، **قال:** السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، سواءً كانوا من الجن أو الملائكة الساكنين فيه،

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: (ص:1251).
(2) ينظر: فتح القدير، للشوكاني: (4/ 63).
(3) صحيح البخاري: (7/ 71) برقم: (5392).

فإن كان فيه مسلمون وكفار؛ **فقل**: السلام على من اتبع الهدى، فاجعل إخوانك المؤمنين بمثابة نفسك، **والمعنى**: يسلِّم بعضكم على بعض، **فمعنى السلام عليكم**: أسأل الله أن يُسلمكم من كل شر، وهي من عند الله؛ لأنه هو الذي شرعها، ولأنه مالك السلامة وواهبها للخلق، وفيها البركة، وهي زيادة الخير، وهي طيبة؛ لأن بها تطيب النفوس، **ولذلك قال النبي ﷺ**: **"أَوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"**[1]، وتقال في الليل وفي النهار، وفي الصباح والمساء، لأن بعض الناس قد صار في عرفهم أن يقولوا في الليل: مساء الخير، وفي الصباح: صباح الخير، **وفي الظهر**: السلام عليكم، وهذا تخصيص بدون حجة، **ولا مانع في الليل أن تقول**: السلام عليكم، ثم تقول: مساء الخير، ونحوها، **وفي الصباح تقول**: السلام عليكم ورحمة الله، **ثم تقول**: صباح الخير، ونحوها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، كما سبق التبيين لأحكام سابقة شرعها الله لكم وبيّن لكم حكمها لما فيها من مصالحكم، فهو هنا أيضًا يبيّن لكم الأحكام التي ذُكرت في هذه الآية لعلكم تستعملون عقولكم في تدبرها وفهمها، فتزدادون إيمانًا وامتثالاً لها.

(1) صحيح مسلم: (1/ 74) برقم: (54).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- ضرورة تعليم الأطفال والصغار أحكام الاستئذان وحفظ العورات.

2- لا تكشف عورتك المغلظة أمام الأطفال، بمبرر أنه طفل؛ فيتعود على ذلك المنظر.

3- جواز وضع النساء العجائز لحجابهن بشرطين رئيسيين، هما: عدم رغبتهن في النكاح، وعدم إظهارهن لزينة يُفتن بها الرجال، والاحتياط في الدين شأن المتقين.

4- فضل السلام ومشروعية إفشائه بين الناس.

5- من مميزات الشريعة قبول الأعذار، سواءً كان ذلك في العبادات أو في العادات والمعاملات، أو في غيرها من الأحكام.

6- أهمية التكافل الاجتماعي بين الأقارب، وبين أفراد المجتمع المسلم، لما في ذلك من أثرٍ في ذهاب الحزازات من النفوس، وحصول البركة في الطعام، والأجر والثواب عند الله في الآخرة.

تفسير المقطع العاشر من سورة النور

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

بعد أن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيات السابقة أحكام الاستئذان لدخول البُيوت، ذكر في هذه الآيات حكم الاستئذان من مجلس رسول الله ﷺ، **فقال:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، ولا شك ولا ريب أن مجلس رسول الله ﷺ من أعظم المجالس وأشرفها وله مزية على غيره، وقد كان يحضر مجالسه المؤمنون والمنافقون، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أيام غزوة الأحزاب، وقد كان النبي ﷺ يجتمعُ بأهل المدينة ليحفروا الخندق وليحرسوا المدينة لما تحزّب الأحزاب حول

المدينة لغرض اقتحامها والدخول إليها، فكان المنافقون يتسللون ويهربون من مكان الاجتماع بطريقة خفية، دون أن يستأذنوا من رسول الله ﷺ(1)، فوصف الله حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، لأن (إنّما) تفيد الحصر والقصر، فحصرت كمال الإيمان وتمامه في من هذه أوصافهم، فحين يجتمعون برسول الله ﷺ لأمر فيه مصلحة للمسلمين، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك، فإنهم لا ينصرفون عنه إلا بعد استئذانه ومشاورته(2)، وسواءً كان طلبُ الإذن منهم باللفظ الصريح أو بالإشارة أو ما يقوم مقامها حتى يشعر المستأذن أن رسول الله ﷺ قد أذن له في الانصراف، فينصرف، وفيه إشارة إلى أن من حضر مجلساً عاماً وأراد أن يخرج منه أن يستأذن، وأن لا يذهب دون إذن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وفي هذا تلميح إلى أن من ينصرف من مجلسه ﷺ دون إذن، هم في الغالب المنافقون، وأنه ليس لديهم إيمان صادق بالله وبرسوله ﷺ، وإنما إسلام ظاهر، وربما حضر مجلس الرسول ﷺ لمصالح معينة، ولا يستشعر مكانة المجلس، ولا يُقدر النبي ﷺ ولا يحترمه، واستخدم اللام في أولئك لارتفاع مكانتهم وقدرهم عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهم يؤمنون بالله ورسوله حقاً ظاهراً وباطناً.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ﴾، أي: فإذا طلب

(1) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (6/ 229).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 88).

أحد منهم الإذن منك يا رسول الله في الانصراف لقضاء حاجته، فأذن لمن شئت منهم، فأعطى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق الإذن لرسول الله ﷺ، وترك له الخيار في أن يفعل ما يراه مناسباً بحال المستأذن، وفي هذا إشارة إلى أن المسؤول عن الاجتماع له الحق في تقدير مصلحة البقاء والانصراف، وأدرى بمن يأذن له ومن لا يأذن له.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾، أمر الله رسوله أن يستغفر لهؤلاء الذين أذن لهم، والحكمة من ذلك: أن الجلوس أفضل من الخروج، ومن خرج فقد فاته أجر كبير بالجلوس أو حصل له نقصٌ بالخروج، فاستغفار النبي ﷺ له يُغطي ذلك النقص الذي وقع له بخروجه، وفي هذا دليلٌ على مشروعية دعاء الإنسان لأخيه في ظهر الغيب، وأن العبد ينتفع بدعاء غيره له، كما ينتفع بدعاء نفسه، **وعلّل ذلك:** بأن الله غفورٌ رحيم، **أي:** يغفر لمن استغفر، ويرحم من طلب الرحمة، وجمع بين اسميه: الغفور والرحيم؛ لأن المغفرة تغطية وإبعاد ما يخاف منه، والرحمة: تحقيق المطلوب، والإنسان بين هذين الأمرين، وهو محتاج إليهما في حياته كلها، فإذا حصل لك المطلوب وذهب عنك المرهوب؛ فقد حصلت على الخير كله.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾، وهذا أدب آخر، أدّب الله به المؤمنين في هذه السورة، إضافة إلى الآداب التي سبقت، فالإسلام دين النظام ويكره الفوضى والارتجال، فبيّن في هذه الآية كيف يتعامل المؤمنون مع رسول الله ﷺ، **والمقصود بدعاء الرسول ثلاثة**

معانٍ[1]، لا تعارض بينها، وكلها مرادة من اللفظ، **الأول:** لا تدعوه باسمه كما يدعوا بعضكم بعضاً، بل نادوه بوصف الرسالة أو النبوة، فقل: يا رسول الله، أو يا نبي الله، ولا تقل: يا محمد، ولا تُنادِه بكنيةٍ يشترك فيها مع غيره، **فقد جاء في بعض أخبار السير:** أن رجلاً نادى صاحبه فقال: يا أبا القاسم، فالتفت النبي ﷺ، قال: ما أردتك، أردت صاحبي، فقال النبي ﷺ: **"تسمّوا باسمي ولا تتكنوا بكنيتي"**[2]، لأن هذه كانت كُنيته المشهورة، وهذا يدل على عدم جواز الكُنية بها في حضرته أو في حياته، ويجوز بعد وفاته لانتفاء المانع، **والمعنى الثاني:** لا تتعرضوا لإسخاط رسول الله ﷺ، فانه إذا دعا على شخص فدعوته موجبة، **والمعنى الثالث:** لا تبطئوا في الاستجابة لأمره وتتأخروا عن تنفيذه، **كما قال:** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[الأنفال:24]، بل يلزمكم المسارعة إلى إجابتِه وامتثال أمره.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، هذا وصف لحال المنافقين، فقد كانوا يجتمعون مع رسول الله ﷺ، فإذا أرادوا الانصراف انسحبوا متخفين، دون أن يستأذنوا منه، **ولواذاً:** مصدر من الملاوذة، وهو أن يستتر بشيء مخافة أن تراه وتأخذه[3]، **وقد:** هنا تُفيد التحقيق، وعبّر بالمضارع؛ لأنه عملٌ مستمر من المنافقين في كل جلسة، وفي كل زمان، ففعلُهم هذا متكرر.

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 309).

(2) صحيح مسلم: (3/ 1682) برقم: (2131).

(3) ينظر: العين: (8/ 199).

وقولــه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: فليحـذر المخالفون لأمر رسول الله ﷺ، وقيل[1]: أمر الله، والصحيح أنه يشمل أمريهما معًا، فأمر الرسول من أمر الله ويجب طاعتهما معـًا، والمقصود بأمر الرسول: سنته وطريقته وشريعته، والمُخالف لأمر الله ورسوله ﷺ متوعد أن يصاب بالفتنة، وهي: الزيغ والشك في القلب، التي تكون سببًا للشرك والكفر بالله، أو أن تُصيبه مصيبة في أهله ودينه وماله بسبب كثرة مخالفته لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، وكلاهما صحيح، ولكن المعنى يختلف بحسب نوع المخالفة.

وقولـه: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾، أو: هنا ليست للتخيير، بل هي للتنويع، فهذه الفتنة قد تكون في دينه، وقد تكون في دنياه، وقد تكون عذابًا أليمًا في الدنيا بالقتل ونحوه، وقد تكون عذابًا أليما يُصيبُه في الآخرة، وهو عذاب جهنم، وذلك بحسب نوع المخالفة، وفي الآية إشارة إلى أن الواجب على المسلم أن يعيش في حياته كلها موافقـًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وفي ذلك تحذيرٌ من البدع المخالفة للشرع، وفي الحديث: **"من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رد"**[2]، أي: مردودٌ على صاحبه، لأن دين الله قد أُكمل، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:3]، فمن أحدث في الدين بدعة، فقد اتهم الرسول ﷺ بعدم إبلاغ الدين كله، واتهم الإسلام بالنقص، والواجب على المسلم أن يتبع ولا يبتدع، وأن يحذر من

(1) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 425).

(2) صحيح البخاري: (3/ 184) برقم: (2697).

مخالفة أمر الله وأمر رسوله بالهوى والمصالح الشخصية، بل يجعل هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ويتعبد لله بما شرعه الله وبلّغه رسوله ﷺ.

ثم ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه السورة، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، **ألا:** هنا لتنبيه السامع، وإيذانًا بانتهاء الكلام، وملك الله يشمل الكون كله خلقًا وتقديراً ومُلكًا وتدبيراً، فلا أحد في الكون يملك شيئًا غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وقد:** للتحقيق، وعلمُ الله أزلي، فهو يعلم بالشيء قبل أن يكون، وبعد أن يكون، وأثناء ما يكون، وعلم الله مُحيط بكل شيءٍ، والخطاب مُوجه للمنافقين بحسب السياق(1)، ولا مانع أن يكون عامًا لجميع المكلّفين(2)، لأن الفائدة والغاية من توجيه الخطاب لهم هو التهديد والتحذير لهم، **والمعنى:** أن الله لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم، ما أظهروا وما أخفوا في حياتهم الدنيا، فلا تقعوا في مخالفة أمر الله وشرعه.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾، يجوز أن تكون الواو عاطفة؛ **فيكون المعنى:** أن علم الله محيط بالخلق في الدنيا وفي الآخرة، فيعلمُ ما هم عليه في الدنيا ويعلم حالهم يوم القيامة(3)، ومن ثمرة علمه وإحاطته المطلقة بخلقه، أنه سيُخبرهم بما فعلوا من خير أو شر يوم القيامة ويحاسبهم عليه، ويجوز أن تكون الواو استئنافية؛ **فيكون المعنى:** أن الإخبار لهم بما فعلوا من

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 68).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:577).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 68).

خير وشر سيكون يوم القيامة[1]، فالله يجمعُ الناس يوم القيامة وينشر الصحف ويخبر كل إنسان بعمله من خيرٍ أو شر، وخص الإخبار بالعمل المضاف إليه؛ لأن الله إنما يُحاسبُهم عما عملت أيديهم من خير أو شر.

وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾، تأكيداً على إحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأنه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن دين الإسلام دين النظام، نظّم آداب الاجتماع والمجالس والدخول على البيوت، ونحوها.

2- بيان منزلة النبي ﷺ وعِظَم شأنه، ووجوب طاعته وتوقيره واحترامه.

3- بيان شؤم المعصية والمخالفة لأمر الله وأمر رسوله، وخطورتها على خاتمة العبد.

4- إحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالكائنات كلها، وأنه مالك الكون كله، وأن ما يملكه الخلق من أملاك إنما هي ودائع عندهم، ثم يموتون ويتركونها، والمالك الحقيقي لها هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

---

(1) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: (1/ 359).

فهرس المحتويات

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الأنبياء والمؤمنون (١٧-١٨)

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

